

سلسلة

جدران
المعرفة

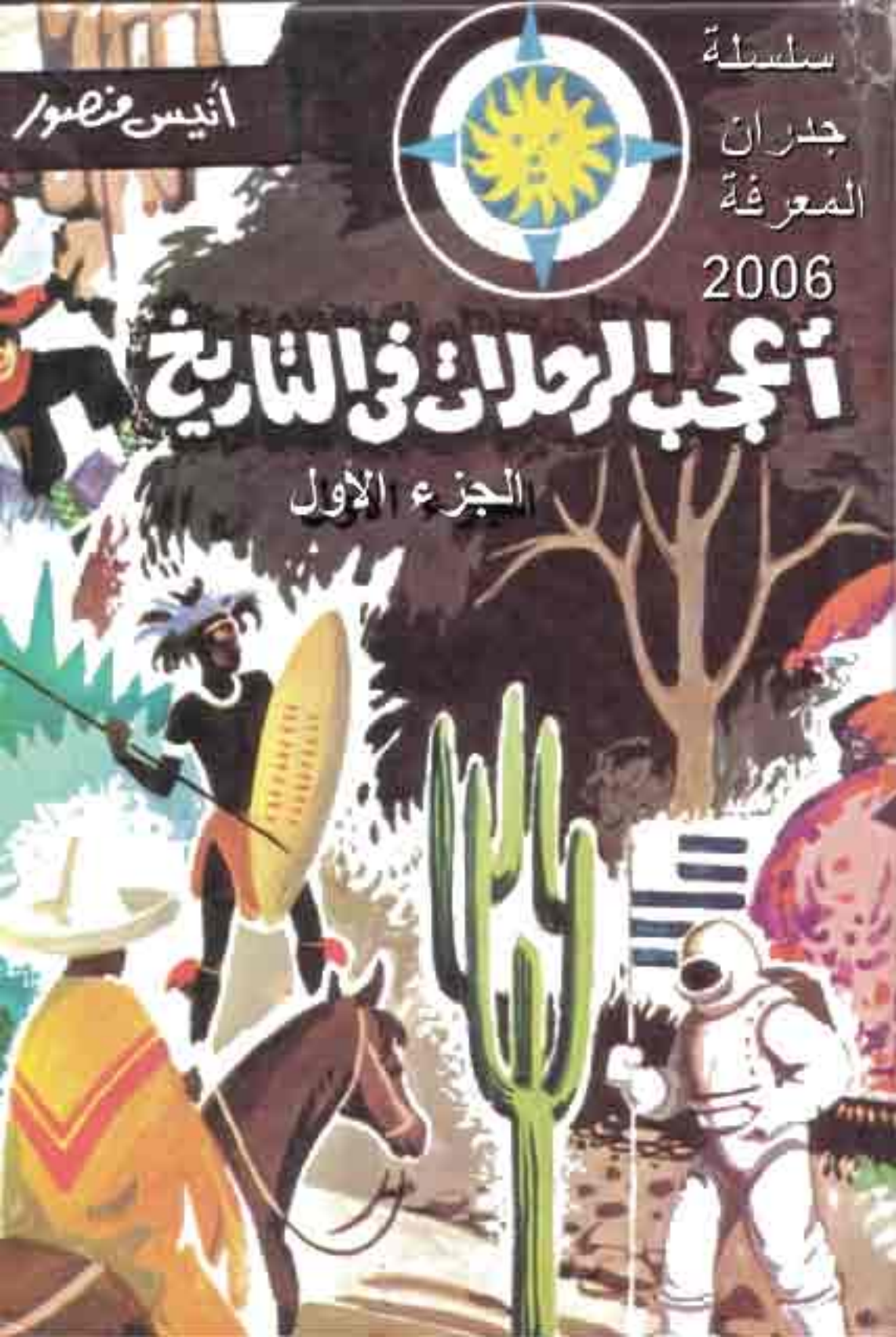
2006



أنيس فرصور

أعجب الرحلات في التاريخ

الجزء الأول



سلسلة
جدران

k o t o b

المعرفة®

" بحثاً عن عالم أفضل "

* يمكنكم التعرف على فهرس السلسلة الاولى فى اخر صفحة فى هذا الكتاب .
كما أننا ننصح بقراءة الكتاب بنظم full screen عن طريق الضغط على { ctrl +

{ L

وتقريب الصفحة zoom in

{ ctrl + m }

حتى لا تؤذى عينيك .

وقد ارفقنا فى كل كتاب فهرس للكتب bookmarks لتقليب الكتاب فى سهولة ويسر

انظر فى اعلى الشمال .

مع تحيات

J&m

Theknowledge_walls@yahoo.com

- ١٩٧٢ الطبعة الأولى
- ١٩٧٣ الطبعة الثانية
- ١٩٧٦ الطبعة الثالثة
- ١٩٧٧ الطبعة الرابعة
- ١٩٧٩ الطبعة الخامسة
- ١٩٨١ الطبعة السادسة
- ١٩٨٢ الطبعة السابعة
- ١٩٨٤ الطبعة الثامنة
- ١٩٨٨ الطبعة التاسعة
- ١٩٨٩ الطبعة العاشرة
- ١٩٩١ الطبعة الحادية عشر
- ١٩٩٤ الطبعة الثانية عشر
- ١٩٩٥ الطبعة الثالثة عشر

طيور غريبة ...
على شجرة المسافرين

هناك ثلاثة أنواع من الرحلات :

— أن تسافر . .

— وأن تقرأ الكتب . .

— وأن تقرأ كتب الرحلات^(١) !

والذي يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم . .
يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر . . والجانب الآخر
من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم . .

وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد : وبين أن تسافر لتعرف الناس
والذي يسافر كثيراً يعرف الكثيرين . ولكنه يصادق القليلين . .
والخلل الإغريقي يقول : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب — أي عشب
الصداقة والمحبة والهدوء . . ولكن هل من الضروري أن ينبت العشب
على الحجر . . ليس ضرورياً . . يكفي أن الحجر يتحرك وينقل ويقهبط هنا
ويصطدم هناك . . ولكنه يمضي ويسجل في أعماقه هذه الفوارق العريضة
العظيمة بين شعب وشعب . . وبين تجارب شعب وتجارب شعب آخر . . أي
ما الذي فعلته الشعوب في تاريخها . . وبتاريخها أيضاً . .

المهم أن يتحرك . .

(١) راجع كتيبي : « حول العالم في ٢٠٠ يوم » و« بلاد الله خلقاته » و« اليمن ذلك المجهول »
و« أطيب نعماتي من موسكو » .

والذى يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى ، هو فيلسوف
والذى يروح ويحيى ولا يقول . . إنه صعلوك فقد استمتع واكتفى ! .

وفي الصفحات الأولى من ملحمة و الألياذة نجد الشاعر الأعمى
هومروس يتحدث عن البطل فيقول : إنما داح وصارع ونعذب وانتصر
وحمل ما رأى ليعود ويقول للناس شيئاً جديداً مثيراً ممتعاً !

وكثيرون راحوا وجاءوا . . وجاءوا كما راحوا ، لم يتغير منهم شيء . .
وسبب ذلك أن نفوسهم صماء . . لم تنفتح على شيء ، ولم يفسل إليها شيء . .
والمثل القديم يقول : حمار سافر ، فلن يعود حصاناً !

وعندما شكنا أحد تلامذة سفراط من أن السفر لم يقلده ولم يغيره قال له
سفراط : من الطبيعي ألا يغيرك السفر شيئاً ، لأنك سافرت مع نفسك !

فالطبيعي جداً أن يسافر الإنسان . . أن يرحل . . أن يذهب بعيداً عن
بيته ووطنه . . ليرى ويعرف . . إنه حب المعرفة . . إنها المغامرة . . إنه
المجهول الذى يتحدانا ونحداه . . إنها مشعة المعرفة والخوف منها معاً . .
ولذلك فالرحلة هى مزيج من الرغبة والرهبة . . من الشجاعة والخوف . .
ولكن الإنسان يفضل دائماً أن يعرف المجهول مهما كان الخوف . . وكثيراً
ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا . . وماتوا وهم يعرفون
أكثر . . ولا بد أن نعاسهم الوحيدة هى أن الموت حرمهم من أن يقولوا
ما الذى رأوه . .

وكثيرون رأوا . . وعادوا يقولون . . إن المؤرخ هيرودوت جاء
إلى مصر . . وعاد ورأى المعجائب . . وكتب . . وكان يتغنى بما رأى
في مهرجان الألعاب الأوغيمية . .

والألكندر الأكبر جاء إلى واحة سيوة . . وطلبت إليه إحدى الآلهات
أن يتفرد بها . . وحسب في أذنه بسر الكون . .

والمفائد هانئاً أن أقسم أن يعبر البحر وأن يجعل الأمواج بساطاً إلى روما . .
حتى يقضي على كل رومان وحى يمسك في يديه مصير مدينثروما إلى الأبد .
ـ . . والرحالة الإيطالي ماركو بولو . . أهانته فتاة يخبأ . فأقسم
ألا يعود إلى بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحداثه عشرات الفتيات الجميلات . .
وبرفضهن جميعاً !

وعاد ولم يجد الفتيات . . ولم يحزن على ذلك . . فالننى رآه أروع . .
وأصدق . .

واين بطوطه هاجمه الهنود ومرقوا مذكراته كلها . . وعاد ليروى
ما حدث له في عشرين عاماً من الذاكرة . .

والرحالة ابن جبير الكنائى الأندلسى الشاطبى قد تعب كثيراً من
رحلاته في الشرق الأوسط . . ولكنه في النهاية سعيد بما رأى . . ويشكر الله
على ذلك . . وفي نهاية رحلته يقول :

فألفت عصاه واستقر بها النوى

كما قرر عيناً بالإياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذى

أولاه ، والتيسير والتسهيل الذى

والاه ، فكانت مدة مقامنا من موعده

خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا

هذا . عامين كاملين وثلاثة أشهر

ونصفاً ، والحمد لله رب العالمين ،

وكل هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذته . . ولو

تغيرناهم أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا . . فهم يريدون أن يستمروا . . أن يعضوا حتى نهاية الرحلة . . أو نهاية الحياة . .

وفي كل كتب الرحلات هذه العبارة : لا أعرف ماذا حدث . . وكيف حدث . . ولكني قررت أن أتوكل على الله حتى النهاية . .

فمثلا في « رحلة كون تيكى » للرحالة النرويجي نور هابر دال يقول :
كان ذلك يوم ١٧ مايو . . إنه عيد الاستقلال . . ونحن في عرض المحيط . .
لا أعرف كيف حدث ما حدث . . كيف وجدت نفسي في المحيط على
زورق خشبي . . معي بيغاء وخمسة من البحارة . . ولما سألت واحداً منهم
قاللا : كيف حدث ما حدث ؟ كان رده : لا أعرف . إنها
فكرتك الخيوية . . ولكنها رائعة ! »

ولابد أن البحار هابر دال قد اعتاد على هذا الجنون عندما عبر المحيط
مرة أخرى بالزورق « رع » المصنوع من أعواد البردى . .

ويقال إن هيرودوت المؤرخ الكبير جاء إلى مصر هرباً من البوليس . .
فقد اتهموه بالاشتراك في مؤامرة . . وقد حاول هيرودوت أن يجعل لرحلته
إلى مصر معنى نفسياً أو فلسفياً . . مع أنه ليس إلا مجرماً هارباً ، حاول أن
يستفيد من مفاته !

ولابد أن صاحب هذا الرأي لا يقبل أن يسافر أى إنسان لمجرد السفر
والمعرفة . . فلا بد أن يكون هناك سبب . . فالغرض من السفر هو أن يتحقق
الإنسان من عذابه . . أن يلقي بهومه على الشواطئ الجديدة . . ويرميها
على الوجوه الجديدة . .

هذا المعنى أيضاً نجده في الصفحة الأولى من « ألف ليلة وليلة » . .
فهذه الليالي هي شكل أدبي لكي يروي لنا المؤلف المجهول حوادث ونواهد
. . وعادات غريبة في بلاد غريبة . . وليس صحيحاً أن هذه الليالي كانت

بسبب خيانة زوجة الملك شهریار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان . . . فألف ليلة وليلة تبدأ بأن الملك شهریار قد اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان . . . وطلب إليه أن يجيء لزيارته . . . وأعد الملك الأصغر خيامه وجبله . . . وفي آخر لحظة تذكر شيئاً — وكان لابد أن يتذكر هذا الشيء — وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعي خادم زيجي . . . فقتل الاثنين . . . وسافر حزيناً إلى أخيه شهریار . . . وعندما دعاه أخوه إلى الصيد والتخفيف عن نفسه ، اعتذر الأخ الأصغر وذهب الأخ الأكبر وحده . . . وتصادف — ولابد أن يتصادف طبعاً — أن نظر الملك الأصغر من النافذة . . . فوجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم المزوج . . . وتبادلوا عناقها جميعاً . . . وكانت صليمة . وأحس الأخ الأصغر بأن مصيبتة هو أهرن من مصيبة أخيه . . . وروى لأخيه ما حدث ولم يصدق . . . وقرر أن يرى بعينه . . . وتوارى ورأى — مصيبة أخرى !

ومن هذا الشعور بالهوان والخيبة واليأس تنبع قصص « ألف ليلة وليلة » فقد قرر الأخوان أن يسافرا إلى بلاد أخرى وشعوب أخرى . . . ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذه هي حال الدنيا . . . أو حال دنياهما فقط . . .

وتحت إحدى الأشجار وجد الأخوان خاتمة جميلة بنام علي ساقها عفريت فخافا . . . ولكن الفتاة طلبت إليهما أن يبيطا وأن يعانقاها الواحد بعد الآخر . . . وإلا أبقظت العفريت . . . واقتربا منها . . . وعانقاها ، الواحد بعد الآخر . . . وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتماً . . . قد أخذتها جميعاً من أناس عانقوها الواحد بعد الآخر ، بينما كان العفريت تائماً على ساقها . . . وخلع كل منهما خاتمه . . . وأعطاه لفتاة !

ومن المنطق أن يقول أحد الأخوين : إذا كان هذا هو حال المرأة مع عفريت فما الذي تفعله المرأة مع أي إنسان ؟

وعاد شهربار إلى بيته وقتل الزوجة وخداعها .. وراح كل ليلة يزوج فتاة ويقتلها .. حتى جاءت شهرزاد تروي أكثر من مائتي قصة في ألف ليلة وليلة ، وتروي له عجائب الدنيا لم يكن يسميها .. لقد اشترت حياتها بالرحلات والمغامرات ..

أما المعنى العام لهذه الليالي كلها فقد جاء في صفحاتها الأولى هكذا :

لا تأمن إلى النساء	ولا تثق بمهودهن
فرضاؤهن ومخطفهن	معلق بصدورهن
يدين ودا كاذبا	والعمر حشو ثيابهن
بجديث يوسف فاعتير	متحذرا من كيدهن
أو ما ترى أبليلس	أخرج آدم من أجلهن ؟

والذي حدث للملكين لبس إلا حيلة ، أدبية لاستدرج القارئ .. وبعد ذلك تتحول الليالي إلى مغامرات في البر والبحر وبين الناس .. وفيها شعر وخيال وفيها حقائق تاريخية جغرافية وموعظة أخلاقية !

وكثير من النوادر العجيبة التي دخلت في عالم الخيال ، قد أعاد روايتها ابن بطوطة في رحلته .. فهو يحدثنا عن الأحجار التي سقطت من السماء .. وعن النساء اللاتي من ندى واحد .. وعن العفاريت التي تحكم جزر المالديف في المحيط الهندي ..

وكل صاحب رحلة يروي ما شاهد على طريقته وبأسلوبه .. ولكن من الضروري أن يكون صادقا ، وأن يضع الصدق في برايز فنية .. والذي يقرأ « رحلات جيلفر » للكاتب الساخر الكبير سويت بجد هذه العبارة في نهاية الكتاب : (لو كان الأمر بيدي لأصدرت قانونا يحرم على كل رحالة أن يضم بالله العظيم أن يقول الحق ولا شيء إلا الحق قبل أن ينشر ما رأى وما سمع !)

ومن الغريب أن هذه العبارة قد جاءت في نهاية رحلات لا أساس لها من الواقع ، وإنما هي خيال الأدب الكبير الساحر - ومن المؤكد أنه يسخر من العلماء الجامدين الذين لا يصدقون ما يقوله الرحالة المتغامرون .. ولا يحبون شاعرية المسافر الذي بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف !

وليس المهم أن يسافر الغريب إلى أرض غريبة ، وإنما أن يعود إلى بلده ليقول .. لعل أحداً ينتفع بما قرأ .

وكثير من الناس لم يروا بلادهم وإنما فتحوا أعينهم وقلوبهم على الخارج وأقبلوها على أنفسهم .. وكان القديس أوغسطين يتصح تلامذته بقوله : بل اجلسوا .. اجلسوا .. وما هذه الأنهار والجبال والوديان والتجويم والفتيات .. بلادكم أولى بكم .. بل نفوسكم أعمى .. فانظروا فيها ..

وهو يدعو تلامذته إلى أن يتأملوا الإنسان نفسه .. في النفس أعماق وألغاز : أصعب مما في هذا الكون كله . ولا بد أن يستعين الإنسان بغيره على أن يفهم نفسه .. يستعين بالكتب .. أى بمؤلفي هذه الكتب .. ولذلك فراءة الكتب : رحلات أخرى في عقول الآخرين .. ووسيلة إلى الرحلات في أعماقنا .

أما كتب الرحلات فهي أعماق الآخرين .. وأعمقنا نحن أيضا .. وأعمق هذه الدنيا .. ولذلك كانت أروع الرحلات هي التي نقوم بها في رحلات الآخرين .. نرى بحيوتهم ونسمع بأذانهم ، نرغمي على أحضانهم ونمشي على الدنيا معا .. وفي ذلك متعة للخيال وشويق للإرادة .. أن نفعل مثلهم .. نسافر مثلهم .. ونكتب مثلهم .. وننتفع بلادنا في النهاية ..

ولاخوف إذا سافرنا .. ولاخوف إذا قصرت رحلاتنا .. ولا ضرر إذا لم نتجح كما نريد .. وإنما المهم أن نروح ونحيي .. أن نرى ونروى .. أن نعيش ونثير .. أن نتفعل ونتفع ..

ولا أزال أذكر ما قاله الحريري في كتاب « المقامات » :

فقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الخناب الذي يهوى به المطر

فإن رددت فنا في الرد منقصة عليك ، فدرد موسى قبل والمخضر

ونحن في عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى .. وإذا كنا لا نعرف الكثير من هذه الكواكب ، ، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية .. فأمريكا وروسيا ، لا تسمحان إلا بالقليل من المعلومات .. وحتى لو سمحت الدولتان ، فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء ولذلك لا يعرفون كيف يصفون .. حتى الحملة الوحيدة التي قالها أول إنسان وضع قدمه على القمر كانت قد كتبت له قبل أن يرتفع عن الأرض .. فلما ردها أخطأ في النحو . ١

ولكن المسافر ، يجب أن يكون قادراً على الاحتمال ، وقادراً على الملاحظة . وقادراً على أن يروى بعد ذلك . وأن يكون محتعاً .. وهناك عشرات مسافروا وغامروا ورأوا عجائب الدنيا القديمة والجليلة .. وأسأموا فهم ما رأوا .. وبرعوا في فهم ما رأوا .. ولكنهم دائماً يستحقون الإعجاب . ويستحقون أن تلفت إليهم وأن تعلم منهم .. وأن تلاحقهم جرياً وراءهم بأقدامنا وعقولنا وتحياتنا ..

ولما بدأ الإنسان حياته على هذه الأرض كان صياداً يرحل من مكان إلى مكان ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب : أن يسافر في بلاده ليعرفها .. وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ليصلح نفسه وغيره .. وليضيف إلى تاريخ بلاده .. تجارب الآخرين .. فليس أروع من السفر .. وليس أحب من المسافرين الذين يقولون ويقدرّون على ذلك ..

وفي جزيرة مدغشقر يوجد نوع من أشجار الموز .. الشجرة مرتفعة جداً ولها أوراق ملتوية كأنها ذراعان تحتضان شيئاً .. أما هذه الأوراق فهبط

عليها الأمطار . وتنزل الأمطار إلى حوض في نهاية الأوراق . ويظل المطر في هذا الحوض ترتوى منه الشجرة في وقت الجفاف . وقد سميت هذه الشجرة باسم شجرة المسافرين ، لأنها مثل المسافرين تدخر الماء لوقت الحاجة . . ولأن الكثيرين من المسافرين الذين لا يجنون الماء يبحثون عنه في هذه الشجرة . . يرتوون ثم يتمددون تحتها وينامون . .

وهناك أسطورة تقول إنه إذا نام تحت الشجرة مسافر واحد . فإن نوعا من الطيور يقف على هذه الشجرة . . وهنا الطير لا يقف على الشجرة إلا إذا كان النائم من بلاد غريبة . .

فما أكثر الطيور على أشجار المسافرين في كل مكان !

وكان المصريون
يطلقون طريقاً منه عجر

حدث له هو أيضا ما حدث لمحمد على الكبير عندما سقط في الماء ،
امتدت إليه أبدي البحارة .. وأنقذوه ثم أعادوه إلى الشاطئ فقد كان هارباً .
واختلف المؤرخون في السبب الذي هرب منه المؤرخ الإغريق هيرودوت
الذي ولد سنة ٤٨٠ ق.م .

قالوا : هارب من ديون !

وقالوا : هارب من فضيحة أخلاقية .

وقالوا : بل من مؤامرة سياسية .

وعندما سئل بعض أقاربه أكدوا أنه مجنون - وأنه يحدث نفسه كثيراً
وأنه يعيش أثناء النوم .. ولذلك فعندما حاول الهرب من « تركيا » إلى أي
مكان في العالم ، كان طبعياً أن يفعل ذلك . أليس مجنوناً ؟

ولكن هيرودوت لم يكن مجنوناً إلا بالسفر .. إلا بأن يعرف من أين
يجي هؤلاء الناس الذين يراهم ويعبرون الدردنيل .. إنهم بيض وسمر وصفر
وسود .. طوال وقصار وعيونهم سوداء ورفاه .. وشعرهم أسود وأصفر .
ولا توجد بينهم نساء .. ولا أطفال ..

قرر الشاب هيرودوت أن يسافر .. ووجد نفسه . وهو في العشرين
بين ركاب إحدى السفن . تمارض في الأيام الأولى حتى لا يسأله عن أي شيء .
إن كانت معه فلوس . أو كان مسافراً أو مهاجراً . أو حتى من هو ولماذا
ترك بلاده مع أنه ليس تاجراً ولا جندياً . وكان هيرودوت يخاف على شيء
تعلق في عقله : إنه كبس من القمماش ملاءة بالواح من الشمع ليسجل عليها
ملاحظاته . وعرف هيرودوت أنه مسافر إلى مصر .. وكان سعيداً . وطلب
إلى المسافرين أن يستمعوا إليه وهو يخفي .. ويقال إن صوته جميل .

ولا يحدثنا هيرودوت عن السفينة أو البحر . فقد انجبت عيناه وخياله إلى مصر والشواطئ المصرية والمعابد والأسرار . ويبدو أنه نزل عند رشيد . وأقام في أحد الفنادق هناك . الفندق صغير من ست غرف . لكل واحد غرفة . ومن الغريب أن الناس يتحدثون بعضهم إلى بعض دون سابق معرفة . والمصريون كما يقول كثراء . كل واحد يعطيك ما في يده وهو لا يعرف من أنت .. وإنما يحس أن من الواجب أن يفعل ذلك وإلا اعتبروه بخيلاً — وهذه رذيلة كبرى !

ولم يمض وقت طويل على بقاء هيرودوت في مصر حتى قال : « لأنها أجمل بلاد الله . وفيها من العجائب والأسرار ما يعجز القلم عن وصفه » .

ولاحظ هيرودوت أن المصريين عموماً في غابة الرشاقة . رجالاً ونساء . وبسرعة أدرك الفوارق بين المصريين وبين كل شعوب العالم . يقول هيرودوت إنه ذهب إلى الأرض التي جرت عليها إحدى المعارك الحربية بين المصريين والفرس . ولاحظ أن جماجم الفرس قد وضعت في جانب .. وجماجم المصريين في الجانب الآخر .. وأن جمجمة الجندى الفارسي هشة للدرجة أننا إذا ألقينا عليها حجراً ثقبها .. أما جمجمة الجندى المصري فيصعب أن نشبهها بحجر . وسأل هيرودوت رجال الدين : ما السبب ؟ فقالوا إن المصريين يخلقون رؤوسهم تماماً وتظل معرضة للشمس مدى الحياة وهذا يجعلها أكثر صلابة . أما الفرس فيضعون العائم على رؤوسهم .

يقول هيرودوت : يبدو أن هذا سبب وجيه !

واندهش هيرودوت وهو يمشي في شوارع المدن والقرى المصرية ... البيوت متعزلة بعضها عن بعض .. والمعابد كثيرة . والموسيقى تخرج من وراء كل باب وناقذة .. وهناك الحلال شديد . أو كما يقول هيرودوت : لم أكن أنصوّر أنه من الممكن أن يكون للإنسان حريات شخصية إلى هذه الدرجة ! ويقول أبو التاريخ هيرودوت : « جو مصر يختلف عن كل أجواء

الدنيا والنهر كبير واسمع حتى* بالحياة والحركة.. والناس لم عادات غريبة .
 إن المصريين يختلفون عن كل الشعوب الأخرى .. الرجال يذهبون إلى
 السوق ، والنساء يجلسن يقرنن في البيت . الرجل يحمل الأشياء على رأسه ،
 أما المرأة فتحملها على كتفها .. الرجال يذهبون إلى دورة المياه ويجلسون ،
 أما المرأة فتذهب لتقف .. المصريون يتناولون طعامهم خارج البيت ، ولكن
 يحرصون على النوم في الداخل . لأن المصري يرى أن كل ما هو خاص جدا ،
 يجب أن يتم في سرية .. المرأة المصرية لا يمكن أن تكون راهبة أو كاهنة
 وهذا أفضل .. الرجال فقط . رجال الدين في العالم كله يطلقون شعورهم
 والمصريون يفعلون تماما . الرجال يضعون الباروكة في الجنازات ، بينما في
 العالم كله لا يفعلون ذلك .. كل الشعوب الأخرى يضعون حيواناتهم في
 الزرابي ، المصريون يتأمنون مع حيواناتهم .. المصرية عندما تعجن قزها
 تعتمد على ركبتيها ولكن لا مانع عندها أن تمد يدها إلى الطين أو إلى روث
 البهايم ثم تترد إلى العجين مرة أخرى .. الرجال يلبسون الثوب من قطعتين ،
 والمرأة من قطعة واحدة .. المصريون يكتبون من اليمن إلى اليسار ، والشعوب
 كلها تكتب من اليسار إلى اليمن . المصريون عندهم نوعان من الكتابة :
 مقدسة وعادية .. المصريون يرون أن الطهارة ضرورة صحية ومقدسة أيضا .

وهيرودوت شاب دقيق الملاحظة . وكان يسأل دائما لكي يعرف .
 وعندما لا يقتنع يقول : سمعت الكهنة يقولون ذلك .. أو قال لي واحد من
 الكهنة ..

وقد لاحظ هيرودوت في مصر عددا كبيرا من رجال الدين .. ملابسهم
 نظيفة وفي صحة جيدة .. ويستحمون مرتين في اليوم بالماء البارد حتى
 لا يكون في ملابسهم قمل أو براغيث - فأمام الآلهة يجب أن يكون الكاهن
 نظيفا تماما .. والكهنة يعيشون مجانا : طعامهم وملابسهم . والذي يزور الكاهن
 في معبده يزور رجلا غنيا أمامه الطعام من كل لون : دواجن وفاكهة

ولحوم سائحة . وباردة - ولا بد أن هذا منظر لا يمكن أن ينساه رجل جاء من الشاطئ الآخر . وليس معه مليم واحد . وإنما يكتسب قوته من تدريس اللغة اليونانية . ومن كرم رجال الدين ... ولذلك كثيرا ما يتحدث هيرودوت عن الولائم والطعام الكثير الذي يتناوله المصريون أو الذي رآه على مآذب الأغنياء .. ومن التريب أن الأغنياء لا يأكلون كل هذا الطعام . ولذلك يسأل هيرودوت نفسه هذا السؤال الخالد : لماذا يقدمون طعاما كثيرا بقبض عنهم ، وهم يعلمون ذلك ؟!

وقد لاحظ أن المصريين يحبون الخفلات والمهرجانات .. الغناء .. والرقص .. والحمر . ولكن من الملاحظات العبقريّة لهيرودوت : أنه نظر إلى وجوه المصريين فوجد عليها مسحة من الحزن . ويقول : إذا نظرت إلى سيدة من بعيد ، وكانت تضحك أو تغيى .. فإنك لا تعرف - حقيقة - إن كانت تبكي أو تندب عزيزا عليها .

ولكن إذا اجتمع الناس فالرجل يمسك الزمار والمرأة تمسك الصابحات وينهض الرجال يرقصون .. والنساء يرقصن .. ولاحظ أن الرجل هو الذي يرفع ثوبه - على سبيل الإغراء - إذا رقص !

أما عيد المصاييح فالمصريون يضعون في أيديهم آنية قد امتلأت بالزيت وفيها شموع تغل مشتعلة طول الليل .. وحول الشموع ترقص الفتيات والرجال يرقصون ويقنون ويتساقطون من الضحك والانسجام - وكلهم يشربون الحمر .

وقد أطلع بعض رجال الدين على العلقوس السرية فلكه أوزوريس بشرط أن يكتم السر .. وكتم السر . ولم يذكر شيئا واحدا مما رأى .

وأطلع الكهنة المصريون على أسرار كثيرة لهذا الكون ولتحويل المعادن إلى ذهب .. وكان هيرودوت عند وعده . لم يقل شيئا^(١) !

(١) راجع كتابه الذين هبطوا من السماء .

ولكنه ذكر أنه رأى نوعا من الأفاعى تطير .. ورأى الكهنة يطلقون طيوراً مصنوعة من الحجارة ، فإذا هي تطير . ولم يستطع هيرودوت أن يعلق على ذلك .. ولكنه عندما عاد إلى أثينا راح يروي ما رأى لشباب أثينا أثناء الألعاب الأولمبية .

واندهش هيرودوت عندما رأى تماسيح النيل .. وربما كان هيرودوت هو المسئول وحده عن نشر حكاية التماسيح في نيل مصر .. فقد ظل الناس يعتقدون أن التماسيح تنبئ طوفان النيل في القاهرة .. مع أننا لا نراها إلا في حديقة الحيوان .. ومن مئات السنين . وقد وصفها هيرودوت فقال : التماسيح له عينا خنزير .. وأسنانه كثيرة .. وليس له لسان (١٩) وهو الحيوان الوحيد في العالم الذى يحرك فكاه العلوى؟! .. والتماسيح لا يرى في الماء .. وإنما يرى على الشاطئ فقط .. وفي مدينة أسوان يأكل المصريون التماسيح ولا يرونه مقدسا .

ولسبب غير معروف هاجم هيرودوت الملك خوفو .. أو على الأصح فأثر برأى الكهنة في هذا الملك .. فهم يرون أنه ملك سافل منحط حقير — هذه كلمات هيرودوت أيضا . فهو الذى سخر الشعب في بناء الهرم الأكبر . وأنفق ميزانية الدولة .. ويقول هيرودوت إن من عادة المصريين أن يطلبوا إلى البنت أن تساعد والدها ، أما الولد فليس مضطرا إلى ذلك .. ولهذا كان من الطبيعى أن يطلب الملك خوفو إلى ابنته الجميلة أن تساعد .. وتحمي القنات ما الذى تصنعه .. فأشار أبوها إلى جمالها وهو يقول : أليس لهذا الجحش الجميل ثمن ؟

ثم تقدم الدين يريدون أن يدفعوا الثمن ..

وساعدت ابنة فرعون والدها ..

ويرى هيرودوت أن الهرم الأكبر معجزة في البناء . ويرى أن نقل الأحجار هو المعجزة .. لذلك لابد أن يكون الهرم قد بنى أول الأمر على

شكل مصطفية ثم رفعوا إلى جوارها التراب .. ومن التراب المرتفع كانوا يرفعون الأحجار مستخدمين آلات رافعة من الخشب .. وقد بنى الهرم أكثر من مائة ألف عامل .. وكانوا يعملون ثلاثة شهور كل سنة ولمدة عشرين عاما .. أما الطريق الذي رصده العمال ليدسجروا عليه الأحجار فقد كان معجزة هندسية .

وعرف هيرودوت من الكهنة أن المهتمس الذى بنى الهرم أراد أن يبين للأجيال القادمة كيف صنع العمال المصريون هذه المعجزة وأى نوع من الطعام كانوا يأكلون .. ف سجل كميات البصل والفجل والثوم التى استهلكها العمال .. وبعملية حسابية بسيطة يمكن معرفة كم تكلف بناء الهرم الأكبر ..

ثم يعود هيرودوت بهاجم المثلث خوفا ويروى عنه قصة لها نظير فى الثوراة فيقول إن خوفا أصابه الفقر فى آخر أيامه .. ولم يجد غير ابنته . وأعطت ابنته جسمها لأغنياء مصر .. ودفعوا .. ورضى الأب .. ولكن لسبب غريب أيضا أصرت الابنة أن تبنى هرمًا صغيرا . وأن تكون أحجار هذا الهرم بعدد عشاقها .. وعدد لعنائها على أبيها : أو لعنات الأجيال القادمة .. ويقول هيرودوت إنها أقامت هرمًا صغيرا ..

اتدهش هيرودوت جدا عندما سمع هذه القصة .. ولما رأى الكهنة دهشته قالوا له : إذا لم تصدقنا فلنذهب معا إلى الهرم .

وضافى هيرودوت بما سمع . فاعتذر .. ولو ذهب لرأى تمثال أبو الهول .. ولكن هيرودوت لم ير هذا التمثال الجليل ولم يعرف أن له وجودا .

وفى اليوم الثانى ذهب هيرودوت إلى حيث يوجد الهرم الثانى .. يقول : من المؤكد أنه أصغر من الهرم الأول .. هذا مؤكد فقد قست قاعدة كل منهما .

أما الهرم الثالث فقد سمع هيرودوت من الكهنة أن له قصة أخرى .. فقد أقامته الغانية رادوبيس . كانت غنية .. وكانت تحرص على مالها .. وقد

ساعدت في إقامة بعض المعابد في بلاد اليونان . ولما سأل هيرودوت عن مدى ثرائها .. ثم عرف .. استبعد أن تكون هذه الغاية هي التي أقامت الحرم الثالث .. لأنه يتكلف أموالا لا يملكها فرد .. بل تملكها دولة ..

ولابد أن هيرودوت وجد أن قصة بناء الأهرامات من السهرات الحمراء مكررة وبطيئة .. وأن الكهنة يحفلون على ملوكهم لأنهم يعجزون عن إقامة أهرامات أكبر وأجمل .. أو أن الكهنة لم يعد لهم هذا الدور القوي في الحكم .. ربما ..

وكان هيرودوت يتحدث عن السفن الشراعية اليوم - فهو يصف السفن الشراعية .. ويصف معاكسة الريح لها .. ونزول الناس إلى الشاطئ وصحب السفن الشراعية ضد الهواء إلى جنوب مصر وشمالها .

وكل ما رآه هيرودوت في مصر قد هزه وأثارة وأسعده .. ولكن شيئا واحدا لم يتحمله : اليعوز .. إنه كثير جدا في شمال مصر وجنوبها .. والناس يضحون (الناموسية) على قراشهم .. والناموسية هي نفس الشبكة التي يستخدمونها في الصيد .

ويقول هيرودوت وكان اليعوز يتسلل إلى ما وراء الشبكة ويلسع ..

ولاحظ هيرودوت أن المصريين يسهرون في الأماكن العالية .. وسبب ذلك أن اليعوز لا يستطيع أن يرتفع إليهم . وحتى إذا كاد النوم يغلبهم عادوا إلى بيوتهم .. فلا يشعرون بلسع اليعوز ..

ولابد أن المؤرخ هيرودوت قد عانى الكثير في رحلته إلى مصر وبلاد الشرق الأوسط . ولكنه لم يذكر لنا شيئا عن نفسه . ما الذي كان يلبسه .. أين يأكل ويشرب وينام وماذا تناول : وكيف يكتسب قوته .. وما وسائل المواصلات بين مدن مصر ، وبين مصر والشرق الأخرى .. هل ركب الحمار أو الحصان .. هل سار على قدميه ؟

هل مرض ؟ كيف عالجوه .. ثم كيف سجل هذا التاريخ في النهاية ..
وكيف كان يسجل ملاحظاته أولا بأول .. هل صحيح أنه تزوج مبعا من
النساء أو أنه وعد واحدة بالزواج ثم هرب منها إلى مصر ؟

لأن عالم المؤرخ هيرودوت هو نوع من المؤرخين الذين ينشغلون بالعالم
عن أنفسهم . هناك نوع آخر تشغلهم أنفسهم عن العالم .. هذا ينبع من الواقع ..
وذلك ينبع منه الواقع .

ولكن لا يزال المؤرخ الإغريقي هيرودوت صاحب أجمل وأمتع رحلة
قديمة إلى مصر .. وأخطر رحلة أيضا .. فكثير من ملاحظاته التي نقلها بحسن
نية ظلت عالقة بأفلام وأذهان الأوربيين أكثر من ألفي سنة كما هي -
تماسيح النيل على شواطئ القاهرة مثلا ..

طرب وطم يعد ...
أصغر وأعظم رجل !

عندما انتصر الإسكندر الأكبر في أكبر معاركه في الهند اعتقل عشرة من الفلاسفة . وقال لهم : سوف أقتل صاحب الإجابة السبقة . إذن أمامكم أخشى امتحان ! .

واختار واحدا منهم قاضيا . وبدأ في الامتحان . والسؤال الأول — للفيلسوف الأول : أيهم أكثر عددا : الأحياء أو الأموات ؟ وكان الجواب : الأحياء لأن الأموات لا وجود لهم .

السؤال الثاني : أيهما أكبر .. حيوانات البر أم حيوانات البحر ؟

ورد الفيلسوف : بل حيوانات البر .. لأن البحر جزء من البر ؟

السؤال الثالث : كيف نستطيع أن نقتنع إنسانا بأن يشور ؟

الجواب : بأنؤكد له أن الإنسان يجب أن يعيش كريما أو يموت كريما .

السؤال الرابع : ما هي أغنى الحيوانات ؟

والجواب : التي لم تكتشفها بعد ..

والسؤال الخامس : أيهما أسبق .. الليل أو النهار ؟

وكان رد الفيلسوف الخامس : النهار أسبق من الليل بيوم واحد !

ولما لاحظ أن الإسكندر لم يفتتح بهذا الجواب عاد يقول : لانواخذنى إذا كان الجواب غريبا . فالسؤال غريب أيضا !

ثم كان السؤال السادس : ما الذى يفعله الإنسان ليكون محبوبا ؟

وكان الرد : بأن يكون قويا لا خفيفا ..

أما السؤال السابع فهو : كيف يكون الإنسان إلها ؟

والجواب : بأن يصنع المستحيل !

والسؤال الثامن : أيهما أقوى الحياة أو الموت ؟

وكان الرد : الحياة أقوى لأنها تحمل كل المصائب ومع ذلك نستمر ونحرص على الاستمرار .

أما السؤال التاسع فكان : إلى متى يحرص الإنسان على حياته ؟

وكان الرد : إلى أن يشعر بأن الموت أفضل من الحياة ..

ثم اتجه الإسكندر الأكبر إلى الفيلسوف العاشر وقال له : ما رأيك ؟
وبعض الفيلسوف مدعورا ليقول له : مرلاى .. عضوا لليس قبل أن أعرف
رأيك في كل ما سمعت !

ولكن الإسكندر أطلق سراح الفلاسفة ومنحهم الكثير من الهدايا . ولم
يكن ممكنا نقى أغريقى — ابن الحضارة العظيمة وتلميذ الفيلسوف أرسطو — أن
يقتل فيلسوفا لأنه قال شيئا لم يعجبه . أو لم يقنعه . بل إن الإسكندر قبل قيامه
بغزواته في آسيا . قد رأى رجلا منهددا في الشمس . واقتراب منه وسأله من
أنت ؟ فقال : إنسان . وسأله : وماذا تريد ؟ فقال : ألا تحجب عني الشمس .

وأعجبته هذه الإجابة وسأل عنه فصيل له إنه الفيلسوف ديريون . وقال
الإسكندر : لو لم أكن أنا الإسكندر العظيم لتميت أن أكون في قوة هذا
الرجل ..

ولم يكن في ذلك الوقت قد تجاوز العشرين !

ويقال إن الإسكندر الأكبر قد سأل الفيلسوف العاشر : هل رأيت أعظم مني ؟ ويقال إن الفيلسوف العاشر قد فكر لحظة ثم قال : أنت أعظم إنسان في بلادك .

ولم يسترح الإسكندر إلى هذا الجواب . ولكنه هز رأسه . وقال : يبدو أن الحق معك .. أنا أعظم إنسان هناك .. ولكن هنا .. الشمس أعظم . والجوع أبشع !

ولكن الإسكندر كان يعتقد أنه أعظم قائد في كل العصور . فهو في طفولته قد أقعته أمه أنه ابن كبير الآلهة . وكان الإسكندر يحزن كلما انتصر أبوه في معركة عسكرية ويقول : إذا انتصر أبي ، فما الذي يتركه لي بعد ذلك ؟ إنه أصغر مسافر وأكبر قائد ..

وقد ولد الإسكندر الأكبر في اليوم الذي احترق فيه معبد ديانا . وكسبت خيول والده في الألعاب الأولمبية .. وقال الكهنة : إن مولده حدث جليل .

ويقال إن أنفاسه كانت عطرية . وملابسه أيضا . ويقال إن رأسه ثقيل لدرجة أن عنقه لا يقوى على حمله ولذلك كان يحمل به إلى ناحية اليسار . وكان إذا مشى أسرع . ولما سأوه : ولماذا لا نشترك في الألعاب الأولمبية وكان جوابه السريع : هاتوا لي عددا من الملوك !

وكان أبوه يقول : إن ولدي هذا تضيق عنه مملكتي ؟

وفي السادسة عشرة من عمره تركه أبوه ملكا على البلاد . وكان يتصرف كأنه ملك . وكانت قراراته غريبة عجيبة . وكان يجلس إلى جواره أعظم فلاسفة الإغريق : أرسطو ..

ولا أحد يدري بالضبط ما الذي خطر على رأس هذا الشاب سنة ٣٣٤ ق.م . وهو في الثانية والعشرين من عمره ، على رأس جيش كبير . أعظم الجيوش الأوروبية في ذلك الوقت .. ما الذي يريده من السفر بقواته إلى آسيا ..

هل يريد أن يعرف نهاية العالم .. مجرد معرفة .. هل ذهب لينضم من القرس
الذين أحرقوا أثينا منذ قرن ونصف قرن .. هل ذهب ينشر الحضارة
الإغريقية في الإمبراطورية الفارسية في آسيا وشمال أفريقيا .. هل هي مغامرات
الشباب : خمر وذهب وعطور ونصر في النهاية .

إنه رفض أن يحدثه إنسان في شيء وقواته تعبر الدردنيل .. في مغل ..
وعلى ظهور الخيول .. ثلاثون ألف جندي وأربعة آلاف حصان .. وألوف
يحملون الزمراع التي طولها ١٨ قدما ومئات من المهتمدين وعشرات من الفلاسفة
وعشرات من السكرتارية وأربعة آلاف جندي من الحرس الخاص . ونساء
وأطفال يمشون وراء هذه القوات أو وراء الشاب العظيم المخامر . ولم يحظر على
بال هذا الشاب أنه ذهاب بلا عودة .. فلن يرى الإسكندر أرضه حيا بعد .
اليوم .

وعلى عادة الإغريق انطلقت سفينته به بعيدا عن الشاطئ .. ثم عادت
لتقرب منه قليلا قليلا .. وتعد رمح الطويل ويلبس الشاطئ .. رمزا على أنه
سوف ينال بسهولة كل ما يريد .. وقد نال ما يريد : ولكن بصحبة وعندما
نظر الإسكندر إلى الشاطئ وجد بعض الخيول يستحمون فقال وهو حزين :
ما أتسنى لقد نسبت أن أنعم السباحة !

أما الإمبراطورية الفارسية في ذلك الوقت . فقد كانت واسعة منارة تضم
أرض العراق وسوريا وليبيا وما بين البحرين وغربي الهند . وقد هاجمها
الإسكندر في وقت كانت تداعى . وكان الإسكندر حريصا على أن يكون
إغريقيا مائة في المائة .. في الطعام والشراب واللهو والصلوات . وكانت
نرافقه معشوقته الجميلة تاييس وكان هو أيضا ليس ملكا طوي الوقت ..
إنه ملك على الرجال . ولكن مع محبوبته هو مواطن آخر .. وعندما لاحظت
محبوبته تاييس أن في عيبتها تقبلا تغسل منه الشمس أشارت برجلها إليه ..
وضحك الإسكندر ليقول : هذا الثقب أستطيع أن أسده .. أما قرص الشمس

فليس في قلبي بعد أن أحطته . ويقال إن تاييس بكث . فوعدها بأن يطفى الشمس .

وسافر الإسكندر إلى مصر وأقام فيها أكثر من سنة .. واستطاع بذلك الخارق أن يختار المكان المناسب لإنشاء مدينة الإسكندرية : وهي واحدة من سبع مدن تحمل اسمه . وجمع المهندسين والجغرافيين ، ولاحظوا أن الأرض سوداء . وأنهم لا يستطيعون أن يخططوا للمدينة فأتوا بكية من الدقيق يثرونها على الأرض .. وفجأة جاءت الغربان وأكلت الدقيق . وانزعج الإسكندر . ولكن علماء الفلك قالوا له : سوف تكون هذه المدينة جنة يعيش عليها الإنسان والحيوان والطيور .

وفي إحدى الليالي سمع الإسكندر صوتا يتأدى في أعماقه . ونهض وسأل حبيته تاييس إن كانت هي التي نادته . ولكنه وجدها نائمة .. فتقلب ثم طلب المزيد من النيد وانقلبات . وخرج الإسكندر من خيمته ليسأل إن كان أحد قد ناداه .. ثم عاد يسمع الصوت يطلب إليه أن يذهب إلى واحدة سيوه .. وأن يزور معبد الإله آمون .. وسار الإسكندر مع بعض أتباعه على شاطئ البحر . ثم نزل إلى الجنوب على حدود ليبيا . وكان يخاف من الرياح الرملية ومن العطش . ولكن الإسكندر آمن بأنه ابن الآلهة . وأن هذا الصوت الذي ناداه لا يمكن أن يكون شيطاناً . وترك الخيول وركب الجمال . وسار في نفس الطريق الذي هلك فيه جيش قيرز قبل ذلك .. ثلاثون ألفاً من قوات الفرس دفنت في الصحراء . ولكن الغربان كانت تقوده .. فإذا أخطأ في الاتجاه راحت الغربان تنق . فإذا ضل أحد من رجاله تصابحت الغربان حتى يعود إلى الطريق السليم .

وفي معبد آمون سمع الإسكندر من الكهنة أن الإله يريد أن يراه على حدة . ودخل الإسكندر وأقرب وسأل الإله : إن كان الذين قتلوا قد لقوا ما يستحقون من عقاب ؟ ورد الإله : نعم . كلهم !

ولا أحد يعرف كيف كان شعور الإسكندر عندما نصبه كهنة آمون
إلهًا ! إن صناعة الإله والتأليه هي إحدى حيل المصريين القدماء .. إنها التسمي
المقدس الذي يعطونه للإنسان لكي يتعالي على البشر . ويموت لا هو إنسان
ولا هو إله ..

وشرب الإسكندر هذه الجرعة .

وكان من عادة الإسكندر أن يكتب الكثير من الرسائل فكذب إلى أمه
بؤكد لها أن القراعة يقولون أيضا إنه إله ابن كبير الآلهة . ثم قال لها :
وهناك أسرار أخرى سوف أحكيها لك عندما أعود .

ولم يعد ومات وسره معه ..

وعندما اتجه الإسكندر بعد ذلك إلى أطراف الإمبراطورية الفارسية بلغه
أن أستاذه العظيم أرسطو قد نشر بعض محاضراته . فكذب إليه الإسكندر عاتبا
يقول : « عتاب من الإسكندر إلى أرسطو . لم نحسن صنعا أن نشرت بعض
محاضراتك فقد كان من الواجب عليك أن تجعلها سرا نياهي به الأثم . ولا أزال
أفضل أن تكون لي قوة العلم لا قوة السلاح » .

وعندما علم الإسكندر أن أحد أصدقائه في أثينا فشل في إقناع فتاة بالزواج
منه . بعث إليه بهذه الرسالة ..

« هناك طويقتان لإقناع الفتاة بأن تكون لك : أن تعطيا الكثير من
الهدايا وأن تحبها .. ولا توجد طريقة ثالثة . لأن الناس قد وللوا أحرارا .. »

وفي إحدى المعارك الكبرى مع الملك دارا تذكر أنه يجب أن يبعث
رسالة إلى أحد أصدقائه في موضوع مضحك . كتب يقول بعد نهاية المعركة :
« أعرف أن حصانك ضاع . سيكون لك واحد أفضل منه . وهذا إقرار
مني بذلك .. » .

وبعد أن فرغ من هذا الخطاب قال لأحد حراسه : أريد أن أذوق طعم
الملك . فقال الحارس : أنت ملك دائما يامولاي .. ولكن الإسكندر قال :

١ فقط عندما أستحم بالماء الدافئ .. وأضع العطر وأنظر في عيني الفتاة التي أحبها وأنام في أمان .. هذا هو الملك ١ .

وقبل أن يذهب الإسكندر إلى حمامه قال له أحد الضباط : مولاي ... الوقت مناسب للهجوم على الملك دارا .. ليلا ، وكان رد الإسكندر : أيها القائد العظيم إن الإسكندر لا يسرق النصر .. إنتى سوف أهزمه نهارا . سوف أجعله يرى نفسه منهارا . ويرانى متصرا .

وفي بلاد العراق : أحسن الجنود أن هذه هى نهاية العالم . وأنهم تعبوا . وأنهم يحملون الكثير من الهدايا . وأن خيولهم قد تعبت .. وأن بعض الخيول قد ماتت وأنهم يحملون هداياهم ويتساقطون تحتها . وطلبوا إليه أن يعودوا ولكن ليس الإسكندر هو الذى يعود .. وليس هو الرجل الذى يقترح عليه أحد فكرة أو خطة . فإن الإسكندر يحرق كل ما معه من هدايا .. ويفعل الضباط والجنود ذلك .

وكان من عادته أن يعطى الهدايا لكل من حوله .. بشرط أن يطلبوا منه ذلك . لأنه يحب أن تمتد إليه الأيدي . وأن يرى الامتنان في عيون الجميع .. ولكن واحدا من أصدقائه لم يحصل على هدية . لكنه لم يطلب . وفي مرة كان يلعب مع الإسكندر الكرة .. فصرخ فيه الإسكندر : لماذا لا تعطينى الكرة ؟ وكان رده : ولكنك لم تطلبها منى !

وفهم الإسكندر المعنى الذى يريد . ثم قال له : إنتى لم أريد أن أرى امتنانك أنت أيضا !

نحن الآن في سنة ٣٢٠ ق.م .. وقد انتصر الإسكندر على الفرس في معركة أسوس . وجاء المرزبان - أى حاكم المدينة - يعرض عليه عددا من الأميرات .. ولكن الإسكندر قال : الإنسان لا يستطيع أن يكون ملكا على هذا العدد من النساء .. فانتصاه يردن الرجل لا الملك !

وأمر ألكساندر ثلاث سنوات في هذه الأرض يروح ويحيى .. ولا أحد يعرف بالضبط كيف كان يتحرك .. فلم تكن هناك خريطة معه . وإنما كان يمشى بالسماع . ويتجه تبعاً لمعلومات العلماء المرافقين له . وقد أمر ألكساندر ضباطه بأن يرتدوا ملابس الفرس . وأن يعاملوا الناس بالمرق .. ولا يفسوا أنفسهم أبناء الحضارة الإغريقية .

ومرض ألكساندر .. وطلب الطبيب .. وشكا له .. وقال للطبيب لا أريد أحداً يعرف دائي أو دوائى . فلن كان العلاج ناجحاً فأنشره على كل الجنود .

وبعد يومين شفى ألكساندر . وجاء الطبيب يستأذن في إذاعة الدواء ولكن ألكساندر قال : بل أنا الذى سوف أعلن ذلك .. وجمع الضباط وقال لهم : علاجى هو .. الفاكهة .. والنوم العميق .. والنصر !

وكان من عادة ألكساندر أن يملأ على المؤرخين المرافقين له بعض ملاحظاته على الحياة والناس . فقال مثلاً إنهم هنا في حاجة إلى تسائنا .. وإلى أفكارنا وإلى حضارتنا ..

ولم يضيع ألكساندر وقته فقد أمر ببناء مدن تحمل اسمه .. بل إن حصانه عندما مات .. وكان الحصان في الثلاثين من عمره . قد أقام مدينة تحمل اسمه .. وكذلك كلبه أقام له مدينة تحمل اسمه .

ولم يكن جنوده يعرفون أن هذا الشاب قد قرر أن يذهب إلى الهند نهاية الدنيا في ذلك الوقت . وأن يرى المحيط الذى هو آخر العالم . هكذا قال له العلماء والفلاسفة — إنه يريد أن يلمس بعينه نهاية العالم ..

وكل ما نعرفه عن رحلات ألكساندر الأكبر أنه اتجه إلى الشمال .. إلى بحر خيبر .. وأنه حاول طويلاً أن يبحر .. ولكن القياطل هاجمته .. وقتلت الكثير من جنوده .. ولكنه فوجئ بواد صغير .. وفي هذا الواد أناس شعرهم أصفر وعيونهم زرقاء ويعبدون إله الإغريق .. وأنهم نساقلوا راجعين ساجدين

عندما رأوه .. وهناك عشرات الزهرات الإغريقية على أشجار الليلاب ..
وصنعوا منها تيجانا لهم ولقائدهم .. ثم شربوا ورقصوا حتى تعبوا .. أباما طويلة ..
وفجأة انهارت الحجارة من قم الجبال على الإسكندر وجنوده .. وأصر الإسكندر
على أن يكون في مقدمة الذين يتسلقون الجبل .

ثم اشتبك في معركة دامية مع الملك بوروس . وكان بوروس يعتمد على
جيش كبير . وكانت القبلة تتقدم الجنود . وانصر الإسكندر .. ووقع
الملك أسيرا .. واستدعاه الإسكندر قائلا : كيف تتوقع مني أن أعاملك ؟
فأجاب الرجل : كملك طيبا ..

وجعله نائباً له على المملكة الهندية . ونهب الجنود . وتفتت الجبل .
وأصروا على العودة . وصرخوا .. وظاهروا . ودخل الإسكندر خيمته .
وراح يكي ويتفرغ على الأرض ويقول : ماذا ستفعله الأجيال القادمة عنا
إننا انصرنا معا . وكسبنا لأمتنا ما لم يكسبه أحد منا .

وفي يوليو ٣٢٦ ق.م .. قرر الإسكندر أن يعود من نفس الطريق الذي
طوله ١٢ ألف ميل والذي قطعه في ثماني سنوات ..

وتوقف الإسكندر عند قبائل تعيش على الأسماك فقط .. أظافرها طويلة
وشعورها أيضا .. وبيوتها مصنوعة من الخار وفي عيونهم بريق غريب .. ولكن
وجوههم شاحبة وأصواتهم صارخنة . ونساءهم جميلات وفي برود
السلط - هذا تعبيرة ..

وأنشأ الإسكندر مدينة خامسة تحمل اسمه ..

وانزعج الإسكندر عندما عرف أن بعض فقراء الجنود يعرضون بناتهم
للبيع .. أما الطريقة فهي التي أزعجته .. فالفتاة تخلع ملابسها تماما .. وتقف
وقد أدارت ظهرها للزبون .. ويقلب الزبون في جسمها .. ثم يطلب إليها أن
تجلس ويقلب في صدرها .. فإذا أعجبته اشتراها .. ولم تنس له معشوقته تايبس

مقاله تعليقاً على هذا الموقف الشائن .. قال الإسكندر : لو كان من يتزوج يفعل ذلك ، لسقطت في الامتحان أكثر النساء .. والرجال أيضاً ..

أما طريق العودة فقد كان أقسى مما يتصور الإسكندر . فالطريق طويل . والجنود مرهقون . والخيول تكسرت . والهدايا ثقلة . والشعوب تضربهم بالعلوب والحجارة والسهام والنبال .. والشمس تكوى الجميع . والعطش يحرقهم ليلاً ونهاراً . والإسكندر يصر على أن تسكر قواته بعيداً عن المجارى المائية حتى لا تثلوث المياه بأقدام الرجال والخيول .. والرسائل تروح وتجيئ بينه وبين أثينا .. وما يزال الإسكندر يلحن أبياء بين قواده لأنه طلق أمه ونزوح امرأة أخرى اسمها كليوباترة .

وفي إحدى المعارك في طريق العودة جرح الإسكندر . وانهال أحد الهنود عليه ضرباً بالعصا . وثلثت ذراع الإسكندر ورجلته . وخرج الجنود يبتكون على قائدهم ويعدد أيام ظهر لهم سليماً .. ولكن جروحه كانت أعمق !

ولم ينس الإسكندر أنه سمع من فيلسوف هندي أنه أعظم الناس في بلده .. وأنه قد تراجع أمام قواته .. وأنه في طريق العودة .. وأنه لم يتصر على آسيا وإنما أفرعها فقط . ولم ينس أحد أصلقاته عندما غضب منه : أن صابحه بقوله : إن الإنسان عندما يكون في عظمتك وفي غورتك ، يكون وبالا على نفسه وعلى غيره .. والجنود هم الذين يدفعون الثمن عادة !

وفي إحدى الليالي من أبريل ٣٢٣ ق.م . جاء أحد الفلاسفة المراقبين له .. وأتى بجلد حيوان سلخوه وألقى به أمام الإسكندر . ثم وقف يقدمه على جانب منه فارفع الجانب الآخر . ثم عاد فوقف على الناحية الثانية . فارفع الطرف الآخر .. ونظر الإسكندر وكان مريضاً محمواً لا يقبض من الحمر ولا من الحمى . وقال له الإسكندر :

— ماذا تريد أن تقول ؟

وهنا قفز الفيلسوف بقدميه في منتصف الجلد . وبقى بعض الوقت فاعتدل
الجلد وظلت أطرافه كلها مرتفعة عن الأرض بدرجة واحدة . وقال للإسكندر :

— إذا أنت بقيت في أطراف مملكتك ثارت عليك .. ولذلك يجب أن
تبقى في منتصف مملكتك .. هنا .. في بابل !

وكأنما كانت نبوءة .. فقد مات الإسكندر في بابل يوم ٢٢ أبريل .. في
الثانية والثلاثين من عمره !

نزِيل فندوة

أبي الثناء

زقاق القناديل

التفوا حوله ، واستنشقوه أن يكتب قصته ، ويحكى حكايته . واعنى
الرجل وقال : أفعل ذلك إن شاء الله . وسجل رحلته الطويلة في كتاب عنوانه
« رسالة اعتبار الناسك » في ذكر الآثار الكريمة والمناسك » .

فقد كان الغرض من رحلته أن يؤدي فريضة الحج في الأراضي المقدسة
واستغرقت رحلته الأولى ثلاث سنوات .

بدأها في فبراير سنة ١١٨٢ وهو في السابعة والثلاثين من عمره .

أما هذا الرجل المغربي فاسمه بالكامل : أبو الحسين محمد بن أحمد
بن جبير النكتائي الأندلسي الشاطبي البغدادي . طویل القامة أجش الصوت
أزرق العينين ذهبي الشعر . قال عنه أحد أصدقائه : لو كانت لي عيناه
ما أطبقهما قط .. فهما من آيات الله ! ..

ولكن ابن جبير كان يطبق عينه كثيرا حتى لا يرى ما يؤدي لإيمانه .
حتى إنه عندما رأى زفافا في الشام ضبط نفسه معجبا بمشية العروس فاستعاذ
بالله من الفتنة ، وأغمض عينه ولم يكمل وصف الزفاف ! .

وعندما كان في مكة سمع عن أميرة من الأميرات أنها تخرج ليلا ، وقال
الناس لا بد أنها قد غضبت مع زوجها وراحت تبحث عن غيره ، وقال آخرون
بل ذهبت تتصدق على الفقراء واستعاذ ابن جبير من سوء الظن ، ولم يكمل
سماع قصة الأميرة من أحد !

أما الذي ملأ عينيه في الدنيا كلها فالساجد والمقابر والأضرحة .. وجمال
الطبيعة وهولها أيضا !

ولو سئل ابن جبير عن العذاب في الدنيا ما معناه لقال : إنه البحر وركوب البحر وموج البحر .. والسفن الشراعية !

ففي رحلته الكثير عن وصف الموج والعواصف وسقوط أشعة المراكب والخوف من الضياع في الليل والنهار وقد استغرقت الرحلة من الشاطئ الأسياني إلى الاسكندرية ثلاثين يوما وقد توقفت السفينة الشراعية عند جزيرة صقلية وكان ابن جبير في رحلته يدعو للمدن التي يراها أو يدعو عليها .. فيقول : أبادها الله أو أبادها الله .. أو أبادها الله وأعادها ، وهو كثير الدعاء لكل الناس بأن يغفر لهم الله أو يعفو عنهم أو يهديهم سواء السبيل .

وكانت الرحلة مؤلمة مفزعة حتى مياه الاسكندرية ..

ولو سئل ابن جبير بعد خروجه من ميناء الاسكندرية إن كان العذاب معناه ركوب البحر ، لقال بلى العذاب هو الجمارك !

ففي ميناء الاسكندرية - في ذلك الوقت أيضا - جاء رجال الميناء وفتشوا الركاب ، وملوا أيديهم إلى ملاييمهم ، وإلى ما معهم من متاع .. ثم أنوا بالمصحف : واستحلنهم إن كان لديهم شيء آخر ويقول ابن جبير : وضاعت أشياء كثيرة ، ثم أطلق سراحهم بعد موقف من الذل والخزي العظيم . . .

ويرى ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبي ذلك الحاكم العادل لا يعرف ماذا يجري في ميناء الاسكندرية . ولو عرف لقتضى على هذا الهوان !

وكانت الاسكندرية رائحة في عينه .. بيوتها فوق الأرض ونحت الأرض والمياه تصل إلى كل الآبار ، ومن أهم معالم الاسكندرية المدارس والمحارس - أمى بيرث المغريين ، وفيها الكثير من المستشفيات ، وفيها أكلوف المساجد ويقول : من الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم

بالنهار في جميع أحوالهم ، .. أي ينامون نهارا كما ينامون ليلا ويعملون ليلا ونهارا .. »

وفي الطريق إلى القاهرة توقف للصلاة الجمعة في مسجد بمدينة طنطنة -- طنطا -- وكان الخطيب قصيحا ، وأروع ما أعجبه في الطريق مدينة غليوب فأسواقها جميلة وبها مسجد كبير ..

أما القاهرة فقد أذهله لكثرة مبانيها ومساجدها وشوارعها ونيلها الواسع ، وهناك المقاربة إلى قنذلي جميل أقام في غرفة فوق الباب والفندق اسمه « أبي الكناء » في زقاق القناديل ..

ولم يفته طبعاً أن يزور مسجد الحسين حيث وضع رأس الحسين بن علي بن أبي طالب في تابوت من القضة مدفون تحت الأرض .

أما عجائب الدنيا كلها فقد وضعها المصريون في « القرافة » أو البجانة « فيها قبور الأنبياء وأهل السنة والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء ذوي الكرامات الشهيرة والأنبياء الغريبة .. فيها قبور النبي صالح وروبييل بن يعقوب وآسيا امرأة فرعون » .

وقد أعجب ابن جبير بمسكني الخيانتين ، ففيه غرف نظيفة وأسرة وفيرة ، وفيه مخلام يسهرون على هؤلاء المرضى ..

ورأى أهرامات البحيرة ، ويقول « للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك .. وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل » .

وعلى مسافة « غلوة » - أي قصيرة - من الأهرام يوجد « أبو الأهرام » - أي أبو الهول ..

ولانهاية لما قاله ابن جبير عن مساجد القاهرة وقلاعها .. ولكن من

الأشياء العجيبة التي رآها ابن جبير سور « المعجزة » . أو المعجزة ... وقد سمع في مصر أن المعجزة هذه قد حكمت مصر وأنها جعلت حولها سوراً يمتد من القاهرة إلى أسوان .. ولم يبق من هذا السور إلا جزء ضئيل ، والباقي تحول إلى دمال الصحراء !!

وحكاية « المعجزة » هذه أنه عندما غرق فرعون في البحر الأحمر هو وجيوشه .. لم يبق في مصر في ذلك الوقت غير الخدم والعبيد والنساء والأطفال ، وخاف الجميع على مصر ، ورفضوا أن يولوا عليهم خادماً أو عبداً أو طفلاً معهم ، وإنما اختاروا سيدة اسمها « دلوكة » .. هذه السيدة كانت عجوزاً قد تجاوزت المائة عام ، حكمت مصر ، وأقامت حولها هذا السور الذي أحاط بها من كل جهاتها .. أما مصر فقد حماها الله !

وركب زورقاً في النيل في طريقه إلى قنا ومنها إلى ساحل البحر الأحمر إلى الحجاز ، ولكن أشنع ما رأى في النيل : هجوم بعض رجال الأمن على المسافرين ، فقتلهم ، أدخلوا السكاكين في أمهاتهم ، قسوا على الأرز والقمح وقد انزعج ابن جبير لما حدث .. ورأى في ذلك شيئاً شنيعاً وقال : كيف يفعلون ذلك والله قد نبهى عن التجسس . !

ويؤكد ابن جبير أن الملك صلاح الدين يستحيل أن يعرف هذا الذي يجري في بلاده .. لأنه رجل عادل .

أما مدينة قنا فقد أعجبت ابن جبير وهذا الإعجاب هو مقياس للقيم الأخلاقية والدينية عنده . يقول : « مدينة قنا من مدن الصعيد .. بيضاء أنيقة المنظر ذات مباني جميلة ، ومن مآثرها المشهورة صون نساء أهلها والزمانهم البهوت ، فلا يظهرن في زفاف من أزقتها وكذلك نساء مدينة دشنا » .

وبعد ابن جبير بمئات السنين جاء الكاتب الفرنسي جوستاف فلوبر وأقام في مدينة قنا وأعجب بها وبلياليها الساحرة حيث الغناء والطرب والحظ ..

وعبر البحر إلى الأراضي المقدسة . ولو مثل ابن جبير إن كان العذاب
معناه رجال الجمارك فقال : بل الحج هو العقاب نفسه ! ..

فقد رأى من الهوان والأهوال ما لا يستطيع أن يصفه ، فاجلج حار ..
والصحراء مؤنة وموجعة .. وهي الضياع لكل أجنبي .. وفي الطريق إلى مكة
يتعرض الحجاج للصومسوخ يخطفون ويسرقون ويقتلون .. وسمع من الناس
أن غير الطرق إلى الأراضي المقدسة أن يدخلها الناس من ناحية بغداد في
حمى أمراثا .

يقول عن الأراضي المقدسة : حبسك من بلد كل شيء فيه محبوب حتى
الماء . والعطش أشهى إلى النفس من الماء . فأقنا بين هواء يذيب الأجسام
وهاء يشغل المعدة عن اشتهاؤ الطعام ، والشاعر يقول : ماء زعاف وجو كله
لهب ..

ولم يعجبه الناس ، لا حياتهم ولا أسلوبهم ، ولا معاملتهم فلفذين جاءوا
من أقصى الأرض .. وقال ابن جبير ليريح نفسه : ولا [سلام] إلا بهلاد
المغرب لأنهم على جادة صحبة ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية
فأهواء وبدع ، وفرق ضالة وشيع .. إلا من عصم الله ! ..

ولكن هذا العذاب يهون أمام مكة والمدينة .. فمن أجل مكة والمدينة
ركب البحر والنبل والصحراء وجف ريقه واشتعل صدره ونام على الأرض
وأكمل ما لا يحب .. وفي طريقه إلى مكة يقول : « دخلت مكة .. والبلد
قد أثنى على البسطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات نصك
الأذان بالثلبية في كل مكان » .

وفي مكة ذاب ابن جبير في الأماكن المقدسة ، صلى وبكى ، وصلى
وحمد الله ودعا للمسلمين بالنصر : ودعا لصالح الدين وكل الأمراء بتقوى
الله ورأى كل شعوب الأرض حول الكعبة وحول زمزم ..

ولم يسعد بطعام أكله مثل سعادته بالبطيخ ، فلم يكن قد ذاقه من قبل
فهو مبهور بطعمه ورائحته ، بل إن الإنسان ليأكل البطيخ ورائحته الجميلة
تسببه .. أما البلح الرطب فهو في غاية الطيب واللذائذ ..

ورغم انشغال ابن جبير بالأماكن المقدسة وبالنظر إلى الناس والوسماع
إلى كل ما يقال حوله ، فإنه انشجر ضاحكا مرة واحدة في كل هذه الرحلة ..
وذلك عندما جاء الوفد اليمني لأداء العمرة .. فهم يأتون إلى هذه البلاد يبيعون
ما معهم من طعام ويشتررون به الملابس ، لأنهم يبيعون عراة ، وصفهم
ابن جبير فيقول : « عرب صرحاء فضحاء حفاة أحماء ، لم تسدهم الرقة
الحضرية ، ولا هذبهم المير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية ،
فلا نجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق التبة .. »

وهم يشدون أنفسهم بسلسلة واحدة حول الكعبة ، فإذا نثر واحد منهم
سقط الياقوت فوقه ، وإذا التفوا حول الكعبة واستلموا الحجر الأسود قلن
بسطيع إنسان أن يقرب لا من الكعبة ولا من الحجر ، وهم لا يحسبون
الصلاة .. بل إنهم يسجدون دون ركوع .. وإذا سجدوا فهم ينقرون الأرض .
ثم يرفعون رؤوسهم . ويتكلمون أثناء الصلاة ، ثم يعاودون السلام .. ولكنهم
يكونون فتنة في القلوب لما يقولون : ويقال إن النبي عليه الصلاة والسلام قال :
علموهم الصلاة بعلموكم الدعاء .. وقال أيضا : الإيمان يمان - أي الإيمان في
اليمين 1

وقد سقطوا حول الكعبة ، فضحك ابن جبير لأول مرة 1 .

ولم يسرح ابن جبير لإقامته في بغداد . فقد رأى المدينة خرابا ، لم يبق
فيها غير هذا الاسم ، أما الناس فكرههم جميعا ، وحكم عليهم بعنف .
فيقول : « أما أهل بغداد فلا تكاد تلتق منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ،
وتذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يحضرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم
الأنفة والإباء .. ويستصغرون عن سواهم الأحاديث والأخبار ، وقد تصور

كل منهم في معتقده وخلده ، أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يحبون في الدنيا أرضا غير أرضهم ، كأنهم لا يعتقدون أن قه بلادا أو عبادا سواهم .. ه ..

وعندما سافر إلى الشام ، أعجبه مدينة حمص ، وسأل واحدا من أهلها هل عندكم مارستان . أى مستشفى ؟ وكان رد الرجل : إن حمص كلها مارستان ! .

ولم يفهم النكتة ولذلك لم يضحك !

أما حفلة الزفاف التي رآها فقد أعجبه لأنها مختلفة عن زفاف المسلمين فأهل العروسين يقفون صفين ، ونحي العروس وقد لبست فستان الزفاف الشفاف ، ومن ورائها غنيات جميلات وعلى رأس العروس تاج من الذهب .. — والعروس تمشي تتبختر — والعياذ بالله — ولم يكمل ابن جبير الفرجة على حفلة الزفاف ، فالتذى رآه هزه وحر كه .. إنه الشيطان في ثوب الزفاف ، ولم نعبه ه الآلات الهوية ه — أى الموسيقى أ .

ويعود ابن جبير إلى البحر المائج المائج .. وإلى السفينة الشراعية التي انكسرت أكثر من مرة ، وصرخ الناس واستعاذوا بالله ، وضمت السفينة لا أحد يدرى أين ترسو .. قالوا في مصر .. وقالوا في إيطاليا .. وقالوا بل قد ضاعت تماما .. ولكن السفينة بعد أيام طويلة ألجأت رست في ميناء على ساحل صقلية .. وهناك رأى جبل النار — أى البركان المعروف الآن باسم استرومبولي ، وهو ينفث الحمم في البحر .. وفي هذه الجزيرة يعيش عدد كبير من المسلمين وهناك ملك اسمه غليام — أو غليوم الطيب ، وهو يعتمد على المسلمين في كل شيء .. في حراسته وفي مطبخه ..

وانجهدت السفينة إلى الأندلس .. وعاد ابن جبير إلى الرحلات مرثين بعد ذلك .. وفي المرة الثالثة توفي سنة ١٢١٧ في مدينة الاسكندرية .

ولو مثل ابن جبير الآن ألا يزال العذاب عندك معناه الحجج : فقال : أن
يموت الإنسان في الاسكندرية !
فلم يمش في جنازته إلا رجل واحد جاء يستعجله أن يدفع ما عليه ..
لقد كان أحد رجال الحمارك ! ..

غيط الخير ...
الذي

طوله عشرون سنة !

لم تكن الفتاة الصغيرة تعنى أى شئ عتدا أشارت إلى البحر وهى تسجلت إليه . . فلا هى طلبت إليه أن ينتحر ولا أن يركب السفينة إلى أى مكان فى العالم . . ولا تصدت الفتاة أن يبحث له عن مكان آخر بعد عن قلبها كأن يذهب إلى الصين مثلا . . ثم إنه إذا لم يعجبها فهناك عشرات الفتيات يعجب به . . لا هى فكرت فى هذا كله . . ولا هو ولكن غضب الفتاة عند الرجل الإيطالى معناه غضب الدنيا . . فالشاعر دانتي كره الحياة والآخرة لأن محبوبته بياتريشه قد هجرته . . والشاعر الإيطالى بتراركة قد أبكى الدنيا لأن حبيبته لورا لم تأت فى موعدها . . وكذلك الفنان العظيم بوكاتشو . . ولو كانت ليلى تزوجت الخبثون لامتراح الاثنان . . وما كان هذا الشعر الجميل . . ولا كانت ملحمة دانتي ولا روائع بتراركة . . ولا سافر هذا الفنى الإيطالى « ماركو بولو » من مدينة البندقية إلى آخر الدنيا . . وكان آخر الدنيا فى ذلك الوقت هو بلاد الصين . .

فلم يكذ ماركو بولو بسمع القصص التى رواها أبوه وعمه اللذان جاءا من الهند والصين وكان فى الخامسة عشرة من عمره حتى قرر أن يسافر معهما . وربما كان ماركو بولو هو أول شاب فى التاريخ قرر أن يتزوج من أمة فتاة أخرى ، ويأخذها معه إلى أقاصى الأرض . . ولكن الألب ضحك وهو يقول له : صحيح أن الطريق اسمه خيط الحرير . . ولكن هذا الخيط من نار . . محرق . . قاتل . . كأنه أفسى ناعم ولكنه مهلك . . نعال وحذاء . . فلا مكان للنساء إذا أردت الشهرة والمال !

وبدأت الرحلة الطويلة في سنة ١٢٧١ من مدينة البندقية إلى عكا وكان
الأب يوكند لاينه : سوف تنسى . . سوف تنساها . . ففي الدنيا ما هو أجمل
وأفضل . . وسوف ترى العجائب . . سوف تنسى !

ومن مدينة عكا اتجهوا مرة أخرى إلى تركيا . . إلى أرمينيا . . إلى بلاد
الفرس . . إلى بخارى وسمرقند . . ثم إلى الهند وبلاد المغول والصين . . هذه
الكلمات استغرقت سطرين . . ولكن آن بولو قطعوها في عشرين عاماً
ذهاباً وإياباً . .

وفي الليل : كل ليلة كان ماركو بولو يطلب إلى والده وعنه أن يرويا له
شيئاً مما رأى الاثنان ومما سيراى هو . . وقد سمع منهما عن القوافل التي
تذهب بالمعطور والذهب والحريز ونجارة الرقيق . . والصوص بقطعون
الطريق والرقاب أيضاً . . والثلاثة معاً هم أول أبناء أوروبا الذين سافروا
إلى هذه الأماكن الثابتة من العالم القديم . . ولكن ماركو بولو لا ينسى
أبداً هذه الفتاة كارلينا التي رقصته وهي تعلم أنه وحيد . . فأبوه في الصين
وأمه ماتت قبل عودته بأيام . . ولكن الفتاة الإيطالية رفضت أن تزوج
شاباً هجم عليها في الطريق وعانقها بالقوة . . إهانة لم تغفرها له ! (وهذا
ما فعله مواطن آخر بعد ذلك بستة قرون : موسوليني !) .

وكان الفتي ماركو بولو شديد الملاحظة . ولكنه لم يكن مثقفاً . فلا نقرأ له
كلاماً عن الأدب أو الفن أو الفلسفة في هذه البلاد . . ولكنه يسجل فقط
ما رأى . . ويقول إن هذا رآه بنفسه ، أو سمع عنه . . فشلا عندما ذهب
إلى أرمينيا مر بالقرب من جبل أراارات الذي استقرت عليه سفينة نوح . .
قال إن أناساً رأوا السفينة عند قمة هذا الجبل . . وأنها ما تزال هناك — (والذي
رواه ماركو بولو قد قاله قبل ذلك المؤرخ اليهودي يوسفوس . . وظل الناس
يعتقدون في ذلك حتى هذا القرن . . ولكن حدث في سنة ١٨٢٩ أن ذهب
البروفيسور باروت ونساق أراارات وارتفاعه ١٦ ألف قدم ولم يجد هذه

السفينة . . ولكن عاد العلماء يشككون في أنه وصل إلى القمة . . وحاول آخرون . . واستخدمت طائرة هليكوبتر في رؤية القمة عن قرب . . ولكن السحب الكثيفة والجليد والعواصف منعت الطائرة من رؤية شيء بوضوح . . والكثيرون يؤمنون بأن سفينة نوح أو جزءاً منها ما يزال هناك !

وماركو بولو هو أول أوروبي مر بمدينة باكو ورأى آبار البترول . . ووصفها وصفاً مضحكاً لأنه ساذج . فهو يقول : انزيت لونه أسود بني وبشعل دائماً . . وهو لا يستخدم في الطعام . . وإنما يستخدمه الناس في دهان الجمال والحمبر . . ويقولون إنه مفيد للبشرة . .

ومن القصص التي سمعها ماركو بولو . وهو في طريقه إلى الصين ، أن القائد المغولي هولاكو قد جاء إلى مدينة بغداد وأهلكها وأهلها . . وأن الخليفة المستنصر قد حاول — يائساً — أن يقف في وجه هولاكو . . ولكنه لم يكن يعرف معنى أن يكون الإنسان قائداً مغولياً . . ويقال إن حواراً دار بين هولاكو والخليفة . . قال هولاكو : هذا الذهب الذي جمعته لماذا لم تعلم به شعبك كيف يقاوم العزاة ؟ . . ولم يرد الخليفة . . ويقال إن هولاكو أدخله في خزانته الذهبية وتركه حتى يموت . . ويقال إن هولاكو أذاب الذهب وأمره أن يشر به فأت . . ويقال إنه وضعه في سجادة ولفها حولها . . ثم ربعها . . ودحرجه حتى الموت !



وكانت وجهة الثلاثة هي الصين . . حيث الخاقان — ملك الملوك فقد أكرم الأب والعم . . وطلب إليهما أن يعودا . . وكان هذا الخاقان — أوكو بلاي خان — محباً للأوروبيين . . وكان متفقاً . . وكان من أمنيته أن يستعين برجال الدين المسيحيين ليقاوم رجال الدين البوذيين . . كان يريد أن يستخدم سمرا آخر . . ولذلك طلب من آل بولو أن يأتوا له بالمبشرين من المسيحيين . . وحملهم أمانة الاتصال بالبابا . . ولكن البابا مات . . ومعهم رسائل تؤكد أنه مات وأن البابا الجديد لم يتم اختياره بعد .

وفي طريقهم قاطعهم اللصوص .. وقتلوا بعضهم .. وسرقوا ما معهم
وأسروا بعض الخدم .. وباعوهم .. ولم يبق من قافلة آل بولو سوى سبعة
أشخاص .

ومن الغريب لأن ماركو بولو كان يعتقد أن هؤلاء اللصوص يستخدمون
السجن في إثارة القبار والضباب .. فقد لاحظ أن هؤلاء اللصوص خلقتوا
ضباباً لا وجود له .. هذا الضباب أخفاهم .. وهربوا .. وكانت لدى
اللصوص القدرة على تهديد الضباب أيضاً .. بالأمر بروح وبالأمر بجيء ..
وشيئ من هذا قاله المؤرخون بعد ذلك في سنة ١٧٦٢ عندما قامت حرب
أهلية بالقرب من مدينة بخارى (أزبكستان السوفيتية الآن) .. فقد استخدمت
القوات التي هاجمت المدينة السحر الأسود في خلق ضباب جاف ١٤

وفي الطريق كان ماركو بولو يسمع قصصاً عن هولاءكو وجنكيز خان
وتيمور لنك والإسكندر الأكبر .. إن هؤلاء الأربعة قد ملأوا الطريق دماً
ودماراً - فخطط الحرير ، ليس خيطاً ولا حريراً .. إنه خيط الموت والأشباح !
وسمع ماركو بولو عن قصة الشجرة المقدسة التي وقف تحنها الإسكندر
الأكبر ويقال إن هذه الشجرة لها قدرة عجيبة على قراءة ما يدور في رأس
من يقف تحنها ويقال إن الإسكندر سأل الشجرة بصوت مرتفع : قولي لي
يا شجرة هل سأكون ملك الملوك وأعود سالك إلى وطني ؟ وأجابت الشجرة :
نعم .. و .. لا .. ستكون ملك الملوك .. ولن تعود إلى وطنك !

ومات الإسكندر قبل أن يصل إلى وطنه !

وسأها ماركو بولو : هل سأكسب المال وأتزوج كارلينا . وقالت
الشجرة نعم .. و .. لا .. ستكسب المال ولكن لن تزوج هذه الفتاة !

ورأى ماركو بولو الجنة التي صنعها جماعة من الإسماعيلية في جنوب بحر
فروين .. جنة ، أشجار وأنهار .. وطيور مفردة .. وأناس يرتدون الملابس
البيضاء .. ويتعاطون الحشيش . وسمع ماركو بولو أن هذه الجماعة رجلا اسمه

« شيخ الجبل » . هذا الرجل يطعمهم ويسقيهم ويمتصهم ثم يأمرهم بأن يقتلوا
 أى إنسان .. فيقتلونه .. اسمهم الخشاشون .. (وقد قتلوا بعد ذلك شاه إيران
 والوزير الأكبر في مصر واثنين من الخلفاء في بغداد وقتلوا كوتزاد ملك
 القدس . وعندما ذهب كونت شامبانيا أيام الحروب الصليبية قابل شيخ
 الجبل . وأطلعه الشيخ على الجنة . ثم أشار إلى شابين يرتديان الملابس البيضاء
 قد جلسا على حافة إحدى القلاع . قارننى الشبان على الأرض . وماتا فوراً -
 إنها الطاعة العمياء ! ومن عادة شيخ الجبل أن يأتي بأتباعه ويعطيهم الخشيش
 وينقلهم إلى هذه الجنة يأكلون ويشربون ويختون مع النساء ويرقصون : وقبضة يلقى
 بهم خارج الأسوار . فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم على أرض الحقيقة المؤلمة .
 وهنا يقول لهم شيخ الجبل : إذا أردتم دخول الجنة فاقتلوا فلانا . ويقتلون فلانا
 ويعود بهم إلى الجنة !

أما الطريق الذى سار فيه آن بولو فطولته ثلاثه آلاف كيلو متر . وهم
 يقطعون منه عشرة كيلو مترات في اليوم الواحد ولذلك استغرقوا سنة في الذهاب
 واستخدموا الثيران في نقل متاعهم والخيول في نقلهم . والبغال في نقل أتباعهم
 وخدمهم !

وكان عليهم أن يمروا بصحراء جوفى . صحراء جافة عارية تماماً مليئة .
 وكان ماركو بولو يعتقد أن هذه الصحراء مليئة بالعقارب . يكنى أن واحداً
 من أية قافلة يتخلف عنهم ليضيع إلى الأبد . وهو يضيع لأن أشباحاً تظهر له .
 وهذه الأشباح تحذره وتستدرجه إلى طريق آخر . ومن الغريب أنه رأى جينياً
 وطيراً ومعارك لا وجود لها .. ثم أنه استمع إلى موسيقى غريبة قادمة من
 أماكن متفرقة في هذا الطريق . ولكنه خاف أن يروى ما يفزع له والده وعمه .
 وقبل ماركو بولو وصف لنا الرحالة الصيني ، فاد ين ، صحراء جوفى هذه بأنها
 مليئة بالعقارب .

ولابد أن الخوف هو الذى صور له هذه الأيام الثقيلة . فاجتو حار جداً .

والطيور الخارجة في كل مكان . وفي الطاريق بقايا أجساد إنسانية . ولا بد أنه السراب أيضا . الذي ساعد على هذه المخاوف الصوتية والمضوية معا ! - ثم لا ننسى أنه أوروبى وحيد وأنهم في العصور الوسطى .. وأنهم بقعة بيضاء تتحرك في محيط من الناس الصفر !

وأخيرا وصلوا جميعا إلى بكين ..

وقلم الألب بولو ابنه ماركو بولو إلى الخاقان . وعلم الابن أن يسجد وأن يقبل الأرض بين يدي الخاقان . وفعل . ولكن الإنجليز بعد ذلك بثبات السنين ضاقوا بهذه العادة فاخترعوا الخدعة التي يضعها كل إنسان تحت جبهته عندما يسجد للملك الملوك .. ثم اخترعوا أن يركع الإنسان ويخني رأسه على صدره .. ثم الرجوع فقط .. لم الانحناء وهم وقفون !

وفرخ الخاقان بالابن . وأعجب به واندعش كيف أنه استطاع أن يتكلم اللغة المغولية بهذه السرعة . وقرر الخاقان أن يلتمحى الابن بالعمل في البلاط الملكي . وتردد الابن لحظة . لكنه أبدى سعاده . وأما سبب تروده فقد قاله لوالده عند العودة إلى البندقية . فقد سمع الابن من أحد العرافين في الهند أنه سوف يدخل السجن . ولذلك كان شديد الخوف من أية مسؤولية !

ولم ينس ماركو بولو أن يتحدث عن المغول . انه معجب بشجاعتهم وتخفهم . ولكنه لا يحب إسرافهم في الزينة . وتعليق ما لديهم من الذهب على ملابسهم . وهم في نفس الوقت لا يستحمون مدى الحياة . فهم يعتقدون أن الإنسان عندما ينزل النهر ، فإنه يفضب أرواح النهر . ولذلك لا يستحمون أما إذا طالت رحلاتهم على ظهور الخيل . فإن الواحد منهم يأتي بسيفه ويضرب شريانا في جثم الحصان ثم يشرب دمه .. وهذا يرويه !

الأوروبيون بعد ذلك معنودون عندما لم يصدقوا كل ما رواه ماركو بولو . فهو يتحدث عن أشياء عجيبة . ولذلك أطلقوا عليه اسم : ماركو المليونير - أى ماركو صاحب المليون حكاية !

فقد حدثهم عن استخدام العقاريت في تحريك أدوات الطعام . لأنه رأى بعينه كيف أن الأطباق والأكواب تطير دون أن يمسه أحد . ورأى قطع الشطرنج تتحرك ويطرده بعضها البعض دون أن يقترب أحد منها . ورأى الأطباق الفارغة تمتلئ . ثم تقترب من يدي الخاقان . (حدث في أيام شارل التاسع في فرنسا أن جاء الساحر سيزار مالميسو وحرك الأطباق الموجودة على المائدة دون أن يمسه وبعد ماركو بولو بسبعين عاما روى لنا ابن بطوطة في رحلته كيف أنه رأى رجلا مرفوعا في الهواء . وكيف أنه رأى حيلا مرفوعا في الهواء . . وكيف أن طغلا تطلق هذا الحبل هاربا من أبيه . وكيف أن الأب طارده معه المسكين . واختفى الاثنان . وتماطلت قراعا الطفل وساقاه . . وأخيرا رأسه وهو ينفذ دما . ثم نزل الأب وجمع هذه الأطراف وغطاها ونهض الطفل (1) وصفحات كثيرة يروى فيها ماركو بولو إعجابه الشديد بالخاقان . أو على الأصح ببادله الإعجاب . وهو لم يرق كل ما فعله الخاقان عينا . قنلا عندما ينتقل الخاقان من قصره المصيف إلى قصره الشتوي ، يرشون الطريق كله بلبن الحميم إرضاء لأرواح الأرض . وينتقل الخاقان في غرفة من الخشب تجرها أربعة قبلة والغرفة مطعمة بالذهب . وكانت للخاقان أربع زوجات ، ومئات من الخدم .

ويروى لنا في الفصل الخامس عشر من كتابه الذي أصله في جزئين : كيف أنه أصبح موقفا في القصر الإمبراطوري . وكيف أنه أصبح قادرا على التحدث باللغات الفارسية والمغولية والعربية . ثم كيف عينه ملك الملوك قنصلا سنة ١٢٧٧ .

ومن الحكايات التي أفرغت ماركو بولو قصة الوزير الذي اسمه أحمد هذا الوزير قد رشحته إحدى زوجات الخاقان . فقد كان جميلا مهذبا رفيقا . وقد أحبه الخاقان . وترك له كل السلطات يفعل بها وبه ما يشاء . وتضايقت حاشية الخاقان . ولكن أحمد لا يعيا بشئ . ونكاثر الشكايات ولكن الخاقان لا يسمع . ولا يصدق ما يسمع . وأخيرا صاغر الإمبراطور . وعلم

ماركو بولو بمؤامرة على حياة أحمد ولكنه لم يتدخل . إنه يخاف من السجن . وفي إحدى الليالي جاء اثنان عند منتصف الليل إلى الوزير أحمد بقولان له إن ولي العهد قد عاد فجأة . وأنه يريد أن يراه . وخرج أحمد للقاء الأمير . ولكن الحراس رفضوا إدخاله لأن الأمير لم يصل . ولكنه أصر على دخول قصر ولي العهد . ودخل إلى إحدى الغرف وكان الضوء شاحبا ولم ير بوضوح . إن كان الخالس أمامه أمير أو أي إنسان آخر .. وسجد أحمد وقبل الأرض وأخفى رأسه ينتظر أوامر الأمير . وتقدم أحد المتأمرين وأطاح برأسه !

واكتشفت المؤامرة . وقتل الخاقان مئتا من رجال القصر !

ومن عجائب الدنيا التي اندهش لها ماركو بولو ولم يفهمها : العملات الورقية كيف يبيع الإنسان الذهب مقابل هذه الأوراق . أو كيف يشتري بها أي شيء .. وعلى الرغم من أن ماركو بولو من أسرة من التجار الناجحين ، فإن عقله لم يستطع أن يفهم معنى هذه الأوراق المالية وأنها تعهدات بالبيع . وهو معذور لأن هذه العملات لم تكن مستخدمة في أوروبا في ذلك الوقت . وإن كان الإمبراطور فريديريش الثاني قد استخدم عملات من الجلد .

وأعجب جدا بنظام البريد في الصين . وكيف أنهم يستخدمون الخيول لمسافة معينة . ثم يغيرون الخيول وهكذا — وكيف أنهم استخدموا الحمام الزاجل أيضا . (وإن التاريخ يؤكد لنا أن العرب هم أول من استخدم الحمام الزاجل بدلا من الطائرات في كل شيء . ومن أشهر حوادث التاريخ أن الخليفة العزيز قد طلب إلى الوزير الأكبر في بعلبك بلبنان أن يبعث له بعض حببات الكوز . فأقن الوزير بحبات الكوز ووضع كل حبة في كيس من الحرير وعلقه في ساق حمامة من الحمام الزاجل .. وأرسل الخليفة سرياً يضم ٦٠٠ حمامة وفوجي الخليفة قبل أن يتناول طعام العشاء بأن الفاكهة قد وصلت من لبنان !)

وقابل ماركو بولو رجلا تاجرا اسمه محمد ذو الفقار وكان هذا الرجل

مشرفاً على مناجم الفحم . ومستولاً عن صناعة الحرير . وكان مأخوذاً بدقه الخيوط التي لا تقبل الاحتراف !

ومن أهم الأعمال التي كلفه بها الخاقان أن يفود عشرين سفينة إلى جزيرة سيلان . ووصلت السفن إلى شواطئ الجزيرة . وسأل ملك الجزيرة عن سبب وجود هذه السفن ورد ماركو بولو بأنه سيعرف بعد أيام . فقاء كان من عادة الخاقان أن يبعث رجاله في مهمة لا يعرفونها ومعهم الأوامر . ولكن هذه الأوامر لا يطلعون عليها إلا بعد أن يصلوا إلى المكان الذي عينه لهم . ويفتح ماركو بولو صندوقاً به الأوامر الإمبراطورية . وكان الأمر : أحضر لي أسنان بوذا وخصلة من شعره ووعاء الطعام الذي كان يتناوله !

وكانت هذه الخلفات جميعاً قد احتفظ بها ملك سيلان . ويقال إنه زيف بعضها وباعها للملك سيام . ثم باعها مرة أخرى لماركو بولو . واندحش ماركو كيف أن بوذا له أسنان فيل !! وكان رد ملك سيلان أن بوذا قد حل في أجسام كثيرة : جسم فيل .. ثم جسم إنسان .. وأنه عندما مات كان في جسم فيل ولذلك فأسنانه أسنان فيل ..

ويبدو أن ماركو بولو قد سافر من مدينة كالومبو - العاصمة الآن - إلى مدينة كاندي - التي كان يسكنها أحمد عرابي باشا ولا يزال بيته فيها حتى الآن . هناك فوجد مخلفات بوذا في إحدى القلاع . ولكن ماركو بولو حدثنا فقط عن هفة آدم ، أو جيل آدم - وقد رأيت أنا عندما سافرت إلى جزيرة سيلان سنة ١٩٥٩ . أما الجبل في أعلاه بحيرة . ويقال إن هذه البحيرة هي الأثر الباقى لتقدم آدم عندما وطئها لأول مرة !

أما سعادة الخاقان فلا توصف -- كما يقول ماركو بولو . فقد عرض هذه الخلفات على الشعب . ووقف الناس طوابير طويلة يرونها . والطبول تندق . والموسيقى تملأ الشوارع . ويزداد حب الناس للإمبراطور . ويزداد خفيق الناس

برجال الدين الذين أكلوا لحم أنهم هم الذين استخدموا السحر في الحصول على
الخلفات الأصلية وليست الزائفة !

ومات هذا الخاقان بعد ذلك !

وكانت صدقة لآل بولو . وبعد شهر من وفاة الخاقان جاء خاقان جديد
وتقدم الثلاثة يطلبون الإذن في العودة إلى بلادهم . وقال الأب بولو إن له
زوجة وأولادا لم يرههم . وهو كاذب طبعاً فقد ماتت زوجته . وليس له غير
هذا الابن . ولكن الخاقان الجديد رفض . وقال لهم : إن كان الذهب أعطيتكم
أكثر وإن كانت الزوجة فهنا كثيرات . وبالاختصار : لا .. ولكن كلمة
لا هـ في الشرق لانتهى هذا المعنى . ولذلك عاد الثلاثة يطلبون العودة . ووافق
الملك . سـ وودعهم وأعطاهم الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة وبكت
نساء القصر ورجاله على فراقهم . وطلب إليهم أن يأخذوا عروساً معهم لأحد
أقاربهم من الحكام في فارس . بعد أن ماتت زوجته . وكانت العروس في
السابعة عشرة من عمرها .

وكانت العودة بطريق البحر في يناير سنة ١٢٩٢ . ومنحهم الخاقان
الجديد لوحات من الذهب الخالص مكتوباً عليها الإذن بالسفر وضرورة
تأمينهم طول الطريق . وبعث معهم هدايا ورسائل إلى البابا وملك فرنسا
وأسبانيا وإنجلترا .. ثم أعطاهم ١٤ سفينة بها ٦٠٠ رجل . وعندما وصلت
بعض هذه السفن إلى منطقة الخليج كان عددهم جميعاً ١٨ نسمة !

وعندما وصلوا إلى أرض فارس كان الحاكم الذي حملوا له العروس قد
مات عن ٧٦ عاماً ، بسبب إسرافه في تناطلي السوائل المقوية جنسياً . وأعطوا
العروس ووصفتها لابنه .. وبكت العروس عند وداع ماركو بولو فقد أنقذ
حياتها أكثر من مرة .

وفي سنة ١٢٩٥ وصلوا جميعاً إلى مدينة البندقية ، أي بعد أكثر من عشرين
عاماً . ويقال إنهم دقوا باب البيت . ولكن أحداً لم يعرفهم . ويقال إنهم اضطروا

أن يخلعوا ملابسهم المغولية . وعرفهم أهل البيت . وتحدثت المدينة عن ثرائهم وتلفت الأب والعم عبثا عن ماركو بولو . لقد اختفى يبحث عن قتاته . وبعد لحظات عاد حزينا . لقد ماتت الفتاة بعد سفره .. لقد ألفت بنفسها في الماء حزنا وندما على أنها رفضته زوجها هذا . من يدري فربما لو تزوجها ما كانت هذه الرحلة !

.. وتحققت نبوءة الشجرة ..

وبعد سنة من الإقامة في البندقية دارت معركة بحرية بين سفن جنوده المعادية لمملكة البندقية . وتولى ماركو بولو قيادة سفن البندقية . ووقع أسيرا ... ودخل السجن . — وتحققت نبوءة العراف الهندي .

وفي السجن لقي أدبيا اسمه روسيكللو أملى عليه مذكراته هذه . وكتبها هذا الأديب بلغة لمطالبة بها كثير من العبارات الفرنسية . واستغرقت عملية الإملاء هذه ثلاث سنوات . خرج بعدها ماركو بولو ومعه هذا الكتاب وأعطاه للناس بقروونه وبداولونه حتى كادت سطوره أن تتلاشى .. وعاش ماركو بولو بعد ذلك ربع قرن لا نعرف عن حياته شيئا !

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد امتلأ بكثير من الخوارق ، وأن بعض العلماء قد شكك في قسمتها ، فقد ظل المرجع الجغرافي الوحيد للكثير من المدن مئات السنين !

وبهذا الكتاب مقدمة وجهها ماركو بولو إلى الحكام ورؤساء الدول يقول لهم فيها : إن السفر هو أعظم متعة في الدنيا .. وإنه من الخير للحكام والرؤساء وللإنسانية أن يسافروا وأن يفتحوا الأبواب لقبولهم لكي يسافروا أيضا !

تحفة النظر
في غرائب الإصدار
وعجائب الأسفار!

كان هذا الشاب أكثر اهتماما بالناس . ومعه حق . قال الدنيا من صنع الناس . ملايسهم تدل عليهم . وطعامهم وشرايبهم : ومعاملتهم لضيوفهم ولقنائهم ، وحيواناتهم .. إنه يختلف عن الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي كان أكثر اهتماما بالمدن والمساجد . إن هذا الشاب أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتي - نسبة إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر - المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين (١٣٠٤ - ١٣٧٧) .

فقد كان في الثانية والعشرين من عمره عندما بدأ أطول رحلة قام بها الإنسان في العصور القديمة . طولها ٧٥ ألف ميل و ٢٩ عاما تزوج فيها ٢٣ مرة وأنجب سبعين ولدا وبنا .

ولقد ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة متنبئا متضجعا شديد الرغبة في المعرفة وفي السفر . أي في المعرفة عن طريق السفر . قرأ رحلات ابن جبير وتأثر بها وتقل عنها أيضا .. بدأ رحلته بالسفر إلى الأراضي المقدسة . ومن الغريب أن رجلا نبأ له بأنه يعبر البحر الأحمر من الشاطئ المصري .. وأنه سوف يخرج عن طريق الشام . وقد حدث له ذلك ..

ورحلات ابن بطوطة متعة حقيقية . فكلها حكايات ونواثر وخرافات سمها وصدقها . أو لم يتسع وقته لكي يتحقق منها . ولكنه ينقلها دائما كما هي .

فتلا في مصر سمع عن رجل اسمه الشيخ جمال الدين بن الساوي من دمياط جميل جدا . هامت به النساء . بعثت سيده من دمياط بخادمتها تقول له إنها تلقت خطايا من ابنها وتريده أن يقرأه لها وحاول الشيخ ثم طلبت

إليه أن يفعل ذلك بالقرب من باب البيت حتى نسمع الأم صوته ، وذهب الشيخ وتقدمت الخادومات وهجمن عليه . وكنته السيدة . ولكن الرجل لم يستطع ، وأنعيرا طلب إليهن أن يدخل دورة المياه . وحلق لحيته وشاربه وشعره وحاجبه وخرج كأنه قرد .. وهربت النساء منه !

ويقول ابن بطوطة إن هذا الشيخ جمال الدين كان يستطيع أن يأق بلحية سوداء أو بيضاء كما يحلو له !

ويقول ابن بطوطة إنه كان في الطريق إلى جزيرة سيلان عندما شاهد البحارة جزيرة صغيرة انزعجوا منها . فلم يكن ذلك في حسابهم . وكانت الريح ترميهم على الجزيرة .. وفجأة اكتشفوا أن هذه الجزيرة ليست إلا طائرا ضخما اسمه : المرخ .. ومن الغريب أن البحارة راحوا يصلون ويكفون وكل واحد منهم ينذره أن يتصدق بكذا وكذا . والناس في حالة من الفرع الرهيب . ولكن ابن بطوطة كان مشغولا بتسجيل المبالغ التي نذرها البحارة !

وعندما جاء ابن بطوطة إلى الإسكندرية سمع عن أحد المصريين أنه استطاع أن ينسلق عمود السوارى عاريا . والتف الناس حوله في دهشة كيف استطاع . ويقول ابن بطوطة لا يد أنه لف حوله جبلا وعقده ثم نسل إلى أعلاه . وسحب الحبل وأخضاه ليضاعف دهشة الناس . أو أن هذا الرجل فقير يريد حصة من الناس أو يريد أن يلفت إليه العيون (فعلت ذلك في لندن الراقصة المصرية دولت ، سليمان عندما صعدت عارية تمثال تلسون سنة ١٩٥٧ !)

ويروي ابن بطوطة أنه سمع في مدينة بخارى أن رجلا طيبا مؤمنا اسمه أدهم الزاهد قد وجد تفاحة في مجرى النهر . فأكلها . ثم ذهب يسأل عن صاحب البستان القريب الذي جاءت منه . وعرف أن صاحب البستان سيده فقالت له : هذا البستان أملكه أنا والسلطان وأنا نزلت لك عن حق في التفاحة . فذهب إلى السلطان ويحث عن السلطان . وعرف أنه على مسافة بعيدة . فذهب إليه . وحكى له ما حدث . وأعجب به السلطان . وزوجه ابنته .

وظل هذا الرجل الطيب بعيدا عن الزوجة تسعة أيام يصلى . وعندما طلب الإذن بالفكر قرر السلطان ألا يتركه حتى يبيت مع ابنته في فراش واحد . وفعل ومات ..

وقصص أخرى ونواهد كثيرة الواحدة بعد الأخرى في مئات الصفحات فرحلة ابن بطوطة رحلة في عادات الناس وتقاليدهم .. وهو يصف لك الطعام وكيف يصنعه والشراب وكيف يصرونه . ثم يتحدث عن شجرة « القات » ويسمى شجرة التنبول ويقول إنها تقوى الذهن وتكمل النفس بالحياة الجنسية .

وكان لابن بطوطة طريقة معروفة في كل البلاد التي يذهب إليها إنه يسأل عن القاضي : السلام عليكم - وعليكم السلام .. أنا فلان قادم من الغرب في طريق إلى مكة والمدينة .. أو كنت في مكة والمدينة . ويكون الجواب : أهلا وسهلا .. ضيفا علينا ثلاثة أيام . ويقول ابن بطوطة : إن معي عددا كبيرا من الاتباع والخدم والذواب ويقول القاضي أو السلطان : كلهم ضيوفي !

ولا يجد ابن بطوطة حرجا في أن يقول له : ولكن هناك مشكلة بسيطة .

ويقول المضيف : بسيطة إن شاء الله .

- إنني مدين لفلان بعشرين ألف دينار .

- ويقول المضيف ندفعها عنك بإذن الله !

وهكذا في كل رحلة ابن بطوطة التي استغرقت أكثر من تسعة آلاف يوم لم يدفع فيها مليا واحدا من جيبه .. وإنما هو بطلته وطرقة وبراعته يضل الفلوس من جيوب السلاطين والمخضاة إلى أسكراش التجار . في إحدى المرات في الهند ، كان مدينا بمبلغ خمسين ألف دينار . فنظم في السلطان قصيدة بحميفة . السلطان لا يعرف العربية . إنه يعرف اللغة الأردنية فقط . وأمسك السلطان بطرف القصيدة وأمسك ابن بطوطة بالطرف الآخر . ثم طلب إلى المترجم

أن ينقلها له بأمانة . ولم يتر السُلطان . وحزن ابن بطوطه . وأخيرا قرر السُلطان .
أن يصرف له هذا المبلغ . ولكن الطريق بين قراوات السُلطان والخزانة طويل
جدا ولا بد أن يعطى هو أيضا مما أعطاه السُلطان !

وفي أكثر من مرة كان يدعى المرض وعندما يسأل عنه السُلطان يقول :
قلبي يوجعني يا مولاي !

ويشير ابن بطوطه إلى جيبه !

وكان ابن بطوطه يعمل قاضيا للمسلمين في كل البلاد التي ذهب إليها
وكان إذا سمع عن شيء غريب . طلب أن يراه أو يكون قريبا منه . كانت
حياته كلها من أجل السفر ومن أجل أن يرى أكثر ليرى للناس بعد ذلك .
وإذا وجد الطريق صعبا أو مليئا بالصعوبات طلب من الله أن ينفذ البشرية من
هؤلاء السفاكين ليتقارب الناس أكثر ..

وكان ابن بطوطه يتزوج في كل مكان يحل به . ثم يطلق زوجته . أو
يقول لها إذا لم أعد بعد سنة فأنت حرة وتزوج كثيرا جدا . ولا بد أن الحياة
هو الذي منعه من أن يقول ربه في أشكال وألوان النساء اللاتي عاشرهن
وإن كان قد صرح بذلك في أكثر من مكان . فقد وصف بنات القوس
بأنهن جميلات وأنهن أقدر لساء العالم على « التفتن في حركات العشق » .
أما الزوجات في جزر المالديف — ذية المهل كما يسميها — فقد حاول أن
يقنعهن بتناول الطعام معه فرفضن . لا بد أن يأكلن بمفردهن !

وحاول ابن بطوطه أن يصلح فهم الشريعة الإسلامية في كل البلاد
التي ذهب إليها . فقد انزعج مرة عندما سمع صوت أجراس الكنيسة أعلى
من صوت المؤذن .. وطلب من المصلين أن يصعدوا إلى الجامع وأن يرفعوا
أصواتهم بالدعاء !

وعندما علم أن نساء جزر المالديف يحشين عاريات الصدر منعهن .

ولم يفعلن . ولكنه منع أية واحدة تنقف أمامه إلا إذا غطت صدرها !

وكان من عادة المسلمين في الهند إذا طلق الرجل زوجته أن تبقى في بيته حتى تجد لها زوجا آخر . وحرم ذلك . وأطلق سراح المطلقات . وضرب الرجال وقضحهم في الشوارع . وكان يحكم بقطع يد السارق !

وفي الهند رأى عجائب الدنيا .. ولا تزال هذه العجائب تنتقل من القرن الرابع عشر حتى يومنا هذا .. دون أن يناقشها أحد .. أو يدعى كثير من الناس أنهم رأوها . فهو أول من وصف لنا الرجل الذي يرتفع تلقائيا فوق الأرض .. ثم يرتفع حذاه إلى أعلى رأسه ويضربه .. وينزل الرجل إلى الأرض !^(١)

وهو الذي يصف قصة القبيلة التي قتلت أصحابها .. فقد حدث أن جماعة ذهبوا فيلا وأكلوه . وناموا . وجاءت القبيلة تشتمهم فيهم ليلا . وقتل كل من في فيه رائحة لحم الفيل .. إلا رجلا واحدا .. حملته القبيلة على ظهورها . وكان رجلا صالحا !

ويقول ابن بطوطة إنه رأى في جرد المالديف نساء لمن قُدى واحد !

وسمع عن شجرة تسقط منها ورقة واحدة كل سنة . في الخريف . هذه الورقة مكتوب عليها : لا إله إلا الله .. وينتظرها الناس كل سنة . ويقتسمونها مع السلطان ونصفها يكفي لعلاج الناس جميعا !

وهو أول من حدثنا عن حجر أسود وقع من السماء . أتوا له بهذا الحجر حاولوا تكسره . فلم يستطيعوا . فوضعه في مكانه !

وضحكك - ولم يصححك ابن بطوطة - عندما زار مدينة البصرة . فوجد أمام المسجد رجلا يخطي في النحو والصرف . واندش كيف يحدث ذلك

(١) راجع كتابي « الذين عبروا من السماء » .

في المدينة التي ولد فيها أبو النحر : سيويه ! (حدث لي ذلك أيضا عندما ذهبت مع وفود الأدباء والشعراء . ولاحظت أن الكوبري الذي يصل بين المدينة والمدينة الجامعية مكتوب عليه . الكوبري حمولة ١٢ طن - وليس ١٢ طنا . وكُتبت مقالا أفصح فيه هذه الغلطة الخطيئة في مدينة النحر . وأصلحوا هذا الخطأ !) .

واين بطوطه قوى الملاحظة ، وشديد الذكاء . ولذلك يخطئ كثيرا . فمثلا عندما رأى قواقع اللؤلؤ . قال إن هذه القواقع إذا أخرجوها من الماء . لم مرقوها . فإن قطع اللحم هذه ، إذا تعرضت للهواء ، تجمدت وتحولت إلى هذا اللؤلؤ الجميل - إنه لم يعرف أن اللؤلؤ إنما يتكون في أحشاء هذه الحيوانات الصغيرة سنوات طويلة تحت الماء !

وقد تأثر ابن بطوطه بالحياة في جزر المالديف . وقد تزوج هناك أربع سيدات معا . وكانت له خادومات أيضا ومن عادة أهل الجزر هناك وعددها ألف جزيرة ، أن العروس تفرش الطريق إلى بيت العريس بالقماش . ثم تنتظره عند الباب فإذا جاء ألقت بثوبها على قدميه . وكذلك يفعلون مع الذين يحرمونهم من الناس . أما كيف دخل الإسلام إلى هذه الجزر النائية المنعزلة في المحيط الهندي . فابن بطوطه يقول إن أهل الجزر كانوا يتوقعون يحيى أحد العفاريت مرة كل شهر والعفريت يحيى في سفينة مضاءة أما أهل الجزر فيعدون له فناة عذراء جميلة - مثل عروس النيل - ويضجونها في إحدى القلاع وتبيت معه حتى الصباح .. وفي الصباح لا تكون عذراء .. ويقال إن رجلا اسمه أبو البركات البربري من المغرب جاء إلى هذه الجزر . وسمع بهذه القصة وانزعج . وفي يوم وجد سيده عجوزا تيكى . وسأها . فقالت :

ابننى الوحيدة عليها الدور ! فقال لها أبو البركات : لا تخزنى - سأذهب بدلا منها .

وذهب الشيخ أبو البركات إلى القلعة ، وظل يصلي طول الليل .. حتى طلع النهار . وجاء أهمل البلنزر ينسلبون الفتاة ثمهدا لقتلها وحرقتها بعد ذلك فوجدوا الشيخ أبو البركات في الشبر الثاني تكرر ذلك .. وآمن أهل البلنزر بدين الإسلام . ولا يزال للشيخ أبو البركات قبر يزاريه جسرر المالديف .

وعندما عاد ابن بطوطة من هذه الرحلات الضويلة كان يجلس إلى الناس ويحكى لهم ما رأى . يخاف السلطان أبو عنان من أمراء بنى مدين أن تضيع هذه النادر . فطلب إلى ابن بطوطة أن يحلها . وأتى له بكتاب اسمه ابن جزى الكافي . وأملأها عليه ونشرت بعنوان : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . وفي كثير من الأحيان يضيف ابن جزى فقرات من عنده . وكان ابن بطوطة ينتقد أيضا .

وأجمل صفحات هذه الرحلة ما كتبه ابن بطوطة عن نفسه . عن عذابه هو . فعندما وقع في الأسر . هنا فقط يتحول ابن بطوطة إلى إنسان رقيق بليغ إنه يصف عذابه وهوانه على الناس . وكيف سجنوه ليقتلوه . ثم ربطوه بالحبال . وكيف أن الرجل المكلف بقتله كانت عينه على ملابس ابن بطوطة فأعطاهها له . وأرندى ملابسه الممزقة . ثم هرب إلى الحفرون والغابات ونام في الببوت المهجورة مع الثعابين والقران . وكيف أنه عندما أوى إلى أحد البيوت لاحظ أن طائرا يرفرف فقال : لعله خائف . وهكذا تجمعنا خائفين في مكان واحد .. ثم كيف أن أحدا حمله على عنقه .. فقد كان مرهقا . وكيف أنه تصور أن هذا الذى حمله الخبي . لا يعرف إلى أين .. صفحات من أرق وأعمق ما كتب ابن بطوطة !

ومرة أخرى عندما ثار لكرامته في جزر المالديف . هنا نحس أنه رقيق

ولكنه في الوقت المناسب قاطع كالسيف ! ولا يرجع عن قراره حتى إذا
انحنى السلاطين عند قدميه - وقد فعلوا . ولكنه لم يرجع !

ويظهر التعب والملل واضحا على ابن بطوطة عندما نقلته السفينة من جزر
المالديف إلى جزيرة سيلان ومعه إحدى زوجاته وأمه . فقد رأى جزيرة
صغيرة . وفي الجزيرة شجرة واحدة . وغربان وزورق . ورجل وزوجته
وأولاده . لا أحد غير ذلك . والبحر هادئ . والشمس حامية . والنسيم
معي . والماء نام . هنا .. تمنى ابن بطوطة أن تكون له هذه الجزيرة وحده
ويعيش فيها حتى الموت !

ذهب بحث عمه الهند
فوجد أمريكا ...
أكبر غلطة

أن إحدى حانات مدينة جنوة الإيطالية يجلس عدد من الرجال ومعهم سيدة جميلة . يشربون ويغنون . وفي آخر الليل يغفون لها أن تستدعي ذلك الشاب الحزين المأخوذ الذي ينظر في السقف . ويحيى الشاب ويقربون منه .. وبعد أن يرفض أن يشرب أو يصحك يقولون له : وتريد أن تكون ملكاً ؟ ويكون جوابه : سأكون ملكاً !

ويقولون له : قل لنا يا ملك الكنوز التي سوف تعثر عليها ماذا ستعمل بها ؟

ويكون جوابه بنفس الجدية وعينه هذه المرة إلى وجوههم وعيونهم الحمراء : سأقسمها مع الدولة .

ويقربون منه أكثر ويسألون : وتدعونا جميعاً إلى أن نشرب في صهيبتنا ؟ ويرد بسرعة كأنه يصدق ما يقولون : بل أدعوكم إلى أن تسافر معاً إلى أرض جديدة .. ومن المؤكد أنني سأجدها !

ويخرج الشاب إلى الشارع .. إلى الشاطئ .. وعند الشاطئ يجلس في زورق صغير ويظل ينظر في السماء حتى يغلب النوم . فلما طلع النهار عاد إلى بيته لينام ..

وكان أبوه يعرف ذلك .. فلا يسأله عن شيء . وكل ما يفعله الأب هو أن يلقي إليه ببعض التسيج . فقد كان أبوه ناسجاً .

ثم ينه إلى ضرورة أن يفرغ من عمله في أسرع وقت ، وأن يحلم فيما بعد

ولكن لم يعرف التاريخ رجلا عاش حائما طول الوقت مثل هذا الشاب
خريستوف كولومبس الذى تسلط عليه فكرة غريبة عجيبة . أنه وحده هو
الذى سوف يكتشف بلاد الهند والصين . لقد قرأ الكثير : وسمع القصص
والنواذر والخرافات التى امتلأت بها المداخن الإيطالية والأسبانية والبرتغالية .
وقرأ رحلة ماركو بولو الإيطالى الذى سخن فى مدينة جنوة . وسمع عن المحرمين
الذين هربوا من صيون البرتغال واختفوا فى إحدى جزر المحيط الأطلسي ..
بعيدا عن كل العيون .. وسمع قصة الراهب الذى ركب زورقا واختفى فى
الشاطئ حيث لا يدرى به أحد . وسمع قصة بلفيس ملكة سبأ التى قبل عنها
إنها عبرت المحيط ووصلت إلى اليابان وقرأ عن العرب الذين سافروا إلى الشاطئ
الآخر من المحيط : وعن كثيرين جدا .. ذهبوا ولم يعودوا ..

وقد عرض كولومبس فكرته الجنونية هذه على حكومة جنوة فسخروا منه .
وسافر إلى اليونان وإلى شمال أوروبا .. وكره بلاده .. وأقسم ألا يتكلم الإيطالية
والألا يكتب بها ، بل أنه غير اسمه تماما . وجعله : كريستوبان كولون . وكذلك
فعل إخوته .. ووقف فى زورق خارج مدينة جنوة وبصق عليها . (بعد ذلك
بمئات السنين فعل ماركوف نفس الشيء . عندما عرض اختراعه اللاسلكي
على حكومته فهزت له كتفها فسافر إلى إنجلترا) .

وسافر كولومبس إلى البرتغال . إلى لشبونة . حيث كان الناس بخارة
وكلهم أبطال . وعندهم مغامرات . وروى فكرته فى أن يذهب إلى الهند
والصين عن طريق المحيط — أى يذهب إلى الشرق عن طريق الغرب . وفى
مدينة لشبونة عرف إحدى الفتيات . أعجب بها . عرض عليها الزواج . وافقت .
اشترط أن يهديه إلى قصر الملك . الصدفة وحدها هى التى هدته إلى هذه الفتاة .
فلجأ إلى قريباتها تعمل فى البلاط الملكى . استطاع أن يقترب من الملك يوحنا
الثانى . لعرض فكرته . نظر الملك إلى هذا الشاب الإيطالى المؤمن تماما بمشروعه .
نظر إلى الخرافات التى رسمها فى يده . سأله : من الذى رسمها ؟ فأجاب كولومبس : أنا .

ثم طلب إليه الملك أن ينتظر بعض الوقت ..

وكان البحار دياز يلف حول أفريقيا يريد أن يكتشف طريقا آخر إلى الهند . ولذلك لم يكن ملك البرتغال متحمسا لمشروع كولمبوس .

ولم يطق كولمبوس صبرا . فهو يريد أن ينفذ مشروعه . فقد قرأ في الكتاب المقدس أن العالم سوف ينشئ سنة ١٦٦٥ (١٩) وقرأ أيضا في سفر أشعيا (الإصحاح الحادى عشر الآيات العاشرة والحادية عشرة) أنه هو وحده الذى سوف ينفذ العالم . وأنه هو الذى سينقل البشرية إلى الشاطئ الآخر . أو هكذا فهم !

والآيات تقولان : « ويكون في ذلك أن أصل (يسى) العالم رأيه للشعوب . لياه تطلب الأمم ويكون عمله عبدا . ويكون في ذلك اليوم أن السيد يبريد يده ثانية ليقبض بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر .. ومن جزائر البحر » .

وأمن كولمبوس أنه هو المقصود . ولذلك كان يمشى ويأكل ويشرب وينام وهذه الكلمات ترن في أذنيه .. كان يعيش كأنه منوم تنويمًا مغناطيسيا . لا يعرف الفصحك . ولا يعرف المشاركة في أى نوع من أنواع الحياة الاجتماعية . وليست لديه إلا قصة واحدة : اكتشاف الهند . وعندما تزوج لأول مرة : قال لعروسه : « فى استطاعتك أن تحتلى جنوى . قالت نعم ..

وحاولت أن تجعله يعدل عن الجنون . ولكنها لم تستطع . وبعد أن ماتت هذه الزوجة الغنية اختار عشيقة له . كانت مهمة هذه العشيقة أن توقفه طول الليل لتقول له : « أريد أن أنام .. اسكت .. لقد سمعت هذه القصة ألف مرة !

ولكنه لا يتعب من تكرارها .. ذهب إلى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا ملكى أسبانيا . قدم مشروعه . نشر خريطته أمامهما كأنها طائر أبيض ذبيح الخمس الاثنان . استدعيا رجال البلاط والخبراء . ناقشوه . اقنعوا بأنه مجنون

اعتبروا . ولكن الملكة تأثرت لخطره : طويل عريض . ذهبي الشعر لزرق العينين شديد البياض . له أنف حقر . لا يقصط . ولا يحب الضحك . وقررت الملكة أن تحتفظ به بعض الوقت . وواعظته معاشا لمدة سنتين . وبعد ذلك تخلت عنه فعرف الجوع والمرض والتضور . وكان لا يخرج من البيت حتى لا تنسل الأمطار إلى ملابسه وجلدائه . وأصابه القرس . وشاب شعره في من مبكرة . وأرسل أخاه إلى شارل السابع ملك فرنسا . ثم أرسله إلى هنري الرابع ملك إنجلترا . واعتذر الواحد بعد الآخر ..

ذهب كوليوس على ظهر بغل ليأف بابنه الذي تركه في أحد الأودية في جنوب فرنسا . دق الباب . خرج له أحد الرهبان . فقال له كوليوس : أريد ثلاثة أشياء . هل هذا ممكن ، وقال الراهب : ممكن يا ولدي ! قال كوليوس : لقمة عيش .. وولدي الذي تركته هنا منذ سنتين .. ونصف ساعة من وقتك بعد ذلك !

وفي نصف الساعة روى له كوليوس مشروعه الخيالي . واقنع الراهب وأرسل خطايا إلى الملكة ليزابيل ورجاها أن تستمع إليه .. وبعد أسبوعين جاء الرد من الملكة بأنها سوف تستمع إلى كوليوس .

وذهب كوليوس يعرض مشروعه مرة أخرى على مسبح من الملكة ورجال البلاط ورجال الدين والعلماء والمنجمين . وكان كوليوس كأنه « بسيط » وروحاني يتحدث بصوت إنسان آخر .. ووافقت الملكة على المشروع . ونظرت إلى وجه كوليوس . ولكن الوجه جامد . لا سعادة . لا فرح . لا امتنان . وسألته ماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال كوليوس : لننقل إلى الشروط .

ودهش الحاضرون . ولكن الملكة قالت له يرفق : وما هي شروطك ! ؟

قال : أن أعين أميرا للمحيط وثانيا للملك وحاكما على الأرض التي سأكتشفها وأن آخذ عشر إيراداتها وثروتها وكنوزها .

ورفضت الملكة المشروع والشروط معا .

وقال كولبوس : شكرا لأنك استمعت إلى .. وخرج كولبوس وركب بعثته واتجه إلى الشمال . لا أحد يعرف بالضبط إلى أين . ولكن وزير الخزانة قال للملكة يامولاتي . إننا لن نخسر شيئا . هذا الرجل إما أن يكون مجنوناً أو عبقرياً . فإذا كان مجنوناً فهذه مغامرة . وإذا كان عبقرياً وأنا أو من يملك فسوف يضيف إلينا أرضاً جديدة .. وعدداً هائلاً من الهنود يدخلون الديانة المسيحية .. إنه مجد لأسبانيا ! وإذا لم نوافق على تمويل هذا المشروع فأننا على استعداد أن أموله على حسابنا !

وامتدعت الملكة كولبوس لتبني رحمة العذاب والهوان التي استغرقت من عمره عشرين عاماً !

ومنحته مبلغ خمسة آلاف جنيه :

وقالوا لها : هذا كبير !

(خمسة آلاف جنيه أدت إلى اكتشاف أمريكا كلها . ! ولذلك غلاموال التي تنفقها أمريكا وروسيا على سفن الفضاء ليست كثيرة إذا ما قورنت بالقوائد الفلكية والعلمية التي سيبتدي إليها الإنسان بعد ذلك !)

واقترض كولبوس بضع مئات من الجنيهات .

وأعدت له الملكة أسطولاً من ثلاث سفن هي : سائنا ماريا (حمولة مائة طن) ورجالها لحسون . ونييا (٥٠ طناً) ورجالها ثلاثون . وبننا وحمولتها (٤٠ طناً) ورجالها ٢٤ .

وفي يوم ٣ أغسطس ١٤٩٢ بدأت الرحلة من الشاطئ الأسباني إلى المجهول مارة بمزر كناري - في هذا اليوم بالضبط قررت حكومة أسبانيا طرد اليهود جميعاً من البلاد !

وكان على ظهر سفينة القيادة عدد من الموظفين الرسميين . وكان كولبوس

حريصا على كل مظاهر الرياسة . وشديد التمسك بحقوقه . وكان يطلب إلى كل الرجال أن يعاملوه كأمرال ونايب للملك . وتوقفت السفينة عند جزر كنارى بعد أن انكسرت إحدى السفن .

وبعد جزر كنارى اتجه كوليبوس إلى المجهول . انه يمشى في طريق لا يعرفه أحد . لم يعبره أحد . فكل ما عنده قصص وخرافات . وفي أعماقه إيمان بأنه هو الذى سوف يبتدى إلى الأرض الجديدة . إن الأقدار قد اختارته والدليل على ذلك أنه غرق في المحيط وأنفذه إحدى الصخور الصغيرة .. وأنه وحده هو الذى يسمع صوتا واضحا يهتف في أعماقه . وأنه هو وحده الذى يتجه إلى الهند عن طريق الجنوب لا عن طريق الشمال .

وبدأ البحارة يشعرون بالخوف . فقد كانت الطيور تطمئنهم . إن هذه الطيور دليل على أن الأرض قريبة . ولكن الأيام طالت وطالت . والليل يجمى ويروح .. والرياح يغير اتجاهها وأشرعة السفن الصغيرة تمزق . وفجأة لم تعد البوصلة تتجه إلى الشمال .. إنها تتوقف .. وفجأة تعالى صوت أحد البحارة : الأرض .. الأرض .. ولم تكن أرضا . وإنما هي صحابة كثيفة جاثمة على صدر المحيط .. وفجأة ظهرت أحشاب بحرية كثيفة تعوق سير السفن .

وفي يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٢ صرخ أحد البحارة : الأرض ! .. الأرض ولم تكن أرضا . وإنما هي هم . أو تعب . أو صعب .. أو أسماك تلعب في الماء فيظن البحارة أنها مشاعل في أيدي الهنود .. ورغم ذلك فإن البحارة أقاموا الصلاة . وراحوا يتهللون لله .. وينشدون معا : حفظ الله الملكة .. وظلح النهار . ولم يجدوا الأرض ..

وفي يوم ١٠ أكتوبر قرر البحارة التردد على هذا الرجل المجنون كوليبوس وأعلنوا أنه لا بد من العودة .. واستدعاهم كوليبوس وقال إنه سوف يعطى معاشا سنويا ضحما لأول من يرى الأرض .. ثم قال لهم : إذا لم تظهر الأرض بعد ثلاثة أيام بالقيبط فسوف نعود إلى أسبانيا !

وهذا المتبردون ومن العجيب أن الأرض ظهرت بعد يومين . أما كيف أعلن كولبوس ذلك وفي يقين . فلا بد أن يكون السبب هو أنه رأى بعض الطيور البحرية تنجى إلى الجنوب . ولابد أن أغصان الأشجار العائمة والتي التقط منها واحدا هي التي شجعت على ذلك .. ولابد أن قطعة الخشب المخترقة هي التي أكدت له أنه قريب من الشاطئ .. وفي الساعة الثانية من صباح يوم ١٢ أكتوبر صرخ أحد البحارة : الأرض .. الأرض ..

وكانت الأرض الجديدة بعد ٣٢ يوما من السفر من جزر كناري . وطلب إليهم كولبوس أن يصلوا وأن يعرفوا وأن يناولوا ونزلوا إلى الأرض . وغرسوا علم أسبانيا وارتدى كولبوس ملابس الأميرال ونائب الملك وأعلن أن هذه الأرض ملك لاسبانيا وأنه هو حاكمها .. وانتهت بذلك الخرافات والقصص والتوادر التي أعلنتها الشعوب مئات السنين عن الشاطئ الآخر للمحيط الأطلسي . انتهى ما جاء في كتاب « صور الدنيا » للكاتب بير وايلى .. انتهت كل الألغاز والرموز التي جاءت في الكتب المقدسة عن الظلمات وبحر الظلمات .. وما يكتبه يوحنا المعمدان ..

وكان الفيلسوف أرسطو يعتقد : أن المسافة بين أسبانيا وبين الهند - أي الجانب الآخر من المحيط الأطلسي - قريبة جدا ..

وكان الفيلسوف سينيكا يقول : إذا كانت الريح ملائمة أمكن عبور المحيط في أيام !

ولم يحدث في التاريخ أن استطاع إنسان بمعلومات خاطئة في الجغرافيا والظن أن يكتشف عالما جديدا . فكولبوس إنسان غير متعق . وإنما عنده تجارب وعنده بعض القراءات وإيمان لا حد له .. فهو حتى الموت كان يحلم بقاء الخاقان الذي تحدث عنه ؟ ماركو بولو .. وتلك الكنوز من الذهب والماس . في بلاد الصين !

وبعد اكتشاف كولمبوس للأرض الجديدة ، أصبحت الأرض الجديدة
في متناول كل بحار مغامر .. وتولدت اكتشافات الجزر الكثيرة . بل إن بعض
بحارة كولمبوس اكتشفوا البرازيل .

أما أول أرض نزل بها كولمبوس فهي إحدى جزر بها ماس وقد أطلق
عليها اسم : سان سلفادور ..

وكان سعيدا عندما رأى الهنود ووصفهم في مذكراته : أنهم أناس
في غاية الرقة . عراة . وبلا سلاح .

وأول ما لفت نظر كولمبوس هو الذهب الذي في صدور وآذان النساء .
وحاول أن يعرف منهم أين يوجد هذا الذهب . فأشاروا إلى أنه في الجنوب
في جزيرة كوليا أي كوبا .

ورأى الأوروبيون لأول مرة أن الهنود يلقون أوراقا صغيرة ويشعلونها من
حافتها ثم يضمونها في أنوفهم ويدخنونها — إنها السجائر !

وبعد ذلك كل شيء مكرر . فكولمبوس أثبت أن هناك طريقا . وأن
الطريق قد بلغ نهايته .. وبعد ذلك تابعت كل الدول ؟

وعاد كولمبوس إلى أسبانيا ..

واستقبلوه استقبال الفاتحين . ارتدى ملابس الأميرال ونائب الملك .. كان
يسوق أمامه عددا من الهنود الحمر .. والناس يتفرجون على الرجل الذي
أنكره كل الناس وصغروا منه .. إنها إذن لحظة النصر العظيم على الشقاء والتعاسة
والجحود والسخرية ..

وأجلسه الملكة إلى جوارها ..

ولكن الذين لا يتحمسون في بلاد الملوك وما أكثرهم . نظروا يتصف عيون
إلى هذه الثروات التي حملها معه . لم تكن شيئاً هاما . أما الهنود الحمر فتعد
آمن كولبوس أنها فرصة لتجارة الرقيق وفي استطاعة أسبانيا أن تكسب من
ورائها الملايين .. ثم إنه أتى ببعض الليبتاوت . وأتى ببعض الثمار والحقل
الأحمر واللبان وجوز الهند - إن الرحلة ليست كسبا كبيرا !

ولذلك قام كولبوس بثلاث رحلات أخرى . الثانية استغرقت ما بين
١٤٩٣ و ١٤٩٦ والرحلة الثالثة فيما بين ١٤٩٨ و ١٥٠٠ والرحلة الرابعة والأخيرة
فما بين ١٥٠٢ و ١٥٠٤ . وعين أخوه حاكما على إحدى الجزر .

ولم يكن كولبوس غيبا عن الإدارة أو الحكم . وقد انشغل عنه الملك
والملكة تماما . وهان أمر اكتشافه على أوروبا كلها . فقد تساقطت القول
إلى اكتشافه أراض جديدة .

وطالب كولبوس الملكة بأن تفي بما وعدت به . ولكنها اعتذرت لأنه
ليس من المحقول أن يتقاضى كولبوس عشر ثروات أسبانيا !

ثم إن كولبوس نفسه شخص لا يطاق . فهو عصبي عنيف . وفي غاية
التصور والمرارة . فعندما قرر العودة إلى أسبانيا ترك وراءه أربعين من رجاله
قتلهم الهنود .. وحدث وهو في الطريق أن قامت عاصفة . فجمع البحارة وقال
لهم : من الذي اكتشف الهند ؟ قالوا له : أنت ..

- من هو أميرال المحيط وملك أسبانيا ؟

- أنت ..

- من الذي اختارته السماء ؟

- أنت !

وهنا أمسك كولبوس قطعة من الخلد وكتب عليها أنه هو وحده لا شريك

له قد اكتشف الهند والصين وأنه سيد البحار . ثم وضع قطعة في زجاجة وألقى بها في المحيط !

وعندما وصل البحارة مع كولبوس روى للملكة ما حدث .. ونهاهس الناس في قصر الملكة عن الرحلة التي لم تسفر عن شيء ..

أما أخوه فقد كان هو أيضا حنيفا . أعدم عددا من الأسبان . وأقره كولبوس على ذلك . بل أن كولبوس قد صفع القاضي الذي بعث به الملكة لإقرار النظام في الأرض الجديدة . فأصدر القاضي قرارا بإلقاء القبض على كولبوس . ووضعت السلاسل في يديه .. وعاد بنفس الطريق الذي اكتشفه إلى أسبانيا لما كنته .. وعندما علمت الملكة بما أصاب كولبوس انزعجت وطلبت فك السلاسل من يديه ولكنه أصر على أن يمشي في الشوارع ويراها الناس .. ويشهد الناس ما لقيه هذا المكتشف العظيم !

ولم يكف الناس يرون كولبوس حتى بكوا من أجله .. وفكوا قيوده . وعاد كولبوس يطالب الملك بنصيبه من الثروات . ووعده الملك بأن يعطيه معاشا سنويا . وأن يحفظ أبنائه الشرعيون وغير الشرعيين بألقابه !

وماتت الملكة ولم يعد لكولبوس أحد يعطف عليه ..

وفي هذه الأثناء اكتشف رجل إيطالي آخر اسمه أمريكو فسبوتشي أمريكا الجنوبية وأعلن أنها ليست الهند كما قال كولبوس .. وإنما هي قارة جديدة تماما .. إنها ليست آسيا .. ولذلك سميت أمريكا باسم هذا البحار الإيطالي لأنه هو المكتشف الحقيقي .

أما السنوات التي جاءت بعد ذلك فهي مرض وعجز عن الحركة ، حتى ملكه كراته التي كان يسجلها يوما بيوم لم يكلها . وإنما استولى عليه القرف .. ووهم عجيب بأنه يجب أن يذهب ليحرر القدس . وآخر خطابات كتبه لإبنه

بطلب منه أن يرفع أمره للقضاء ضد الملك حتى يحصل على حقه كاملا من الأرض التي اكتشفها !

وظل الإبن يقاضى الدولة حتى سقط حقه بوقاته ..

ووفاته كولبوس نفسه عن ٥٥ عاما يوم ١٩ مايو سنة ١٥٠٦ - دون أن يدري به أحد !

وفي ١٥٤٢ نقل رفات كولبوس إلى حزر سان سلفادور . ووضع في كاتدرائية سان دومنجر . وتحطمت هذه الكاتدرائية بعد ذلك بفعل الزلازل . ثم أقيم فناء ضخم عند مصب نهر أوزيمان في جمهورية الدومينيكان يحمل اسم كريستوف كولبوس ..

وقد اختار كولبوس أن يموت في أحد أديرة الفرنسيين لأنه حاول أن يفتحهم بضرورة تحرير القدس . وفي إحدى المرات نهض من الفراش ولكن المنقرس شل حركته تماما . فسقط على الأرض وهو يقول باللاتينية : بين يديك يا إلهي . سلمت روحي !

إنها أكبر وأشهر وأعجب غلطة في التاريخ كله : لقد ذهب لبحث عن الهند والصين فاصطدم بأمريكا ، ومات دون أن يعرف ذلك !

نبوءة تقول
تكتشف أرضنا بهدية
لا يمسها أولادك !

عندما اقتربت السفينة من انشاطى : رجع سكان جزيرة هاواى ثم سجدوا
وبعد ذلك تمرغوا على الرمل الناعم . واتهمز شيخ الجزيرة فذبح ثلاثة من الشبان
والنشايات .. وألقى بأجسادهم فى الماء .. واشتعلت النيران . وتعالى الدخان
والعويل .. واقترب شيخ الجزيرة من السفينة وقد أخفى جسمه كله فى الماء ..

أما يدها فقد رفعهما إلى أعلى .. أما رأسه المصبوغ بالأبيض فقد عمره
فى الماء .. ورفعته بين لحظة وأخرى ليقول : آو .. هو .. هو .. هو .. ي ..
ومعناها الإله الأعظم !

فأهل جزيرة هاواى قد رأوا سفينة ، فظنوا أنها الجزيرة العاتكة التى تحدثت
عنها الأساطير .. ورأوا أشرعها البيضاء والأسطورة تقول أن الجزيرة سوف
تكون أشجارها بيضاء .. ولما رأوا قبطانها الأوروبى الأشقر أثبتوا أن هذا
هو الإله !

ونزل الأوروبيون من السفينة ..

ولم تخلص لحظات حتى كان القبطان قد أتى بواحد من الأوزوبيين ونزع
ملابسه . وراح يضربه على ظهره أمام هؤلاء الملوثين . فأصابهم الرعب ..

ومضت بعد ذلك أيام هائلة سعيدة .. فالجزيرة هادئة جميلة .. أرضها
حمراء اللون وأشجارها خضراء زرقاء وأمواج المحيط الهادئ مينة .. كل
شئ قد خلق ليكون منعة للعين .. ولكن هذا القبطان لا يريد أن يبدأ إنه
يمسك قلما وورقة ويرسم .. فهو أبصر من رسم الخرائط البحرية ..

وعندما علم أن ثلاثة من رجاله اعتنوا على نبات هاواي راح يضربهم حتى سالت دماؤهم . وقد فعل ذلك من قبل . وكانت غلظة فقد أدرك الملقون أن هؤلاء البيض لم دماء .. وأن الضرب بوجهم . فهم يتوجعون ويكون ككل الناس ..

وعندما حاول واحد من أهل هاواي أن يطلق سهمه على واحد من البيض فخله القبطان .. ولم يعرف القبطان أنه قتل ابن شيخ القبيلة الوحيد .. وهنا تقدم شيخ القبيلة وقتل القبطان .. وكان ذلك يوم ١١ فبراير سنة ١٧٧٩ . ولم يعرف أهل هاواي من هذا الرجل الذي قتلوه إنه أعظم مكتشف في كل العصور إنه استطاع في سنوات قليلة أن يصحح أخطاء جغرافية قديمة .. إنه أول مستكشف اعتمد على العلم والملاحظة في أعظم وأطول رحلات قام بها إنسان في التاريخ .. إنه البحار والمكتشف الإنجليزي جيمس كوك . (١٧٢٨ - ١٧٧٩) .. ولم يعرفوا أن هذه الأوراق لم تكن سوى مذكرات وأن هذه الأنوية التي خطفوها لم تكن سوى نلسكروب رأى به جزيرتهم لأول مرة ، ورأى به جزرا أخرى لم يعرفها رجل أبيض من قبل .. وارتاد به أيضا هذه القارة الخامسة في جنوب الدنيا !

(تجربة شخصية : عندما كنت في جزر هاواي اشتركت في لعبة معروف يسمونها لعبة القبطان . يقف فيها القبطان - أنا أو غيري - ويلتف حوله عدد من الفتيات يرتصن ويلقن كلاما غير معروف .. ثم يدرن حول القبطان بعد أن يقتنن له الموز وجوز الهند والأناناس وشرايا غريبا .. ثم ينتظرن بضع لحظات .. حتى يرتنج ، ويلقن به في الماء - حدث لي هذا كله فيها عدا الإلقاء في الماء فأنا لا أعرف المباحة - وهذه اللعبة هي تطوير لما حدث لجيمس كوك قبل ذلك بمائتي سنة !)

ولم يعرف البحر رجلا نصفه إنسان ونصفه الآخر حوت مثل هذا الرجل كوك ، فهو فلاح ابن فلاح - انتقل من العمل في الحقول إلى العمل

في دكان بفال . وبعد ذلك انتقل إلى السفن . ومنذ عرف السفن لم يخرج منها . بل إنه كان يهرب من السرير لينام في الزوارق . وانتشرت شائعة تقول إن أحد الزوارق به عفريت . وقرر أصحاب الزوارق أن يحرقوه في الليل . وفي إحدى الليالي بدأوا يلقون عليه بالمشاعل . وفوجئ الناس بأن طفلا يهرب منه . وانطلقوا وراءه وكان جيمس كوك . فقد حاول أن يقنع الناس بأن الزورق مسكون ؛ لعلمهم بتركونه ويسافر به إلى الجنوب .. ولما سأله : وأين هذا الجنوب ؟ كان يقول : إلى الأراضي الجنوبية - ومعناها أستراليا ! حاول أبوه أن يجعل منه شيئا ولكن الإبن مصر على شيء في رأسه . انه يؤكد لوالده : إنني مختلف عن أخوتي التسعة فلا نحاول معي شيئا . اتركني !

ذهب كوك إلى أحد رجال الدين يسأله : ما الذي ينقصني .. إنني قرأت كل كتب الجغرافيا التي وجدت .. قرأت كل الرحلات القديمة .. درست الرياضة .. أعرف أين موقع أي مكان في العالم .. وأستطيع أن أقول ما هو خط العرض وخط الطول .. ما الذي ينقصني ؟

سأله رجل الدين : كم عمرك يا ولدي .

فاجاب : أكثر من عشرين سنة الآن - وكان في السابعة عشرة من عمره !

وقال له رجل الدين - وكانت نبوة - : لا شيء ينقصك ؛ عشرون سنة أخرى !

وبعد عشرين سنة تماما وفي يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٧٦٨ كتفت الجمعية الملكية هذا الرجل كوك بأن يذهب إلى نصف الكرة الجنوبي في مهمة فلكية . فقد تأكدت الجمعية الملكية أن هذا الرجل هو الرجل المناسب .. فهو بحار ممتاز سافر إلى جزر بعيدة . واشترك في معارك بحرية . وفي غاية الدقة . وشخصية . وعلى دراية عميقة بالفلك و رسم الخرائط البحرية . وله خرائط دقيقة قد رسمها لشواطئ أمريكا الشمالية ..

ويقول كوك في مذكراته : « وكان اليوم الموعود .. أما السفينة فاختبرت لها اسم « الأمل » وحمولتها ٣٧٠ طناً . وعلى ظهرها ٩٤ شخصاً من العلماء والبحارة والأقضية - أو السادة الأكابر - ومعهم الخدم .. وعلى السفينة طعام يكفي لمدة سنة ونصف سنة ومعنا مدافع ثابتة ومدافع متحركة . أما العلماء فهم أناس مشغولون بالفلك . وآخرون مشغولون بالنبات . وفي ذلك اليوم تفاعلت فقد فُزت على رأسى قطعة سوداء .. تخليت أن آخذها معي .. لولا أنني خشيت أن تموت منى فأتشاءم ... »

وكان من مهام كوك أن يرصد كوكب الزهرة يوم ٣ يونيو سنة ١٧٦٩ من جزر تهايتي . ففي ذلك اليوم سيدخل هذا الكوكب في مدار قريب من الشمس والمطلوب رصد هذه الظاهرة لمعرفة المسافة بين الأرض والشمس بالضبط .. وبعد ذلك عليه مهمة أخرى . إنها ذلك الحلم العجيب الذي كان يهزه بالليل فيصرخ كأنه مجنون .. وكان يريد أن يتحقق بعينه إن كانت هناك أرض جنوبية متصلة بالقطب الجنوبي .. أو هل صحيح أن قارة أستراليا - ومعناها الأرض الجنوبية متصلة بالقطب الجنوبي كما قاله كثير من البحارة والمكتشفين والأمماتير القديمة .

ومن المعروف في ذلك الوقت أن يصاب البحارة بمرض الاسقربوط دون أن يعرفوا السبب الذي نعرفه الآن وهو نقص فيتامين ج ولكن كوك استطاع - بذكائه وتجربته أن يتجنب الإصابة بهذا المرض عن طريق وجبات الطعام المتكاملة والتعرض لأشعة الشمس .

لم يحدث شيء غير عسادي في الرحلة من إنجلترا إلى البرازيل .. ولا حول أمريكا الجنوبية .. ولا في المحيط الهادى إلى أن رست السفينة عند شواطئ جزر تهايتي .. فقد اعتاد سكانها الأصليون أن يروا الرجل الأبيض .. واعتادوا على مقابضة الحرز والطعام .. وعلى أن يقدموا الطيور والخنازير مقابل المسامير التي يحتاجون إليها في صناعة الزوارق .. وفي هذه الجزيرة سرق

أهل نهائى بعض الأوروبيين .. واضطر كوك أن يقبض على عدد من أهل الجزيرة حتى يعيدوا المسروقات . وأعادوها . وعندما هرب اثنان من بحارته . ألقى القبض على بعض المثلونين . وعلى الرغم من أنهم اعترفوا بأنهم أبرياء . فقد وعدوا بمحاولة .. وأعادوا المأربين .. وكان لابد من أن يضربهما كوك أمام الجميع .. وعندما شكك أحد سكان الجزيرة من أن طبياخ السفينة قد هدد زوجته بأن يقطع رقبته ذهب بشكو إلى كوك . ودعاه هو وزوجته لروية الطبياخ عاريا صارخا تحت ضربات كوك القاسية - كان قاسيا على غيره وعلى نفسه وكان حازما أيضا !

وأقام كوك مرصدا فلكيا وذهب إليه العلماء . وفي يوم ٣ و ٤ يونيو ارتفعت العبدسات إلى السماء تسجل مسار الزهرة . ولكن النتائج كانت هزيلة . ويمكن أن يقال أن الفرض الأساسي من هذه الرحلة فشل . فلم يكن من السهل رصد هذا الكوكب .. لأن طبيعته مختلفة عن الكواكب الأخرى . ولم تكن صورته واضحة تماما ..

وانتج العلماء الآخرون إلى البحر يجمعون العينات الغريبة من الأحياء المائية . ويضعونها في زجاجات . وكوك يقول في مذكراته : إننى لا أعرف الفشل ولا يمكن أن تكون هذه الأحلام الواضحة جدا التى أراها فى نومي ، وهما أو هليوسة .. لأننى أرى بوضوح أرضا جديدة لم يرها أحد من قبل .. وإننى أرى الرجل الذى سوف يعثر عليها .. أنا وسعدى !

ولذلك انجى كوك إلى المهمة الأخرى من رحلته ..

اتجه بالسفينة إلى الجنوب .. ثم إلى الغرب .. أقصى الجنوب .. وأقصى الغرب .. وسارعت الزوارق الصغيرة التى امتلأت بأهل الجزيرة تظارده . وفريد أن يتابعه . وأن تلتحق به . وأن تسافر معه . بعضهم كان يبكى . ولكن كوك تأثر بمنظر رجل وابنه .. فقد حمل الأب ابته على كتفه ووقف في أحد الزوارق يشير إليه .. الأب فى الأربعين والإبن فى العشرين . وتوقف كوك

وامتدت الأبدى لمساعدة هذا الألب . واسمه : طوبيا . وركب معه . وكان دليله في التفاهم مع سكان الجزر الكثيرة الصغيرة التي رآها بعد ذلك ..

وفي أحد الليالي أحس كوك بضوضاء في مكان ما من السفينة . واتجه إلى مصدر الصوت فوجد أن أحد العلماء قد أصيب بنوبة صرع . وراح يلقي بالأدوات العلمية في الماء فتبعه بالقوة .. قائلا : هذه الأجهزة لم تعد ملكا لك .. إنها الآن لنا جميعا !

وقال العالم : أنا حر ..

وقال كوك : أنت حر في أن تلقى بنفسك في الماء فقط !

وألقي الرجل بنفسه في الماء .. وتركه حتى غرق . ومضت السفينة في طريقها !

وفي أكتوبر سنة ١٧٦٩ رأى أروا . إنه يعرفها . هذه الأرض قد عرفها الهولنديون قبل ذلك بمائة سنة .. إنها التي تسمى الآن نيوزيلندا .. ولا بد أن يتجه كوك إلى جهة أخرى .. إنه يريد أن يعرف أين هذه الأرض الجنوبية .. أين استراليا .. وكان الجو عاصفا . والموج عاليا . ولكن كوك على ظهر السفينة لا يهتز .. وإنما هو مثل سارية السفينة . مشدود . مصلوب عنيد . وبعد أربعة أيام ظهرت أرض .. إنها هذه الأرض . اقتربت السفينة . نزل منها . وصرخ : إذن كل ما قبل لنا وهم !

ويقول في مذكراته : صعدت الصخور . كل ما أتوقعه هو أن أجد أرضا ممتدة بغير نهاية . ولكن وجدت البحر من الناحيتين .. إذن هي جزيرة كبيرة . ولكن لا بد من دليل آخر !

أما الدليل الآخر فهو أن يدور حول هذه الأرض .. ليعرف إن كانت جزيرة كبرى أو قطعة أرض متصلة بالقطب الجنوبي . ولكنه قبل أن يسور حولها لم يفس أن يضع علم بلاده عليها معلنا ملكيتها للتاج البريطاني .

وظلع أكثر من ألفي ميل حولها . وأخيرا تبدلت الأسطورة القديمة أن هذه الأرض الجنوبية لا نهاية لها إلا في الجليد .. إنها إذن قارة خامسة هذه حقيقة مؤكدة !

ولم ينس كوك أن يرسم شواطئ القارة الجديدة بدقة وبراعة فائقة .. أما علماء النبات والحيوان فقد أصيبوا بالجنون . فهم أمام فردوس النباتات وجنة الحيوانات .. كل شيء جديد تماما . ومختلف عن نباتات وحيوانات أمريكا وأوروبا . وأعجب ما رأوا حيران الكائنات - كما يسميه سكان استراليا الأصليون - إنه في طول الإنسان . له رأس غزالة .. وله ذيل ويجلس على رجله الخلفيتين - كالطيور - يقفز كالصفدعة . ويقول كوك إنه اضطر أن يقتل واحدا ليدرسه .. وعلى الرغم من أن كوك قوى الملاحظة فإنه لم يترك أن هذا الحيوان يخفى صفاته في كيس في بطنه . وأن هذا الحيوان الضخم عندما يضع صفاته يكون الواحد منها في طول هذا السطر فقط ! ولم يعرف كوك طبعاً أن هناك ٣٨ نوعاً من الكائنات و ١٢٨ فصيلة !

والسكان الأصليون سود في غابة المندوء . وأقل شراسة من سكان نيوزيلندا .. ومن الغريب أن الخرز والألوان الزاهية لا تبههم وإنما فقط يريدون الطعام وبلغ من ذكاء كوك أن أدرك شيئاً عجيباً . فقد لاحظ أنهم يمشون في خطوط مستقيمة . وهي ملحوظة عجيبة . فقد سمعت أنا أيضاً في مدينة دارون بشمال استراليا . أن سر تأخر هؤلاء السكان الأصليون أنهم لم يصنعوا حضارة واحدة .. أنهم بالفعل يمشون في خطوط مستقيمة حتى يموتوا من الجوع ومن الجوع ولذلك تهرص الدولة على إطعامهم وإيوائهم . ولم تفلح في تطويعهم . وأكثرهم تطوراً يعملون في كنس مطار مدينة دارون ! وهذه الظاهرة لم يهد أحد من العلماء إلى تفسيرها !

وأمام استمرار البحارة والسادة الذين معه قرر العودة إلى إنجلترا . واستقبله

الشعب الإنجليزى كما لم يستقبل بطلا من قبل . وقرر العودة مرة ثانية ليتأكد
بنفسه من القارة الجنوبية ..

وقطع أكثر من ٧٥ ألف ميل ليتأكد أنه لا توجد أية قارة جنوبية . وأعاد
كوك رسم الخرائط البحرية . وانهاكت عليه التياشين والميداليات الذهبية ..
وأصبح أعظم بحار عرفته البحار !

ويقال أن كوك ليس أول من اكتشف أستراليا . فقد أعلن ماركو بولو
من قبل أن الصينيين تحدثوا كثيرا عن أرض في الجنوب .. ولكن هناك جزرا
كثيرة في الجنوب . ويقال إن الهولنديين وصلوا إلى هذه الأرض .. ويقال
الفرنسيون .. ولكن من المؤكد أن كوك هو أول من اكتشفها ودار حولها .
وقطع نهائيا بأنها قارة جديدة .. أو جزيرة كبرى ! وأنه لا توجد أرض متصلة
مباشرة بالقطب الجنوبي !

أما الرحلة الثالثة فقد اكتشفت فيها جزر هاواى . وقد أطلق عليها جزر
ساندويتش . وساندويتش هو رجل قد تكفل بالإغراق على رحلته هذه .

ولم يبدأ كوك فقد أراد أن يعرف ما إذا كان هناك طريق في شمال أمريكا
يمر بالمناطق الجليدية يربط بين المحيط الهادى والمحيط الأطلسى . وتمعن الجليد
من التحقق من ذلك .. فعاد إلى جزر هاواى . وهناك قتل . وعاد رجائه إلى
أوروبا ..

وعندما كلفته الجمعية الملكية بالدوران حول الأرض لأول مرة قال له
أحد الأعضاء : أنت تعرف أكثر من غيرك .. أن الذين يسألونهم
الذين يعرفون .. وأن الذين يتعلمون هم الذين يكتشفون .. وأن الشجعان
هم الذين اهتدوا إلى الشواطئ الأخرى .. ولو لم ينتقل آدم من الجنة إلى الأرض
ما كانت هذه الحضارة . وأنت يجب أن تعطي المثل الأعلى على فائدة العلم
في البحث عن المجهول . والله يباركك ويبارك لك ! ..

وكان يعلم أن هذا بالضبط هو ما يدور في خياله .. وقد شغله ذلك عن
الدنيا كلها . لقد روى كوك في إحدى رحلاته لجماعة من البحارة وهو في
وسط المحيط الهادى : لقد كنت أفكر في أن أتزوج عند عودى إلى إنجلترا ..
ولكن المصحك إنى متزوج بالفعل . وكنت نسيت ذلك !

لقد تزوج كوك سنة ١٧٦٢ وعاشت زوجته بعد وفاته خمسين عاما .
وأنجبت له ستة من الأولاد . ثلاثة ماتوا وهم أطفال .. والثلاثة الآخرون
ماتوا في يوم واحد في سنة ١٧٩١ . ولأسباب غير معروفة !
وكانت وفاة أبنائه تصديقا لنبوءة قيلت له .

يقول في مذكراته : قال لى أحد العراقيين : « سنضع رجلك على أرض لم
يلمسها أحد من قبلك .. ولن يلمسها أحد من أولادك أو أحفادك ! »

وبعدھا اقسام
الاینام علی سریرہ !

يسمونه : السيد المحترم - بناء على طلبه ! .

ولكن من الناحية القانونية يجب أن يقولوا له : يا سيادة الكلورد .

واختلف الثامن في أمره : هل هو مجنون ؟ . هل هو مجنون أحيانا ، ألكو هو عبقرى ! ..

مثلا : إذا انفتح الشباك فجأة وكانت رياح الشتاء تدفع الثلج إلى داخل البيت . فما الذى يفعله أى إنسان عاقل ؟ الجواب : أن يقفل النافذة بسرعة ، وقبل أن يقفل النافذة يغطي صدره . وأن يضع على وجهه وكفبه مزيدا من الملابس الثقيلة .. أو يهرب إلى غرفة أخرى .. أو ينادى لبعض الخدم ليفعلوا له النافذة .. كل هذا ممكن . ويبدو معقولا ..

ولكن ، السيد المحترم ، يفعل شيئا آخر . أنه يخرج إلى الشارع ، وينظر إلى أعلى لإحدى الكنائس ويقول : مضبوط .. فعلا .. إتجاه الريح من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى .. وسرعتها حوالى ثلاثين ميلا .. ودرجة الحرارة تحت الصفر بأربع درجات ! ..

هذا السيد المحترم اسمه تشارلز واترتون .. من أسرة إنجليزية عريقة أجداده قد جاءت أعمامهم فى مسرحية ، رينشارد الثانى ، للشاعر الكبير شكسبير وهذا شرف عظيم ، وإن كان السيد المحترم لا يرى ذلك . فقد جاءت فى مسرحيات شكسبير أسماء لصوص ومجانين أيضا !

ولكن كل من يعرف هذا الرجل الذى ولد سنة ١٧٨٢ يقول أنه على درجة غير عادية من الذكاء ، ودرجة جنونية من الشجاعة ، ولكن من

المستحيل أن يكون مجرما ، إنه فقط يريد أن يعرف ، ولا خوف عليه .
إنه ينزل الماء في الظلام ليرى إن كانت هناك عفاريت حقا ، ويدخل البيوت
المهجورة ويمتد في أحد الأركان .. ثم يخرج ليقول لأهله : ولكن لم أجد
أرواحا شريرة ! ويسألونه : أين ؟ ويكون جوابه : في البيت المهجور ..

ويغشى على الأب والأم معا !

ولأسباب غير واضحة رفضت الأسرة أن تتحول من الديانة الكاثوليكية
إلى الديانة البروتستانتية ، وهذه مخاطرة لأن الذي يرفض هذا التحول الكبير
يدفع ضرائب مضاعفة ، وبدفع تعويضا عن عدم ذهابه إلى الكنيسة ..
ثم أنه ممنوع من دخول الجامعة ، وممنوع من دخول البرلمان .. ولا يكون
قاضيا ولذلك قرر الأب أن يبحث بانيه إلى أمريكا .. هناك بعيدا في مستعمرة
غيانا البريطانية ، فقد كانت الأب مزارع لبن وقصب السكر والقطن
وبها ألف من العبيد ..

ويقول السيد المحترم في كتابه الذي عنوانه « جولات في كل مكان »
إنني أفضل أن أدخل النار مع قديس كاثوليكي على أن أدخل الجنة مع جلالة
الملك البروتستانتي !

وقبل أن يسافر السيد المحترم إلى أمريكا قالت له أمه : طبعاً أنت لست
في حاجة إلى نصيحة ، فقال : بل في حاجة إلى رضاك أكثر . قالت الأم :
حاول أن تكون ناعما ولا تنس أن كل الناس خلقهم الله .. اللون لا يهم !

وقد كان السيد المحترم عند حسن ظن الأم . فقد كان محبا لهؤلاء المهنود
الحمراء .. ولهؤلاء السود . وفي كتابه يقول : « إلى أستطيع أن أنام عاريا تماما ،
وأنا آمن على نفسي .. لن يقترب مني أحد .. فكل الناس هنا يعرفون أنني
صديق الجميع » وأنتى في صلواتي تمنيت كثيرا أن أكون أسود .. فهذا اللون
الأبيض يجعلني أتحلل من نفسي كثيرا ، مع أنني لست مشغولا عنه ..

إنه يفعلنى أحسن بأننى كاذب .. فإذا قلت لفتاة سوداء إننى أحبك . فإنها تبالح فى قيمة هذه العبرة وفى نفس الوقت لا تصدقنى .. وهذا يعذبنى كثيرا .. والله وحده يعلم أننى حترت على غفلة سمراء تخليت أن أتزوجها ، ولكن الثعابين سبقتنى إليها .. إننى أطلب من الله أن يعطينى العمر لكى أعلم كل هذه الثعابين أن تندم على أنها قتلت الإنسانية الوحيدة التى أحبتها ! .

ولم يحاول السيد المحترم أن يكون أوروبيا وسط السود أو الملونين ، وإنما قرر أن يكون مثلهم .. سار عارى الصدر حافى القدمين ، واقترحم الغابات على حدود غيانا ، أمى على حدود البرازيل ، وهى مناطق موبوءة بالملايا ، وكان من عادته أن ينسلى إلى الغابات أثناء هطول الأمطار .. وكان الرجال وراءه يحملون الزوارق الصغيرة والحبال . وكان من الصعب عليه أن يفرق بين الأنهار والمستنقعات .

وكانت له عادة غريبة .. فإذا علم أن الحاكم البريطانى قد سمع بعض الهنود فإنه ينسلى فى الليل إلى السجى ويطلق سراحهم .. بل إن أحد المجرمين قد شجعه على الهرب .. وعندما أعلن الحاكم البريطانى عن مكافأة مالية لمن يعثر على أحد المجرمين حيا أو ميتا . ذهب السيد المحترم يطالب بتعصبيه من المكافأة ..

ولما قال له الحاكم البريطانى : أين هو ؟ ..

قال : فى بيتى ..

وسأله : لماذا لم تأت به ؟

أجاب : بل أريدك أن تذهب لتراه .. وتؤكد بنفسك ، قبل أن أشجعه على الهرب ! ..

وكان الحاكم البريطانى هو الآخر مجنونا ، فما كان منه إلا أن قال :

أيها السيد المحترم إننى معجب بك .. فلتشرب في صحة إستقارتنا للقانون
الإنجليزى ! ..

وذهب الإثنين : وركب الحاكم البريطانى على حصان .. والمجرم على
حصان آخر . وساعد المجرم على أن يركب أحد الزوارق . هربا من الحكم
البريطانى - أى شجعه على أن يهرب منه !!! ..

أما السيد المحترم فبريد أن يخترق غابات البرازيل ليجمع عينات نادرة
من الطيور ، ولذلك حمل معه عددا كبيرا من الشباك والأقفاص . وكان
يتسلق الأشجار عند الفجر أو عند الغروب . وقد اختاره الهنود الحمر أيضا
لأنه كان أبرع منهم في تعلق الأشجار .

ولست الطيور فقط هى التى دفعت إلى القيام برحلته المجنونة عربا
حافيا وإنما كان يبحث عن سم نباتى اسمه : كورارا . هذا السم كان يستخدمه
الهنود الحمر في السهام والنبال ، فهم يصنعون هذا السم في مقدمة السهام
والنبال ، فإذا أطلقوا هذه الأسلحة على أعدائهم قتلهم .. ولم يعرف السيد
المحترم أن هذه المادة التى كان يبحث عنها قد أصبحت بعد ذلك من أهم
عناصر التخدير في الطب ، فلا غنى عنها في كل العمليات الجراحية : ولا في
العلاج الكيميائى للمصابين بالهبوط النفسى وانفصام الشخصية وأهم أعراض
الإصابة بهذا السم : الشلل الحركى .. والرائحة في العضلات .. والحيوان
الذى يصاب بهذا السم اثباتى : لا يكون صامتا !

وكان مما يشغل السيد المحترم أيضا أن يبحث عن : ترياق ، أو عن
شفاء لهذا السم ، وكان يعتقد أن هؤلاء البدائيين هم وحدهم الذين يملكون
سر هذا السحر 1 .

وما يزال عازيا حافيا : وفي الليل يتام على سرير معلق بين الأشجار ..
ويجعل فوقه ملاحة حمراء .. لوقايته من ماء المطر . وفي الصباح يقفز كالفرس
ويصرخ فينهض الزوج ويبدأ يومه الجديد حافيا عازيا ..

وأشوأ ما فى هذا السيد المحترم أنه كان يتولى علاج نفسه بنفسه ، إذا أصابه الصداع ابتلع بعض الأعشاب المائية . أو وضع أصبعه فى فمه وأفرغ ما فى جوفه ، وإذا أصابه الحمى : أتى يسكين وأسال دمه من يده ... منتهى القسوة على نفسه !

وبعد أن جمع عينات كثيرة من الطيور ، وأطلق عليها ما يشاء من الأسماء ، ووصفها بأسلوبه الأدبى الجميل ، قرر أن يبدأ الرحلة المجهنة وفى نفس اللحظة التى اتخذ فيها هذا القرار التاريخى كان نابليون فى أوروبا قد قرر غزو روسيا فى أبريل سنة ١٨١٢ .. أما السيد المحترم فقد خرج من مدينة « جورج تاون » واتجه إلى أعماق الغابات العذراء التى لم نعرف رجلا أبيض بعد ، والسيد المحترم يصف هذه الغابات بألوانها وعطورها وأصواتها ووصفها فى لوحات شاعرية فائقة فهو يسجل على الورق صيحات وبكاء وعويل وهمسات وزغاريذ وفصيحها ، وفطرات الماء والنباتات المطر ، وأنين الطيور ، وتقيق الضفادع .. وصوت حيوانات تلك ، وحيوانات تنفس لآخر مرة .. أنه الموت والحياة ، الرعب والغموض وملايين علامات الإستفهام بعدد الأشجار ، وإصرار إنسانى على أن يعرف مهما كان الثمن .

وفى الغابة اشترى من الهنود الحمر هذا السم .. وكان يضعه فى كرات من الشمع ، ولكنى بتأكد من مفعول هذا السم : اشترى كلبا ، وأصابه بسهم مسوم .. فسقط الكلب بعد لحظات على الأرض .. يعوى .. ثم ينام على جانب واحد .. ويضع رأسه بين رجلبيه .. ثم يستلم بلا حركة ! .. ولم يكن الحصول على هذا السم سهلا ..

فالهنود ينظرون إلى السم على أنه أحد الطلاسم : ولايد من إقامة الصلوات والدعوات والرقص والتبلى أثناء تحضير هذا السم : والساحر الذى يتولى تحضير السم يجب ألا يقرب امرأة . ولا يأكل فى نفس اليوم ولا يكلمه أحد ، والإناء الذى يصنع فيه السم لا يستعمل بعد ذلك ..

وهذا السم يستحضره من نبات اسمه « ستريكوس نوكتيفرا » ويضيفون
إليه الفلفل الهندى وأنياب الثعابين ويسحقونها معا ، ثم يضعونها فى ماء بقل
ولا يزال الماء بقل ويتغير حتى تنفى فى الإناء مادة كالمعجينة .. والسيد
المحترم لا يعرفكم أذى من خطرات جليلة إلى صناعة العقاقير عندما وصف
استحضار هذه المادة السامة .. فقد استخدمها أوروبا بعد ذلك بنفس
الطريقة ١ .

ومن ملاحظات السيد المحترم أن بعض الذين يشتغلون بتحضير السموم
يعرضون .. ويصابون بالتحافة حتى الموت ! ولذلك فالدئ يقوم بتحضير
السم رجل كبير فى السن ، حتى إذا مات لم يكن خسارة كبيرة على القبيلة !
فلذا لم يكن فى القبيلة رجل كبير فى السن جامعا برجل مريض ، وإذا لم يكن
هناك رجل مريض هاجموا القبائل المعادية وأسروا واحدا وحكموا عليه
أن يتولى إعداد السموم حتى الموت !

وعندما وصل السيد المحترم إلى حدود البرازيل : قرر أن يدخلها نهارا
وهنا استوقفه رجال الحدود وكانت التعليلات تمنع دخوله الغرباء ولكن التعليلات
لا تقول إن كانوا يمتنعون الغرباء إذا كانوا مرضى ، وإذا كانوا من الإنجليز .. وكان
السيد المحترم مريضا . ومرضه هو الملاريا لثالث مرة . وفى هذه المرة عاجله
رجال الحدود وهم من البرتغاليين وكان العلاج مختلفا حديثا ، وشفى السيد
المحترم وقرر العودة إلى المستعمرة البريطانية .

وفى طريق العودة رأى شيئا غريبا .. عصفورا صغيرا يعلو فوق الأشجار
الصغيرة ، ثم ينقض تحت أوراقها .. ثم يبرز مرة أخرى .. وألقى عليه شبكة ..
وفوجئ بأن هذا الشئ الصغير ليس إلا رأس ثعبان اسمه البرجرس ..

وكانت للسيد المحترم طريقة عجيبة فى صيد الثعابين .. أنه يقرب منها ..
ويسرعة ينفض على عنقها .. أى تحت رأسها بثقل ثم يمسكها .. ويرفعها إلى
أعلى ويضعها فى صنتوق .. وقد جمع عددا كبيرا منها ونقلها إلى بريطانيا .
أما الثعابين الكبيرة فإنه يلقى بيده ورجله عليها فى وقت واحد .. (وفى هذه

اللحظة أحسست شيئا ناعما عند قدمي .. فقفزت .. ولم تكن سوى القطعة الصغيرة (وفي إحدى المرات رأى شعبانا من فصيلة البواء طوله ستة أمتار .. وأمسكه من عنقه والتف حوله الشعبان يحاول أن يمتصه .. ولكنه لم يستطع .. وسارع الرجال من حوله وأطاحوا برأس الشعبان !

ويقال أن أنثى الشعبان المسمى أناكوندا إذا قتل زوجها ، فإنها تظل تبحث عن القاتل حتى تنتقم منه .. ولم يصدق السيد المحترم ذلك . وفي إحدى الليالي بعد أن قتل ذكر أناكوندا . أصيب رجاله بفزع ، فهم يعرفون ما سوف يحدث .. ومضت ليلة .. وعشر ليالٍ ولم يحدث شيء ولكن الرعب ما يزال يسيطر على الرجال .. وبعد أسبوعين اعترف له أحد الرجال بأنه ما يزال يتوقع أنثى الأناكوندا بين لحظة وأخرى .. وليس أمامهم إلا أن يتجهوا إلى البحر ليركبوا الزوارق ، لأن هذه الحية لا تستطيع أن تسبح في ماء المحيط .. وشعر السيد المحترم بالحوك : منذ رأى إيمان الرجال بذلك وخوفهم الواضح .. ولكنه فكر في حيلة .. فقد خلع ملابسه وألقى بها أثناء الليل على واحد من رجاله : ونام عاريا تماما على سريره المعلق .. وظل ساهرا طول الليل .. وعند الفجر أغنى قليلا ليقفز من سريره على صراخ أحد الرجال .. لقد هجمت عليه أنثى الأناكوندا وعضته في ساقه .. وظلت واقفة إلى جواره .. وما هي إلا لحظات حتى مات الرجل .

إن هذه الحية قد سارت وراءهم أكثر من عشرين يوما .. ولم تحاول أن تهرب بعد أن تأكدت من وفاته ، وإنما ظلت واقفة على بطنها حتى قتلوها كأنما أرادت أن تموت بعد أن انتقمت ، وبسهولة ماتت .. ولاحظوا أن هذه الحية بها جروح كثيرة وأنها فقدت عينيها !!

وعندما عاد السيد المحترم إلى أوروبا - جعل طريقه إلى إيطاليا ، وفي روما وجدهم يركبون واجهة كنيسة القديس بطرس ، وأصيب الناس بدعر عندما وجدوه يخالع معظم ملابسه .. وحذاءه وجوريه .. وينسلق واجهة

الكنيسة . ثم يضع قبعته على علامة اتجاه الريح .. وأندعش الناس . وقالوا :
محمود . وصرخ فيهم : لم أذق الخمر في حياتي . قالوا : انزل ..

وبسرعة نزل . وقالوا : ليس من الأدب أن تضع قبعتك .. اصعد !

وصعد فوق الكنيسة كأنه فرد أو ثعبان . وأتى بالقبعة وأرسل ملاءمه
وتسأل الناس من يكون .. وفي الزحام اخذني . واتجه إلى الشاطئ وعاد إلى
بريطانيا ..

وفجأة اتخذ قرارا : أن يتزوج . وكان في الأربعين من عمره ، تزوج
فتاة في السابعة عشرة ، وعندما أنجبت له طفله الوحيد ماتت .. وعاش بعدها
٤٣ عاما ..

وعند وفاة زوجته وقف إلى جوارها يقول : أعدك .. لا زواج بعدك ..
ولأنوم على السرير !

وظل ينام على الأرض . ويضع رأسه على جذع شجرة مجوفة ، ويتغطى
ببساط زوجته . أما حياته فكانت نوعا عجيبا من الزهد : فهو يأكل النباتات
والفطر ولا يشرب الخمر أو المحنوم ولا يدخن ولا يذهب إلى الكنيسة .

وقبل وفاته بأيام قال لخادمه : المكان الذي نحدني فيه ميتا أرجو أن أدفن
فيه !

وذهب السيد المحترم يتسلى على شاطئ إحدى البحيرات التي تقع في
أرضه الواسعة ، وفجأة رأى عصفورا غريبا لم يره من قبل ، وتسلى إحدى
الأشجار . وكان قد اقترب من الثالثة والثلاثين من عمره .. وسقط من فوق
الشجرة .. وتدمرج تحتها .. حتى وصل إلى شاطئ البحيرة .. وهناك أقام
قبره ، وتنفيذاً لرصيته نقشوا هذه العبارة :

« عشت وحيداً ، وميت أكثر وحدة ! »

الأفندية الأربعة
والشيخ في باريس!

أستطيع أن أعرف بالضبط هذا الذهول الذى أصاب الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى عندما انتقل من الصعيد إلى باريس . ومن فضل الله عليه أنه رأى الإسكندرية . فقد قبل له أن الإسكندرية تشبه أوروبا : وفيها خواجات وأناس يتكلمون لغات أخرى غير العربية ..

فأنا أيضا انتقلت من المتصورة إلى باريس ولندن قبل أن أشاهد مدينة الإسكندرية .. ولكنى كنت أقل ذهولا من الشيخ الطهطاوى لأننى رأيت مدينة القاهرة وعشت فيها وأعرف عددا من اللغات ولكن الشيخ الطهطاوى أزهري صعيدى شامت الصدفة أن نجعله إماما لأربعين طالبا أرسلهم محمد على إلى باريس ، ولم يكن من المفروض أن يتعلم مثلهم ، لأنه ذهب ليعلم بهم ويرشدهم إلى دينهم .

فعندما سمع محمد على أن سفينة حربية فرنسية قد رست في ميناء الإسكندرية خطر له أن يبحث على ظهرها عدداً من الثبان النابيين في العلم وكان ذلك سنة ١٨٢٦ وكان رفاعة الطهطاوى في الخامسة والعشرين من عمره لم تنته دهشته ، ولم يتوقف عن التفكير والتأمل والمقارنة بين ما رأى وبين ما قرأ لاحظ أن الفرنسيين على السفينة في غاية النظافة . فاندعش . لقد قرأ أن النظافة من الإيمان . وهؤلاء ليسوا مؤمنين ؟ ولاحظ أنهم يتسلون السفينة مرات عديدة ، ولاحظ أنهم يغيرون ملابسهم الداخلية مرتين في الأسبوع ، وفسر ذلك بأن هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء على « الراجش » .

وكتب رفاعة الطهطاوى رحلته إلى فرنسا التي استغرقت خمس سنوات في

كتاب اسمه « تلخيص الأبريز في تلخيص باريز » ، وفي الكتاب صفحات مسجوعة على طريقة الكتاب في ذلك العصر : ولكن فيه كثيراً من النور والدكاء والوطنية يقول الطهطاوى بعد أن خرجت سفينة من الإسكندرية إلى عرض البحر : عصفت الرياح ونموج ماء البحر وتلاعبت بذات الألواح تلاعب الأشباح بالأرواح ، فلأزم أكثرنا الأرض ، وتوسلنا بالشفيع يوم المعرض .

ومضت سفينة حتى اقتربت من الشواطئ الإيطالية .. وكان ممنوعاً عليهم أن ينزلوا ، فهناك فيود الحجر الصحي ، ولذلك كانوا إذا أرادوا شراء شيء أو دعوا الملموس في علب بها نخل حتى لا تنتقل العدوى . ومن السفينة رأى فتيات إيطاليات جميلات ، وفي ذلك يقول :

أصبو إلى كل ذى جمال ولست من صبورى أخاف
وليس لي من الهوى أزياب وإنما شيمى العفاف

وله شعر آخر متواضع :

قد قلت لما بدا الكاس في يده وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبى نראה طرفي في محاسنه ونشوقى من معالى صعر عييه

وكتاب الشيخ رفاعة الطهطاوى مليء بالملاحظات الدقيقة عن المرأة والرجل وملابس المرأة وعاداتها وخلعتها ، وإعجابه بها ، واحتقاره لتساهل الرجال مع المرأة ، ولكنه لم يغمض عينه عنها .

وقطعت السفينة هذه الرحلة من الإسكندرية إلى مرسيليا في ٣٣ يوماً

وفي ميناء مرسيليا كان لابد من الحجر الصحي ، ودارت مناقشة على السفينة : هل الحجر الصحي حرام أم حلال ؟

قال بعضهم : حرام .. لأن معناه أن يتدخل الإنسان في إرادة الله ..
فلماذا كان الله أراد أن يموتوا جميعا ، فلماذا يعطلون مشيئة الله .
ومن رأى الشيخ الطهطاوى أنه ليس حراما !

وفى مرسلها تلقى الشيخ رقاعة الطهطاوى الحضارة القرية دفعة واحدة
فهو يروى أن البيوت لها جدران مقطعة بالورق ، وليست مبيضة بالجير .
ورأى الناس لا يأكلون على الأرض ، وإنما يضعون أمامهم طبلية — أى تربة
— عالية ويجلس كل واحد على مفعد .. وأعجب من ذلك أنهم يأثون بالطبخ
في إناء واحد كبير وأمام كل واحد طبق .. وأعجب من هذا كله أن كل واحد
له شوكه وملعقة وسكينه .. وكل واحد له كوب خاص يشرب فيه ولا يصح
أن يشرب الإنسان من كوب غيره .. ولا يمسك شيئا بيده وينقله إلى فمه ..
وإنما بالشوكه والملعقة !

ولا يضعون حلل النحاس المبيضة على الطبلية ، وإنما الحلل يطبخون
فيها فقط ..

وأعجب من ذلك أنهم ينامون على شيء مرتفع .. سرير أو أى شيء آخر
ولا ينامون على الأرض !

أما التهاوى فهى ليست للخرافيش ، وإنما هى لأرباب الحشمة ،
أما الفقراء فيدخلون « المقاهى الصغيرة والمحاشيش » ..

ويلاحظ أن الشيخ رقاعة أن النساء يبعن في الدكاكين ، أما الرجال فلم
أعمال أخرى أهم وأعتف ، فالتهوجية امرأة جالسة ، وقدامها دواة وريشة
وتكتب وتقطع ورقة صغيرة فيها الفن وتبعثها مع الجرسون . والعادة أن الإنسان
إذا شرب القهوة أحضرها له السكر .

وفى اليوم الذى قرر أن يدخل فيه المذهب أحسن كأنه في ميدان واسع
جداً والناس يذهبون ويحيثون .. واكتشف بعد ذلك أن هذا الذى يراه ليس

ميداناً ، وإنما هي المرايا في كل جوانب المقيى ، فالذى أدهش الشيخ أن
المرايا الفرنسية تعكس صور الناس كما هي ، وليست كالمرايا في مصر ففى
تجعل الإنسان بكروش : أو تجعله أعوج !

أما الميادين في باريس فكثيرة ، وهى تشبه الميادين في القاهرة في الاتساع
لا في القذارة ١ .

شئ آخر أدهش له الشيخ رفاعة عندما وجد أشجار النخيل : فقد
قرأ في كتاب القزوينى المعروف باسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »
إن النخلة شجرة مباركة عجيبة : ومن عجائبها أنها لا تنبت إلا في بلاد
الإسلام ١ ..

وكثير من الحقائق الثابتة بدأ الشيخ يشك فيها ، ويصحح معلوماته
ويلفت الناس جميعاً إلى أن يغيروا من أفكارهم وآرائهم ، ففى فرنسا علوم
وفنون وفلسفة : صحيح أن بعض الفرنسيين يرون أن المفكرين أعظم من الأنبياء
والعباد بالله - ولكن هذا لا يمنع أبداً أن عندهم مفكرين عظاماً من مثل :
روسو ومونتسكيو . وغيرها ..

وعندما ينظر إلى نهر السين . يجد أن نهر النيل أوسع ومياهه أعظم ويقول :
« شتان بين هذا وبين النيل فمنطقة الروضة والمقابس أجمل ، ونزهة فى الروضة
لا تفارق بشئ ! » .

والناس في باريس يقرأون الصحف والمجلات والكتب ، كل الناس ،
ويناقشون فى كثير من القضايا الفكرية والنساء أيضاً ، وهم مجاملون بالأحوال
لا بالأفعال ، وهم بخلاء .

وهم أقل غيرة على نساءهم من العرب .. فالرجل يترك زوجته ترقص
مع رجل آخر ، بل أنه يعلم أن زوجته قد ذهبت إلى إحدى الحدائق ، وتعرفت

على رجل آخر ، ولا يغضب .. بل إن الأجازات السنوية تسافر فيها الزوجة مع رجل آخر .. والرجل المسافر مع امرأة أخرى .. وكثيرا ما سافرت المرأة بعيدا في الربيع بعض الوقت لأنها حامل ، وهناك نلد ونترك طفلها لأسرة أخرى تربيته .

ويذكر الشيخ رفاعه أن بعض ملوك فرنسا وانجلترا لهم زوجات فاسدات وعلى الرغم من أنهم على يقين من انحلال الزوجات ، فإن القضاء لم يحكم ضدهم لعدم توافر الأدلة ، فيظل الملك وزوجته منفصلين مدى الحياة !

فالمرأة الفرنسية لا تنقصها النقاة ولكن تنقصها الأخلاق ، والمثل الفرنسي يقول : إذا رفضت المرأة ، فليس ذلك دليلا على أخلاقها ، وإنما على تجاربها .

والناس يعملون ليلا ونهارا ، الكل يعمل ، ولا بد أن الفرنسيين يؤمنون بالمثل القائل : الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما !

ولكن الشيخ رفاعه لا يرفع عينيه عن المرأة الفرنسية ، ولا يشيع من النظر إلى ملابسها ووجهها ، فالمرأة الفرنسية عرت صدرها وصرت ساقها ، والمرأة تضع عند صدرها عوداً من الحديد من الخصر إلى العنق ليشد قوامها ..

ومن الغريب أن الناس في باريس لا يجزون في بيوتهم ، وإنما هناك مجازر . والحيوانات يذبحونها بالسكين أو يكسرون رؤوسها أو يخنقونها ، يقول الشيخ رفاعه أنه أرسل خادمه لبشري لحما ، فلما رأهم يذبحون الثيران أصيب بالرعب ، وجاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث أنه لم يجعله ثورا في بلاد الأفرنج ، وإلا لذاق العذاب كالثيران التي رأها .

ويقول أنه كان يمشي في الشارع فطارده فرنسي مخمور وقال له : يا تركي أنت تركي ! وتوقف الشيخ رفاعه ، ثم صعب الرجل إلى أحد البارات وقال لصاحب البار : يكمن تشري هذا الرجل ؟ ورد عليه صاحب البار : إننا

لا تبيع الناس ونشرها كما تفعلون في بلادكم . وكان رد الشيخ رفاعه : وهو
مكرمان هكذا ليس من الناس !

ثم ترك الرجل وعاد إلى الطريق .. ورأى الناس يستخدمون الباروكة :
الرجال والنساء : ثم لاحظ أنهم في مصر يفعلون ذلك أيضا — ولم يعرف
الشيخ رفاعه أن حشيشوت كانت أول من وضع الباروكة على رأسها وأول
من وضعت حية رجل أيضا ومن ألوف السنين !

وانهر الشيخ رفاعه الطهطاوى لرؤية المسارح وظهور الناس وعرضهم
للمواعظ الأخلاقية والأدبية وعندما ينزل الستار كان يقرأ عليه هذه العبارة :
التحليل يصلح أخلاق الناس | .

وأعجبته الحمامات الشعبية في باريس . فكل إنسان له حمام خاص
يفته وبين الحمام المجاور ستار ، فلا يسمح أن يرى الإنسان عورة أخيه ، كما في
الحمامات العمومية في مصر .

ونحنى الشيخ رفاعه أن يجد في مصر هذا الاختراع اللطيف .. يقول :
أنهم يضعون دنا عظميا ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدنا
بزابيز ، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال
العجلات ماثبة مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة في نحو ربع ساعة ، لا يمكن
رشها بجملة من رجال في أقل من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فقصرتنا أولى
بهذا الغلبة حرها .

هل عرفت هذا الاختراع ؟ .. انه عربة الرش ١ ..

ولما عاد الشيخ رفاعه طبع كتابه هذا مرة أخرى وأضاف إلى ما كتبه
عبارة أخرى تقول : قد صار الآن جل ذلك بمصر ٢ — أى قد تحقق ذلك
في مصر .

والتفت الشيخ إلى الشوارع ونظام رصفها . وإلى المزارع وتلسيق أشجارها وأزهارها .

وأعجبه الدستور الفرنسي الذى يقول فى أولى موادہ : أن الناس جميعا متساوون أمام القانون . يقول : المادة الأولى : سائر الفرنسيات مستوون قدام الشريعة ، ومعناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإن لها قسطا عظيما على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر القدير بأنه كالعظيم نظرا إلى إجراء الأحكام .

وتحدث الشيخ رفاعة عن اللغة الفرنسية ومبادئ النحو والصرف والبلاغة وعن الهندسة والجغرافيا .. ثم عرض أسماء الكتب التى درسها ، وما الذى استفاده منها .. وحاول - على عادة الأدباء فى ذلك الوقت - أن يذكر أبيات الشعر التى تناسب مع الموقف . وهذه الأبيات عموما لا تناسب الموقف ولا ضرورة لها ولكنه أسلوب العصر !

وكان يشرف على هذه البعثة المستشرق الفرنسي جومار ، وهو أحد علماء الحفلة الفرنسية ، والمستول الأول عن إصدار ذلك الكتاب الموصوفى الرائع الذى عنوانه « وصف مصر » وفى هذا الكتاب مسح اجتماعى وإنسانى وجغرافى وتاريخى لكل مصر ، من جميع نواحيها وما فيها من إنسان وحوان ونبات وحيال ووديان ومدن وقرى . ولا ينسى الشيخ رفاعة تلك اللوحات الفنية لأنها (لا تغتاز عن الإنسان إلا بعدم النطق) .

وكان من عادة محمد على أن يبعث إلى أعضاء البعثة برسائل يسألهم عن حالهم ، ويعلق على التقارير التى وصلت إليه ، ويبدو أن بعض هذه

التقارير لم تعجبه ، فأرسل إليهم يقول باللغة التركية وهذه هي ترجمة الشيخ
رفاعة الطهطاوى :

« قوة الأمثال الكرام (الأندية) في باريس لتحصيل العلوم والفنون
زيد قدرهم .

« ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهيرة والجداول المكتوب فيها
مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتعلة على شغلكم ثلاثة أشهر مبينة
لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المرة وما فهمنا منها شيئا ، وأنتم في مدينة
مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون ، قتيلا على شغلكم في هذه
المدة عرفنا غيرتكم وتحصيلكم وهذا الأمر غمنا كثيرا فيا أندية ما هو مأمولنا
منكم ، فكان ينبغي بهذا الوقت ، أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار
شغله وآثار مهارته فإذا لم تغيروا هذه العلاقة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة
وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظنتم أنكم تعلمون العلوم والفنون فإن
ظنكم باطل فعندنا والله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون كمال العلوم والفنون
فينبى للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة
وأن يحى ثمرة تعب . فبناء على ذلك أنكم أغفلتم عن اغتنام الفرصة ، وفرتم
أنفسكم للسفاهة ، ولم تفكروا في المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ،
ولم تجهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا إليكم ، فميزوا بين أمثالكم فإن أردتم
أن تكتسبوا رضانا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل
لعلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداء وانتهاء كل شهر .
وبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه في
خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما تعلمه في هذا الشهر زيادة
على الشهر السابق : وإن قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه وما هو
عدم إعتنائكم ، أو من تشويشكم وأى تشويش لكم هل هو طيمى أو حارص
وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم ،

وهذا مطلوبنا منكم : فاقروا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه
الإرادة ..

« قد كتب هذا الأمر في ديوان مصر في مجلسنا في اسكندرية بمكة تعالى :
فني وصلكم أمراً فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتخاشوا عن خلافه . انتهت صورة
المكتوب » .

وأصبح من الواجب على كل طالب بعثة أن يرسل إلى الوالي محمد علي
خطاباً يشرح فيه العلوم التي حصلها .

ثم يجي المدرسون واحداً واحداً ويطلقون على ذلك ، ولما لاحظ المسيو
جومار أن بعض المبعوثين قد تكامل كتب يقول له :

« .. من المعلوم أن هذه الأوراق الشهيرة لا تأخذ في كتابتها إلا نصف
ساعة : لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التي قرأتها ومعرفة نوعها
والإتيان على اجتهدك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك : فاطلب منك أن تواظب
على توفية الحقوق التي كلفت بها : واعلم وتغن بمحبتي لك .. » .

وفي آخر كتابه « تخلص الأبريز في تلخيص باريز » يقول رفاعة الطهطاوي
عن المرأة المصرية : إن وقوع الخبيطة - الاختلاط - بالنسبة لعفة النساء
لا يأتي من كشفهن (سترهن) ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والتحسنة
والاعتود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك في المحبة والإلتزام بين الزوجين
وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولي على قلوب النساء المنسويات إلى
المرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرياح . فساء هاتين المرتبتين
عندهم الشبهة كثيراً ، ويهن في الغالب » .

وكان رفاعة الطهطاوي أول مترجم مصري .. أو رائد المترجمين ومديراً

لمدرسة الألسن . وقد ترجم موضوعات كثيرة علمية ، وأشار إلى فرنسا وإلى الحضارة الغربية . ودعا لها وتحمس وكانت عينه على فرنسا ، وقلبه على مصر .

وإذا كان المؤرخ الإنجليزي الكبير توينبي قد اعتبر المؤرخ الجليلي أعظم مؤرخ في كل العصور لأنه أبهر بحضارة فرنسا ولكنه لم يرض عن احتلال الفرنسيين لمصر . فإن رفاعة الضحطاوي هو أكثر طلبة البعثات نبوغا ونبلا .. فقد بهرته فرنسا بناسها وشوارعها ومستورها وعلمها ولكنه كان يصرخ دائما : في استطاعتنا أن نكون كذلك ، لو تحركت أيدينا في نور عيوننا وعلى هدى عقولنا !

ثم حملوه ...
على الأكتاف تسعة شهور

على قبره نقشت هذه العبارة التي تدل عليه :

« أمضى ثلاثين عاماً من حياته في تعب لا نهاية له ، لهداية هؤلاء
البدائيين ، ولتكشف أسرار هذه الغابات والبحيرات وللقضاء على تجارة
الرقيق الرهيبة ، في قلب أفريقيا السوداء »

وإنما تدل عليه هذه الحادثة المخيفة . . فقد كان يمشي مهموماً مهدوداً
محطماً مع عدد من أبناء أفريقيا الذين يحملون أمتعته عندما ظهر أسد من بعيد .
وفكر في الأسد طويلاً . وهو يعرف أنه إذا استطاع أن يقتل ولو أسداً واحداً
حرث بقية الأسود . . واقترب وأطلق رصاصتين في وقت واحد . . أصابت
الأسد ولكنه ظل واقفاً . اقترب أكثر . . ورجاله أيضاً . ورفع بندقيته يسدها
إلى رأس الأسد وفجأة ففز الأسد عليه . وأسقطه على الأرض .

ويصف هذه اللحظة الطويلة في مذكراته فيقول : « أعرف كيف أسمى
هذا الشعور . . هل هو نوع من الحذر . . هل هو نوع من الحلم . . كل
ما أعرفه بوضوح . . هو أنني فقدت كل شعور بالألم أو بالخوف . وإن كنت
أحس بوضوح جداً كل ما حولي . . فالأسد قد وضع قدمه اليسرى على
كتفي . . ورفع رأسه إلى أعلى . . والتفت حوله بقية الرجال . وانطلق عيار
ناري آخر . . وطاشت سهام ورماح . . والآن أستطيع أن أقول أن الذي حدث
في يشبه ما يحدث للمرضى عندما يعطون المخدر . الكلورفورم - فهم يرون
مشهد الطبيب ولكنهم لا يشعرون بالعملية الجراحية . إنها إذن عناية الله
التي شاعت أن تفقد الحيوانات المسكينة شعورها بأي شيء عندما تقع فريسة

لأسد أو نمر . . إنها حالة غريبة خلقها الله حتى لا تشعر هذه الضحايا
بلمحظات الموت .

وبعد لمحظات سقط الأسد ميتاً . . أما ذراع هذا الرجل فقد ظلت
مكسورة . . وعندما حاول أن يضعها في مكانها بمساعدة هؤلاء الرجال
لم يفلح فظلت مصدر تعاسته مدى الحياة !

هذا هو الرجل الذي جمع بين الطب والإيمان . وبين الشجاعة
والاستسلام للتجربة لعله يقدر على كتابتها .

إنه هو الرحالة الإنجليزي دافيد لىنجستون (١٨١٣ - ١٨٧٣) .
ولا شيء في بداية حياة هذا الرجل يدل على نهاية هذه الحياة . .
فهو من أسرة فقيرة جداً . كان أبوه يعمل في أحد محاليج النطن . . وهو
يعمل في دكان بقال . وكان من الضروري أن يتعلم شيئاً ما ، ليصبح قادراً
على كسب قوته . . لا بد أن يكون رجلاً بسرعة . فالطفولة عند الفقراء
نوع من الترف . وهو لم يعرف هذا الترف .

وقد أحس في نفسه ميلاً شديداً إلى القراءة . فقرأ كل الكتب التي
صادفته من كل لون وفي كل موضوع . وفي كثير من الأحيان كان يقرأ
الكتابين والثلاثة في وقت واحد ، لأنه لا يطيق أن يرى كتاباً دون أن يعرف
ما به في اللحظة التي يراه فيها .

وكانت أكثر الكتب التي تشغله هي كتب التاريخ والرحلات . وحياة
الحبوان والنبات . . وعلى الرغم من ذلك انجبه إلى دراسة الدين . . فقد قابله
أحد القساوسة الألمان وقال له : اسمع يا ولدى إذا أردت أن تسافر فلابد
أن تكون قسيساً تبشر بالدين . ومستقبلك في بلاد الصين !

فدرس الدين ليكون قسيساً .

وقابله أحد الأطباء وقال له : إن الفقراء يحتاجون إلى الرغيف والكتاب

المقدس والدواء . . وأنت لا تستطيع أن تطعم كل الناس . . فما لجهم !

ودرس الطب . وفي سنة ١٨٤٠ قرر أن يبدأ عمله ، يقول في مذكراته :
« إنني أصلح لشيء واحد : أن أنشر الإيمان في قلوب هؤلاء الوثنيين . .
أما ما عدا ذلك فأمر سهل . . ولكن أمام هذا الهدف لقد نذرت حياتي » .

ولم يستطع أن يذهب إلى الصين : فقد كانت حرب الأفيون على أشدها
فأبحه إلى أفريقيا ، إلى قلبها . وقرر أن يقطع أفريقيا من الغرب إلى الشرق
ووصل إلى زنبار واستأذن السلطان في أن يحرب حظه في وسط أفريقيا
وأعطاه السلطان خطاب توصية . . واستطاع أول الأمر أن يقطع أفريقيا
من ساحل إلى ساحل . واقترح بعض الناس عليه أن يعود إلى الدوران حول
أفريقيا بالبحر : بدلا من أن يعود في نفس الطريق الشاق : ولكنه رفض . .
فقد وعد هؤلاء الشياطين الذين حشوا وراءه بأن يعيدهم إلى قراهم . وهو
رجل يحترم كلمته ويرعى الله في كل ما يفعله ويقول له .

وبعد هذه الرحلة الاستكشافية عاد إلى لندن . واستقبلته الصحف
والهيئات العلمية بالاحترام وفي ذلك الوقت نشر أول كتيبه بعنوان « رحلات
تبشيرية واكتشافات في جنوب أفريقيا » .

وكلفته الحكومة البريطانية باكتشاف نهر زامبيزي وأن يكتب لها
تقريراً إن كان من الممكن استعمار هذه المنطقة . . واستغرقت هذه الرحلة
خمس سنوات (١٨٥٨ - ١٨٦٣) . واكتشف فيها بعض البحيرات الصغيرة
ولكن هذه الرحلة ضاعفت من تعامته وضعفه بالحياة . فقد ماتت زوجته
وكانت قد صممت على أن ترافقه : قتلها الملاريا . . وأسوأ من ذلك وأقسى
تجارة الرقيق . وما الذي يلقاه هؤلاء البدائيون من عذاب وهوان . .
وأقسم أمام الله أن يفضح هذه التجارة الوحشية أمام العالم كله . وعاد إلى
إنجلترا بعد ذلك بنه الرأي العالمي إلى هذه التجارة التي هي عار على الإنسان !

وعاد إلى أفريقيا . . ثم عاد إلى إنجلترا وفي آخر رحلاته ذهب إلى الهند . وحصل على عدد من الرجال المدربين وعلى ١٢ شاباً . . واتجه مرة أخرى إلى زنجبار . وتحرك إلى أواسط أفريقيا . . وكانت قافلته تتكون من ٣٦ شخصاً وستة من الجمال وأربعة من الحمير وأربع جواميس . وبغليين . . واختار عهد ميلاده ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ ليبدأ فيه آخر رحلة له . ويبدو أن حالته المعنوية كانت في قمها .

فكتب في مذكراته : إن الرحلات تجعل الإنسان وثاقاً من نفسه . وتنشط جسمه . . وتشد ساقبه . . وتذيب الشحم . . وتجعل وجهه مشرقاً وبشرته برؤزية والذي يعرف الرحلات لا يعرف الإمساك أو سوء التغذية . والإنسان لا يعرف طعم الراحة إلا إذا عرف طعم التعب . .

واتجه إلى الغرب . . الغابات خيفة موحشة . الأمطار لا تتوقف . . الوحوش لا تهدأ . ولكن أفسى من الوحوش : البعوض والفيل وذباب نمى نمى . . وكان يشعل النيران حول الليل لتخويف الوحوش . . ومضت القافلة بين قبائل لم تتوقف الحروب بينها من مئات السنين . ولكنه استطاع بحكمته وصبره أن يمرق بينها دون أن يصاب بشئ .

وبعد شهرين أصرب الشبان عن السير معه . . لم يقلع في إقناعهم تركوه ومضى معه أربعة من الرجال فقط . وبدأت متاعبه . فالرجال في غابة القسوة على الحيوانات . والحيوانات تموت في الطريق . فالوحوش هاجمها . . ولم يستطع حمايتها . .

وجاء رأس السنة . . كتب في مذكراته يقول : « اليوم رأس السنة . . ليس عندي ملح ولا مسكر . . إني جائع دائماً . . وأحلم بالخير . . ولأعرف كيف أنام . . وصور الحلم ورائحة الشواء والأكواب النظيفة أراها أمامي وأنا أمشي على قدمي . . كل شئ حول له لون الطعام ورائحته . . إنها حالة من الهديان . . »

وفي يوم ٣٠ يناير من العام الجديد حدثت كارثة . . هرب اثنان من رجاله . . وكان أحدهما يحمل صندوق الأدوية وخصوصاً مادة الكينين الضرورية للحصى . . وأحس لفتجستون أن حكماً بالإعدام قد صدر ضده !

لا طعام ولا دواء . . لراحة . . وإنما إصرار على أن يمضي في طريقه . . لقد قطع أكثر من ٨٠٠ ميل .

وكان إذا تعب من المشي يركب البغل . . وإذا تعب من الركوب حملة رجائه . . واحداً واحداً . . واثنين اثنين . . ووصل إلى جنوب بحيرة تنجانيقا رأها . . وركب الجمل . . ونزل في زورق وراح يتحرك في داخل البحيرة . . ثم عاد إلى الشاطئ أكثر عجزاً . . وكانت الحصى قد عصرت حصى عظمتته . . فظل نائماً في إحدى الخيام ثلاثة أسابيع .

وتحرك من جديد . . أنه يريد أن يعرف من أين ينبع نهر النيل . . لابد أن يصل إلى ذلك . . وفي طريقه قابله بعض التجار العرب وأفهموه أن الحرب اشتعلت من جديد بين بعض القبائل . . ونصحوه بالتوقف شهراً أو شهرين حتى تهيئ الأمطار وتحمد نيران القبائل .

وفي بداية عام ١٨٦٩ رأى أحد الشياطين الذين استأجرهم أن أحد النحور يعلق ذيله الدامي . . فصرخ . . ولما سأله : قال أن هذا يدل على أن أحدا سوف يموت .

وتشاءم لفتجستون فقد تحول إلى حطام إنسان . . والتبته رلته البعني ثم انه سقط فوق ذراعه اليسرى التي مزقتها الأسد . . فانتعشت أوجاعها . . ولولا أن أحد التجار العرب قد عاجله وأعطاه بعض العقاقير والأعشاب العطبية لمات في ساعات !

وخطرت له أن ينجه إلى الشمال ثم إلى الشرق بحثاً عن المدينة التي يقال إن موسى عليه السلام قد أقامها في الحبشة .

وأصيب الرحالة الإنجليزي بما يشبه الجنون : كأنه أحس بنهايته قبل أن يحقق المهمة التي جاء من أجلها . . فكان يسأل الناس : قل لي يا حضرة . . ألم تر بحجرة تخرج منها أربعة أنهار في وقت واحد ؟

وفي هذا الوقت كانت اللومستاريا قد أنهكتها أما قدماء فقد تورموا وأما رثته فلأنها توجعه . . ولذلك يسعل دماً طول الوقت . . وعتلنا أركبوه على حمار سقط . . فحملوه أربعة . . من الرجال . .

ورغم هذا العجز الشديد فإنه كان يكتب مذكراته . . ومن العجيب أنه كان يصف الأزهار النادرة وكان يطلب إلى المرافقين الجدد الذين استأجرهم أن يقطعوا الزهور ويقرّبوها من أنفه ليصف رائحتها ويقارن بين الروائح المختلفة . . وكذلك كان يصف الطيور وحيوانات الغابة .

ويقول في مذكراته : ليس أمامي إلا طريق واحد . . أن أمد يدي إلى هذه القبائل أطلب طعاماً لي ولغيري !

وفي هذه الاثناء جاء محمد حسان - أحد رجاله من العرب - ومن ورائه عبد الحميد . . وقال الأول : يا سيدي . . يا سيدي . . لقد عثرت على رجل أبيض . . إنه يسأل عنك . .

وسأله لفنجستون بالعربية : كيف حاله .

وقال حسان : حاله زين (بالعربية)

قال لفنجستون بالعربية : أي والله . . أي والله . . كيف حاله يا حسان . . ويصف حسان عدد الرجال الذين معه . . وعدد البغال والحمير والمعنونات والأدوات الغريبة التي يحملها . . ومنظره وصحته وملابسه . .

وقال له حسان : إن هذا الرجل الأبيض يسأل عنك ويريد أن يراك . . وفي الصباح التقى الرجلان . . ورأى لفنجستون بوضوح أن هذا الرجل

الأيض الأمريكي . . فاعلم مرفوع في مقبلة القافلة . . واقرب الرجل
الأمريكي ليقل :

أظن أنت الدكتور لفنجلتون .

فقال : نعم أنا مرحباً بك .

وقال الأمريكي : أنا سعيد لرؤيتك . . وأرجو أن تتلقى هذه الأنباء
بسرعة . . فل الشرف العظيم أن أراك . . وما جئت إلا لبحث عنك .

- عني . .

- نعم . . فقد كلفني صاحب جريدة نيويورك هيرالد أن أعتز عليك
بأي ثمن !

- آه . . انني أعرفه .

- لقد انشغل العالم كله عليك . . فقد انقطعت أخبارك منذ سبع سنوات

وانتهت الدهشة . . وقدم الرجل الأمريكي نفسه . . إنه من أصل
إنجليزي ثم تحول إلى الجنسية الأمريكية . . وعمل صحفياً ومراسلاً عسكرياً
في الشرق والغرب . . وقد كلفته صحيفته بأن يقدم المساعدات المادية والأدوية
للرحالة الإنجليزي . . والرجلان مختلفان تماماً : لفنجلتون رجل طيب
عند . . والرجل الأمريكي مورتون ستانلي (١٨٤١ - ١٩٠٤) صنيف
وفي غاية القسوة لحياته أيضاً قاسية . . فهو ابن غير شرعي . . وقد تركته
أمه عند أفارها . . وتكررت له وهرب إلى أمريكا وبتناء أحد الرجال . .
ثم عاد إلى الجنسية البريطانية . . وأصبح عضواً في مجلس العموم . . ورفض
الإنجليز أن يدفونه في مقابر العظماء لأنه أسال الكثير من الدماء في أفريقيا . .
وقد اشتهر هذا الرجل بلقائه العجيب مع لفنجلتون . . ولكن أثره الحقيقي
هو أنه اكتشف الكونغو . . ثم عمل في خدمة ملك بلجيكا !

ولم يكده لفنجستون براه حتى سأله : وما أخبار الدنيا .

فقال له ستانلي : أفضل أن أتركك بعض الوقت لتقرأ رسائل أولادك إليك . تعلمت الصبر وأستطيع أن أترك هذه الرسائل ساعة أو ساعتين . .

هذه أخبار الدنيا . . إن قناة السويس فتحت . . واتصل البحر الأبيض
بالبحر الأحمر . . (نحن الآن في سنة ١٨٧١) . وانقط الحديدى الأمريكى
اكتمل . وجرات أنتير رئيسا لأمريكا . . واحتلّت مصر بالعلماء والخبراء
وانتهت ثورة كريت . . وثورة في إسبانيا أسقطت الملكة إزابيلا من عرشها . .
وبروسيا قد احتلت الدنمارك وتحاصر باريس الآن . . أنهت إمبراطورية
نابليون تحت ضربات المستشار بسمارك والجنرال فون مولتكه . . وفرنسا
الآن تلحق التراب !

وبعد لحظات صمت الرحالة الإنجليزي : عندما رأيت الشياطين يحملون
البانيو والملابس النظيفة . . ظننت أول الأمر أنك رجل قديمى غنى جداً . .
وقررت ألا أتصل بك . . فلا شأن لى بك . .

وهنا نهض ستانلي بسرعة وراح ينادى : يا سليم . . يا عبد الرحمن . .
هات الزجاجة . . لقد أعددت شمبانيا لهذه المناسبة . . وأعددت كتوما
من الفضة . .

وشرب الرجالان . . وجاء الطعام الشهى . . والأدوية والملابس
والفيلوس . . وارتفعت روحه المعنوية . .

ويقول ستانلي في مذكراته الجميلة الفاتنة : جئت أبعث عن « موضوع »
عن سبق مصفى . . ولكن وجدت الإنسان أنه ليس فى حاجة إلى أن يقول . .
وجهه يقول . . شعره يصرخ . . شفناه . . عينا . . هذا الهيكل العظمى معناه

الإصرار رغم المرض والجوع والعزلة في قلب القارة السوداء .. وقلب
الأحراش والمستنقعات ..

حاول ستانلي أن يقنع الرحالة الإنجليزى بالعودة .. ولكنه قال له في
الحقيقة : أريد أن أبحث عن هذه الينابيع التي تحدث عنها المؤرخ هيرودوت ..
لا بد أن هذه الينابيع هي التي يخرج منها نهر النيل !

وترك له ستانلي كميات من الطعام تكفي لسنوات .. وأخذ مع مذكرات
لفنجنستون خطابات إلى أولاده .. وعاد ليكتب قصة الرحالة الغريب الذي
قابلته في أواسط أفريقيا .. وكانت مقالات ستانلي فتايل عالمية .. ولكن
الإنجليز شعروا بالخجل من أن رجلاً أمريكياً هو الذي أخذ لفنجنستون ..
أنقذه من الجوع والمرض والموت ..

وعجز لفنجنستون تماماً عن الحركة .. ولم يفلح العلاج والطعام .. إنه
أحس باغمراب النهاية .. انجعه من جلبد إلى بحيرة تنجانيقا .. ثم اتجه شرقاً
وشمالاً .. وفي الليل ينهض مفزوعاً إلى الغابة ويسأل الأشجار : ألا تعرفين
بحيرة تخرج منها أربعة أنهار !

وكان الرجال سيكون لحاله ..

وفي الليل : كل ليلة ، يحمله راكمأ إلى جوار فراشه ويتحدث إلى الله
وقد أضاع شمعة .. ويقرءون منه .. وعندهما يسمعونهم يتركونه
في صمت .. وفي إحدى المرات وجده راكمأ وقد أمد رأسه إلى
الفراش ..

ولا ينطق .. ولا ينفس .. وفي هذه اللحظة سمعوا صوت طائر متوحش
هذا الطائر يشم رائحة الموتى .. لقد مات لفنجنستون قبل ذلك بساعة
واحدة !

وبسرعة وقف رجاله صفين وراحوا يبيكون . . وبسرعة غريبة . .
تقدم واحد منهم إلى ملابس الفنجستون وخلعها ، وإلى بطنه وفنحه . وأخرج
قلبه ودفنه تحت شجرة !

وتقدم رجل ثالث وقام بفصل الجثمان وتحنيطه ثم لفه بالقماش لفاً
محكماً وأعلن الرجل أنه لا بد أن يعودوا به . . ووافقوا جميعاً . . لا بد أن
يسلموه للقنصل البريطاني على مدى ١٥٠٠ ميل . . ونقلوا جثمانه على رؤوسهم
عبر الغابات والمستنقعات والصحارى والقبائل التي تشاءم من جثث الموتى
والقتلى . . والوحوش التي تشم رائحة الجثث . . حملوا جثمانه تسعة شهور
حق وصلوا إلى زرتبار . . وقد حاول بعض البيض إقناعهم بدفنه في أي
مكان . . ولكن الرجال رفضوا !

ونقل جثمانه بعد ذلك إلى لندن . .

.. وكانت أطول جنازة في التاريخ !

ودفن في مقابر المعظماء يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٧٤ . . وفي جنازته
كان يمشي أربعة : عبد الحميد وسليم والطاهرة حليلة وعبد الرحمن ابن
غالب !

لقد مات هذا الرحالة ولم يكتشف منبع نهر النيل . . ولكنه كان أول
من رسم أواسط أفريقيا . . ورسم أنهارها وبحيراتها . . وأقام مراكز
للتبشير الديني . . وكان أعلى صوت استنكر تجارة الإنسان في الإنسان !

العروس
التي أحببت القطار
حتى الموت !

أنه في يوم الأربعاء ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ . .

الناس خرجوا من بيوتهم . معهم أطفالهم وطلعاتهم وشرابهم وأغطية
كثيفة . وكلابهم وخبوطهم وأغنامهم . ومعهم بعض الكتب . . وأكثرهم
يحمل نسخة من الكتاب المقدس . أى يوم هذا ؟ رجال الدين يقولون :
إنه من المتوقع أن تقوم القيامة في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق . .
وفيل : وست دقائق . . أكثر الناس معادة . . الأطفال والفتيات . .
وأكثرهم تعاسة الأمهات ورجال الدين .

وقد نزاحم بعضهم إلى جوار بعض . . إلى مدى ثمانية كيلو مترات
من مدينة ليفربول ، وقفوا وجلسوا على جانبي الشريط الحديدي . .
وتكلموا عند النفق الذي يقضى إلى المدينة . فهنا عند النفق سوف يرون
معجزة العصر الحديث كله . . بل معجزة العصور كلها . . ومن حق كل
إنجليزي أن يرفع رأسه إلى أى ارتفاع ، وإذا شك أحد في ذلك . تكاثر
عليه الناس واتهموه بأنه فرنسي أو أمريكي أو ألماني على أسوأ الفروض !

الساعة السابعة . . الثامنة . . التاسعة والنصف . . لم يظهر شيء من بعيد .
وأخيراً ظهرت عربة . . لها عجلات من حديد . . يدفعها الناس أمامهم . .
ومن الغريب أنها بسهولة تتدفع على الشريط الحديدي . . هذا معروف ،
قد رآه الناس كثيراً ، بل إنهم رأوا العربات تجرها الخيول فوق القضبان أيضاً

وفجأة صرخت الجماهير . . وارتعد الأطفال ، وراجعت الأمهات . .
لقد حدث انفجار وصغير وضجيج ودخان وضوضاء حديدية . . لقد
تحركت « القاطرة » : هذا هو اليوم الذى انتظره الجميع من سنوات ،
قاطرة تجر وراءها عربات ، وفي العربات اناس وبضائع . . وفي الطريق
من مدينة ليفربول إلى مانشستر ، اليوم افتتاح أول خط حديدى فى العالم . .

والموسيقى راحت تعزف نشيد « جاء البطل المنتصر جاء . . » أما البطل
المنتصر فهو دوق ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو ، فقد كان
موجودا فى ذلك الوقت باعتباره رئيسا للوزراء . . وإن كانت الجماهير
تفضل أن تنظر إليه باعتباره بطلا من أبطال الحرب . .

وظهرت القاطرة الأولى على قضبان خاصة . . تجر وراءها ثلاث
عربات . . العربات الأولى لها محامى عجالات ، وفيها فرقة الموسيقى العسكرية ،
والثانية ركبها ولنجتون والوزراء وأعضاء مجلس العموم واللوردات والعربة
الثالثة ركبها مدير السكك الحديدية الجديد وكبار المهندسين . . أما القاطرات
الأخرى وعددهن ست ، وكل واحدة لها لون ولها اسم : الأولى اسمها
الغناء ولونها أخضر . . والثانية اسمها : نجمة الشمال ولونها أصفر . . الثالثة
اسمها : القديسة ولونها أحمر . . والرابعة اسمها : الشهاب . . ولونها أزرق . .
والخامسة اسمها : السهم ولونها وردي . . والسادسة اسمها : النيزك ولونها
بنى . .

وقد أعلنت القاطرة الأولى قدومها بانفجارات عنيفة . . ودخان
وغليان . . وكان الجو باردا ، ولكن الناس على الجانبين قد نسوا البرد
والعواصف التى هبت على غير العادة فى هذا الوقت من العام .

وبلغ عدد الركاب فى هذا اليوم ٧٧٢ راكبا ، كلهم يجلسون أنفسهم
على هذا الحظ السعيد . . تصورا أنهم أول من ركب قطارا فى التاريخ
وبسرعة « ضوئية » . . أقرب إلى سرعة البرق الخاطف . . لقد كانت

سرعة القاطرة حوالي ١٥ كيلو مترا في الساعة . (خمسة عشر كيلو مترا في الساعة) .

أما القاطرة التي ركبها ولتجتون فكانت لها مهمة خاصة .. لقد تجمع المهندسون بمرضون على البطل الكبير كيف أن القاطرة تتحرك وتقف .. وتسرع وتبطئ .. وكيف استطاع الإنسان بعفريته أن يتحكم في الحديد والنار وكيف استطاع أن يحول البخار إلى حيوان ذليل ذلول .. يلتمسه فيقف .. ويضغط عليه لينطلق .. إن الإنسان قد دخل عصرًا جديدًا .

وترددت عبارات : إن الإنسان سيد هذا الكون .. قد لان الحديد .. واحتبس البخار .. والنقى الماء والنار من أجل خدمة الإنسان والإنسانية ! وكان صوت القاطرة أعلى من صراخ الناس .. ومضت القاطرة .. ووراءها قاطرة أخرى .. وخمس قاطرات أخريات وفجأة توقفت القاطرات وحيط المهندسون وأعلن واحد أن القاطرات في حاجة إلى مزيد من الماء ، فالبخار يتعالى ، ودرجة الحرارة شديدة . والناس ينصبون عرقاً : ثم إنهم إذا أخرجوا مناديلهم من جيوبهم ومسحوا وجوههم : فهذا السواد الذي يرونه هو حباب الفحم طبعاً ، ويضحكون ولكن الحزن باد على وجه أحد المهندسين وهو يقول : أعرف ذلك .. ولكن سوف نجد طريقة للتخلص من هذا الفحم .. سوف نجد طريقة !

ومن الغريب أن أحداً لم يسجل هذه الرحلة الفريدة في التاريخ لا أحد ! فكل دفاتر شركة السكك الحديدية تسجل أرقاماً ، وأسماء بعض المشاهير ولكن كيف حدث ما حدث ، ماذا قال الناس .. كيف هزمهم الحديد والنار .. لاشئ من ذلك في كتب التاريخ .

ولكن غداة في العشرين من عمرها هي التي احتفظت لنا بوثيقة فادحة نصف فيها ذلك اليوم ، الفتاة اسمها نالي كبل ، كانت ضمن السعداء الذين ركبوا قطار دوق ولتجتون ، وأرسلت خطابات طويلة إلى إحدى صديقاتها .

تقول في إحدى رسائلها : عزيزي . . أنت تعرفين سعادتى وأنا أظهر على المسرح لأول مرة . . في دور جوليت . . طبعاً تذكرين . . أن سعادتى هذه يمكن نسجها في ورقة واحدة . . ولكن هذا الشيء المذهل الذى حدث لا يمكن وصفه في مئات الأوراق . . شئ يحتاج إلى موسيقى . . وإلى شعر . . لقد فقدت إحساسى بكل شئ . . كنت في نشوة . . لم أشعر بأن لى جسماً ولا وزناً . . اننى أظير . . ما هذا العصر الذى نحن فيه . . ما الذى يريد أن يصنعه الإنسان . . إن الإنسان استطاع أن يتخطى بهذه السرعة المجنونة . . بهذه السرعة يشق طريقه بين صواعق التصفيق والصراخ . .

وتقول فى كابل أيضاً : هذه المرة من أى شئ أحدثك . . أود أن أعيد ما قلته لك من قبل . . فلننى لا أتعجب من تكراره . . إنه لا ينسى . . هل تعرفين كيف بدأت هذه المعجزة . . أن صاحبها رجل متواضع ، كان يعمل في المناجم ، ولكن له قدرة نادرة على فك الساعة وتركيبها . وفي وقت فراغه كان يصنع الأخذية لنفسه . . إن لديه هذه القدرة الحارقة على تركيب الأشياء وإبداعها . . هذا الرجل الذى اخترع القاطرة اسمه جورج ستيفنسون . أنه في الخامسة والخمسين من عمره — لقد كانت منه في ذلك الوقت ٤٩ سنة . .

ومضت الفتاة تروى قصته . . وكيف أنه ذهب إلى مجلس العموم البريطاني وعرض عليهم اختراعه . وكيف أنه سيصنع قاطرة تمشي على عجلات ، هذه القاطرة تنقل الناس والبضائع وكيف يأمل أن يجعلها تطير ، بسرعة عشرين كيلو متراً أو خمسة وعشرين كيلو متراً في الساعة . . ولم ينظر هذا المهندس إلى وجوه أعضاء مجلس العموم . فقد تغيرت ألوانها . أما أعناقهم فدارت يمينا وشمالا ، وتهايمسوا وقال واحد : إنه مجنون ، وقال ثان : هذا هو السحر الأسود . . وقال أكثرهم طيبة ورقة : دعوا الرجل في حاله إنه جنون الفقراء . .

ولكن هذا المهندس الواصل من نفسه انبه إلى إحدى الشركات ، وعرض عليهم مشروعه ، فكبروا ، دبروا ، انفقوا ، أعطوه المال فاندفع أسرع من القاطرة يفكر ويصمم ويتخذ ، ويضع القضبان الحديدية على الأرض ، استعدادا لهذا اليوم .

تقول الفتاة : لقد أحبت هذا الرجل لأنه نجيب ، شاحب ، فه طريقة غريبة في الكلام ، ولكنه مهذب ، وهو غارق في أفكاره ، مهووم كأنه يحمل القطارات والعربات والركاب كلهم فوق كتفيه ويريد أن يسبق القطار !

ونعود إلى ذلك اليوم ، تقول الفتاة العاشقة الوحيدة : في ذلك اليوم وزعوا علينا بطاقات ، يقولون فيها : يجب ألا يبرح أى إنسان مقعده ، مهما كانت الأسباب حرصا على سلامة الجميع ، وكانت أمي في قاطرة أخرى . وقررت أن أذهب إليها وآتي بها إلى جوارى لنشاركني سعادتي . وكانت صدمة عنيفة لقد كادت أمي تموت من الخوف ، وفي هذه الأثناء ظهر رجل يمسك بوقا في فمه ويصرخ أوقفوا القاطرة . أوقفوا القاطرة . إن شخصا قد جرح ! .

والتي حدث أن القطار عندما توقف في إحدى المحطات ليترود بالماء ، نزل بعض الكبراء يشعشون قليلا . . أو يتحدثون عن هذه المعجزة ، ويبدو أن الحديث قد استغرقهم فلم يلاحظوا وسط هذه القوضاء العنيفة . . أن قطارا آخر قد جاء وراءهم ، ولم يكن من السهل فرملة القطار ، فمقط واحد منهم نحت العجلات . وانكسرت ساقه اليمنى ، وحاولوا إنقاذه ، وبصعوبة أنقذوه . . ووضعوا ساقه إلى جواره . أما الرجل فهو واحد من رجال الاقتصاد الإنجليزي وعضو مجلس العموم . وصاحب مشروعات تجارية وإنسانية كثيرة واسمه هسكنسون . ومن المضحك أن هذا الرجل

لم يدخل التاريخ على أنه خدم بلاده ، ولكن على أنه أول ضحايا القطارات في التاريخ !

وحاول الجميع إنقاذ الرجل . . ولكنه كان يصرخ . . ويقول : لقد مات فليرحمني الله !

وصرخ الناس . ونزلوا من القطار ولكن القطارات الأخرى مضت في طريقها فلا أحد قد أدرك ما حدث . لا يسمع ولا رأى . . إنه يوم من أيام القيامة . . أو هي القيامة نفسها . كل إنسان مشغول بأفكاره ، وبما سوف يقوله لأهله وأصحابه كيف ركب . وكيف اهتز ، وكيف أمسك قبضته حتى لا تطير من شدة الاندفاع !

وتوقف القطار نهائيا . .

وتودى على المخترع وعلى أصحاب الشركة وقيل لهم إن رئيس الوزراء يريدكم فوراً ، واتجهوا إلى البطل ولنجتون . فقال لهم : هذه الرحلة يجب إلغاؤها فوراً ، ولا داعي لهذه الحيلة !

ولأول مرة يجد ولنجتون معارضة حقيقية . . قال واحد منهم : ولكن هذا مستحيل لقد دفعنا ألاف الجنيهات من أجل هذا المشروع . . ثم إن هذا الحادث الأليم ليس سبباً كافياً في القضاء على هذا المشروع الإنساني ؟

وقال ثان : إننا أخذنا أجور كل هؤلاء الركاب ، وليس من العدل أن نفقد عليهم هذه المنة . .

وقال ثالث : إن هناك مئات من الناس على جانبي الطريق ينتظرون منذ يومين . . وليس من حقنا أن نخدعهم ، ولا من الواجب علينا أن نضل الناس ؟

وكان على رئيس الوزراء أن يركب القطار أو ينزل ويكمل الطريق في عربة نجرها الخيول ؟

وتقدمت ميمنة عجوز تقول لدوق ولنجنون : ولكن ياسيدى الدوق
أن كثيرين ماتوا وهم يركبون العربات التى نجرها الخيول ، فلم يصدر قرار
فى أى عصر من العصور بإلغاء العربات وقتل الخيول !

وتقدم رجل يقول لدوق ولنجنون : ياسيدى الدوق . . لم أكن أعرف
أن مقتل إنسان بهز جنديا مثلك رأى الإكوف يموتون فى الحرب ضد الألمان !
وانطلق القطار . . وتعالى الصيحات من جديد عند مدخل مدينة
مانشستر . . ألوف الناس على الجانبين .

ولكن شيئاً من الهجوم والصمت يسود الجميع . . وتوقفت القاطرات .
وتنهد الناس على الجانبين فى صمت . . وأفسحوا الطريق لعدد من العمال
كبار السن . . إنهم يسكنون المنازل . . وشعرهم منكوش . . ووجوههم
شاحبة . . وملابسهم ممزقة . . ويعترضون القاطرات . . ما الذى يريدون
أن يقولوه ؟ . . إنها مظاهرة احتجاج على اختراع الآلة البخارية ، التى
سوف تؤدى إلى تعطيل الأيدي العاملة . . ونحوهم ألوف العمال .

وإذا عدنا إلى سجلات الشركة نجد أن عدد الذين ركبوا هذه القاطرات
فى الأسبوع الأول بلغ عددهم ستة آلاف نسمة . . أى بمعدل ٢٦٣ راكبا
فى اليوم . . وتناقصت الشركة عن هؤلاء الركاب مبلغ ٢٠٤٣ جنيهها و ١١
شلنًا |

وكانت هناك آراء غريبة ١٢

كتب طيب فى ذلك الوقت أنه ينصح السيدات الحوامل فى الشهر
الثالث والثالث ألا يركبن القطار !

ونشر أحد رجال الدين بحثا يقول فيه : إن هذا القطار ضد الدين . .
الناس قد أصابهم الغرور . . لأن القطار لم يرد فى الكتاب المقدس ومعنى
ذلك أن الإنسان يعرف أكثر مما يعرفه الأنبياء !

وطالب القس : بالقضاء على هذه الخرافة التي تحطم العلاقة الإنسانية
واقصالات الروحانية بين المؤمنين !

أما العاشقة بنت العشرين عاما فكتبت لصديقها تقول : كل أملي في الدنيا
أن أتزوج شابا أحبه . . وأن أركب مع القطار ، في أول يوم من أيام شهر
العسل . . وأموت بعد ذلك !

ونجحت أمتها . . ركب القطار هي وعريسها . . وكان ضمورا . .
وكانت هي في غاية التشوة : وسقط العريس تحت عجلات القطار . .
فلما حاولت إنقاذه سقطت هي أيضا تحت القطار . . وكان الاثنان معا أول
عروسين داسهما قطار في التاريخ !

يَكْسِبُ فِي النِّهَايَةِ
مِنْ عِنْدِهِ أَرْوَ!

في يوم ١١ يناير سنة ١٩٠٧ نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية في صفحتها الأولى هذه العناوين . . مادامت هناك سيارة غالايلسان قادر على كل شيء* . . لم تعد الصعوبات الجغرافية مشكلة . . أنها فرصة قادرة أمام الجميع لإثبات عبقرية الإنسان !

إن عبقرية الإنسان ههنا مطلوب تأكيدها في سباق دول السيارات من مدينة باريس إلى مدينة بكين . والسباق مفتوح للجميع . وسنتولى هذه الصحيفة الإشراف - والدعوة والدعاية لهذه الرحلة الرهيبة . .

وكان كل من يريد الاشتراك أن يدفع ٤٠٠ جنيه . . أما تكاليف الرحلة للسيارة الواحدة فتصل إلى عشرين ألفا من الجنيهات . وقد أعلنت شركات عالمية رغبتها في الاشتراك . وكان أول المشتركين نيبيل إيطالي اسمه الأمير بورجيزا . . وكانت سيارته قوتها أربعة سلندرات . أما الأمير فهو رجل شجاع . واستطاع عن طريق علاقاته الدبلوماسية الكثيرة أن يدير لنفسه كل وسائل الراحة والوقوف على طول الطريق . . وقد رافقه في هذه الرحلة ميكانيكي . وحمل الأمير عددا من قطع الغيار الضرورية .

ومن فرنسا اشترك المركز دى دبون ، وهو صاحب شركة لإنتاج السيارات وقد اشترك بمسافرين ولكل منهما سلندران . وكان يرافقه اثنان لإصلاح السيارتين إذا ما حدث أى خلل .

واشترك رجل ثالث اسمه كوتنال بسيارة لها ثلاث عجلات . ورافقه سائق وميكانيكي . .

وأخيراً اشترك رجل مهرج حفيف الدم اسمه شارل جودار . وكان قبل ذلك يعمل في سباق الخيل . وهو مدام أفاق مفلس . وقد طلب من أحد أصحاب شركات السيارات الهولندية أن يعاونه على دخول السباق . وأعطوه سيارة هولندية ، وملاها بقطع الخيار والإطارات الجلدية . ورافقه ميكانيكى . .

أى أن هناك خمس سيارات على استعداد لأن تقطع المسافة من فرنسا إلى الصين — مهما طال الوقت . ومهما تكبدوا من متاعب أو خسائر .

وقبل أن يبدأ السباق اعترضت الحكومة الصينية على دخول هؤلاء الشياطين الأجانب ، والحدود الصينية . . ونشرت الصحيفة الفرنسية أن هؤلاء الشياطين مصرون على السباق ، مهما كلفهم ذلك . . ورغم أنف الامبراطور الصينى !

ووافقت الحكومة الصينية . .

وبسبب رداءة الجو ، تقرر أن تبدأ الرحلة من الصين في اتجاه فرنسا . .

وشحنت السيارات إلى الصين . .

وتحدد موعد السباق يوم ١٠ يونيو . . وكان على هذه السيارات أن تقطع ١٥ ألف كيلو متر ، أو هذه الكيلو مترات هى التى تقطعها !

وأقيمت حفلة ضخمة لهؤلاء الشياطين الأجانب . ودار رجال الدين حولهم وحول سياراتهم . وتعلقت أغصان الأشجار والورود . فى السيارات وملا كل واحد منهم جيوبه بحبات الأرز على سبيل البركة . ولكن أحد الدبلوماسيين همس فى أذن الأمير الإيطالى وأعطاه تمثالاً نادراً ، لبوذا . وطلب إليه أن يضعه فى جيبه . وقبل له أن هذا وحده الذى سوف يساعده حتى النصر . .

أما المهرج جودار فقد ارتدى ملابس صينية كاملة . وحلق رأسه بالموسى — وارندى قيقابا خشبياً وجوربا أحمر . . واقتربت منه سيدة

وقطعت جزءا من ملابسه ثم أحرقته أمامه . . وقالت : لقد أحرق الشياطين
التي تعلقت بملابسك . اذهب . . على بركة الآلهة !

وبعد توديع الشياطين الأجانب ، أخذت السيارات تخوض طريقها
وسط الناس في اتجاه أبواب مدينة بكين . ومن ورائهم الجماهير . وأمامهم
عدد من الرسميين على ظهور الخيول . وقبل أن يبدأوا السباق اتفقوا على أن
يتعاونوا في الطريق حتى لا يغفل أحد . أو لا يسقط سائق بسبب المرض . .
وكان الأمير الإيطالي أسبقهم إلى خارج المدينة . وبعد ساعات نقلت وراءه
فلم يجد زملاءه . دثار . ولكن المهرج جودار أصر على أن يعود إليهم .
فقد خرجوا من أبواب أخرى وضلوا الطريق . ولحق بهم ثم أعادهم إلى
الطريق الصحيح .

وكانت السيارة ذات الثلاث عجلات هي التي ضربت رقما قياسيا في عدم
تحمل الطرق المتعرجة المليئة بالأوحال . . فانتكسرت عجلتها الثالثة . وانتهى
السباق بالنسبة لها . .

وكان على المتسابقين أن يمضوا في طريقهم . فقد سبقهم الأمير الذي
أعلن : أن هناك حدودا للرحمة الإنسانية . وليس من المعقول أن يبكي الواحد
منا لغيره . . انها معركة والطريق طويل والصعوبات لا حدود لها . .

وكان على الأمير أن يجتاز أول عقبة : كويري من الرخام . . الكويري
أعلى من الطريق بنصف متر . وكان على الأمير أن يرفع سيارته إلى ارتفاع
الكويري . ونزل واشترى كتلا خشبية . ووضعها تحت عجلات السيارة .
وارتفعت فوقها . وسارت على الكويري . ثم عاد فنقل الأخشاب إلى الجانب
الأخر . ونزلت السيارة واستأنفت سيرها . .

وقد قرر الأمير الإيطالي أن يتوقف في مدينة نانكوف على مسافة أربعين
ميلا من بكين . أما السيارات الأخرى فقد توقفت في الطريق وقررت البقاء

على أن تستأنف رحلتها في اليوم التالي . ولم يعرفوا إلا في اليوم التالي أنهم توقفوا على مدى ميل واحد من مدينة ناكوف .

ومضى الأمير متجها نحو حدود منغوليا .. والطريق مليء بالجبال والوديان والطرق الضيقة التي تمشي فيها الجمال . واستعان الأمير بعدد من الشبان بدفعون عربته إلى أعلى .. وبمسكونها بالجبال إذا نزلت أحد الطرق الوعرة الضيقة .. وفي كثير من الأحيان كانوا يتركون الأمير وحده ، ويجلسون يتماطون الأفيون وكان على الأمير أن ينتظر .

وبعد أن عبرت السيارات بصعوبة لا حد لها بعض السلاسل الجبلية ، استراح الأمير في أحد الفنادق . الفندق بدائي قذر . ولكن الناس مهذبون . وفي غاية الرفقة والمرح . وعلى استعداد دائم لأن يساعدوا هؤلاء الشبان الأجانب !

وعاود الأمير رحلته .. واقترب من حائط الصين العظيم .. وتغذى منه .. وانفتحت أمامه الأراضي الضيقة التاسعة والواحدة .. ملايين من حقول الأرز .. والمستنقعات والطرق الضيقة والأوحال والأمطار والرعد والبرق .. ولم توقف سيارته .. واستطاع أن يصل إلى حدود سيبريا وهناك التقى بموظف البنك الروسي الصيني . واحتفلوا به . وأمضى وقتا سعيدا . وفي الصباح المبكر انطلق بسيارته ودون حاجة إلى شيالين ..

لقد مضت على الرحلة سبعة أيام ، قطع فيها ٢٠٠ كيلو متر .. وما يزال أمامه ١٣٠٠ كيلو متر .. وعليه أن يجتاز منغوليا وحصراء جوبي . وهذا هو الجانب الخطير من الطريق .. فالنهار ملتهب والليل جليد . وعلى الرغم من وجود محطات تلغرافية في الطريق وهذه المحطات قد زودت بوقود للسيارات وطعام للمسافرين ، فإن هناك مئات الكيلومترات من الطرق العارية التي خلت تماما من الإنسان والحيوان . فإذا توقفت السيارة ، توقفت الحياة أيضا . ولذلك فعلى السيارات جميعها أن تحمل وقودها وطعامها وقطع غيارها . وعلى السيارات أيضا أن تلتق بكل ما ليس ضروريا . وأن تكتفي بالتغلب النافع من كل شيء ..

وراحت السيارات تلتقي بأحضانها من الطعام والمشروبات والملايس . بل
إن المهرج جودار قد ألقى بصندوق من الشبانيا .

وتعطلت السيارات كلها في الطريق . فاستأجروا الخيول لجرها يومين .
ثم راحوا يدفعون هم هذه السيارات يوما كاملا . ورفضت القبائل البوية معاونتهم
لأسباب غير معروفة . وعلى الرغم من أن المهرج جودار حاول أن يكون ظريفا
مع طفلة صغيرة . وحاول أن يضعها على سيارته على سبيل المداعبة .. ولكن
القبائل لم تهتم لما حدث ولا فرحوا بالمداعبة بل انزعجوا لأنه أخذ منهم الطفلة .
بل تركوه يجرى وراءهم ليعطيهم طفلهم ..

وأصلحت السيارات واستأنفت السباق ..

وكان الأمير الإيطالي في المقعدة ..

وكان المهرج جودار وسائق السيارة الهولندية وراءه .. أما الفرنسيون
فكانوا في المؤخرة .

وعلى الرغم من أن المسافة التي تفصلهم عن حدود سيبيريا الجنوبية حوالي
٣٠٠ كيلو متر .. فإن السيارات بدأت تلهث .. ورغم البرودة المائلة للهجو
فإن السيارات ثقلى وتنفث وتنهالك على جانبي الطريق ..

أما سيارة الأمير فقد غاصت في الرمال الناعمة . واستأجر عددا من
الخيول سحبت السيارة عبر الرمال والمستنقعات . ثم عادت فغاصت في الرمال
الناعمة . وراحت تدور حول نفسها ولا تتحرك . وجاء القلاحون ومعهم
الثيران . وصحبوا السيارة . وقرر الأمير أن يفك السيارة تماما . وأن يخلع عجلاتها .
وأن يرفع موتورها وأن ينقلها إلى الأرض الجافة قطعة قطعة .. ثم يجيد تركيبها .
ويعاود استكمال السباق ..

ووصل الأمير بورجيزة إلى مدينة على حدود الصين وروسيا القيصرية

وهناك استراح وأكل وشرب ونام . وحمل معه أكثر من خمسين نفرا من الوقود .

ثم اتجه بسيارته إلى بحيرة بايكال ..

ووجد من المستحيل أن يعبر البحيرة بزورق يعمل هذه السيارة ولذلك قرر أن يدور حول البحيرة وكان عليه أن يعبر بسيارته أحد الجسور القائمة على نهر صغير ونزل من السيارة يختبر الجسر . وأدرك أن الجسر لن يقوى على حمل السيارة . وقبل له لأنه في الإمكان إصلاح هذا الجسر بعد أسبوع .

وفكر الأمير . ثم بعث برسالة إلى الحاكم العام يستأذنه في أن يربط سيارته بأحد القطارات قوافي الحاكم العام . وارتبطت السيارة بالقطار الذي يمشى بسرعة عشرة كيلو مترات في الساعة . وكان الطريق صعبا . وكان القطار يهز السيارة ويحطم ويفكك كل مما فيها ثم قرر الأمير أن يتصل عن القطار ليلحق به في مكان آخر .

وكان لابد أن يعبر جسرا على نهر . ونزل ليرى الجسر فوجد أنه ليس أحسن حالا من الجسور السابقة . واتجه بسيارته إلى الجسر . وعندما أصبح في منتصف الجسر تداعت أعمدته الخشبية . وسقطت السيارة في النهر . ولحسن الحظ سقطت على الإطارات الاحتياطية . فلم تنهشم .. أما الميكانيكي فقد أصيب بكدمات . ولكن الأمير لم يصب بسوء . وسحبوا السيارة وأعادوا ربطها وخبطها . وبعد خمس ساعات استأنفوا الرحلة ..

أما الآخرون فقد واجهتهم نفس المصاعب . وإن كان الأمير قد ترك لهم رسالة ينصحهم أن يبحثوا عن وسيلة أخرى لعبور البحيرة . ولكنهم لم يجدوا زورقا أو سفينة تنقل سياراتهم . ولذلك سلكوا نفس الطريق .. وإن كانوا قد شحنوا سياراتهم في القطار . وعندما وصلوا إلى مدينة أركنسلك يوم ٣ يوليو ، كان الأمير قد غادرها في صباح ذلك اليوم .

ولاحظ المهرج جودار أن الزيت يقرب من سيارته . فشحها في القطار إلى مدينة بعيدة وأصلحها هناك . وعاد بالقطار إلى نفس النقطة التي توقف عندها واستأنف الرحلة وسبقه الفرنسيون . وجاء مهندس ميكانيكي هولندي معه قطع غيار جديدة . فأصلح السيارة . وارتحل جودار من جديد . أما الفرنسيون فقد عبروا جبال الأورال واخترقوا المراعي المحترقة . وعلى الحدود الفاصلة بين أوروبا وآسيا توقفوا وشربوا الشمبانيا لإتباعا بهذا النصر . وقرروا أن يناموا في أحد الفنادق حتى الصباح وفي ساعة مبكرة صعدوا على ضواصة غريبة .. فقفزوا من القرائش . وأطلقوا من الهلكنة .. لقد وجدوا المهرج جودار قد لحقهم .. لأنه كان يقود سيارته عشرين ساعة في اليوم ..

أما الأمير فقد وصل إلى هذه المنطقة منذ أسبوعين . وأنتم الآن المئات الأخيرة من السياح . وكان الطريق أمامه واسعا مرصوفا .. وليس عليه إلا أن يجتاز ألمانيا بعد ذلك . وعندما وصل الأمير إلى موسكو أعلن أنه سوف يدخل باريس يوم ٥ أغسطس . أي بعد شهرين من بداية السباق .. واخترق الأمير ألمانيا ووصل إلى حدود فرنسا . ودخل باريس . واستقبلته الفرق الموسيقية .. وأنهى السباق بفوز الأمير الإيطالي الشجاع بورجيزه وانتصرت السيارة الإيطالية !

ولما سألوا الأمير عن سر تفوقه .

قال : إنني أصحو مبكرا ..

فيل له : نشاط وشباب ؟

فأجاب : أرق !

أما الآخرون فقد وصلوا إلى موسكو يوم ١٥ أغسطس واستقبلهم الروس بحماسة شديدة وأقاموا لهم الحفلات والمآدب . وهذه الحماسة الشديدة قد أخرت السباق بضعة أيام ولكنهم فضلوا أن يكونوا معاً !

وعبروا الأراضي الألمانية . وقبل أن يقربوا من الحدود الفرنسية . نشرت
صحيفة « الصباح » الفرنسية أن المهرج جودار قد نصب على عدد من الدبلوماسيين
في الصين . وطلبت من البوليس أن يلقى القبض عليه . وبذلك يتأخر وصوله إلى
فرنسا ويتقدم الفرنسيون إلى المركز الثاني في السباق الدولي . ولما علمت
شركة السيارات الهولندية أرسلت من يحمل عمل المهرج جودار . ويكمل السباق
وجاء البوليس ومنع المهرج من ركوب السيارة .

ولم يدخل المهرج جودار السجن وإنما دخل سباقا آخر بين نيويورك
وباريس عن طريق اليابان . وقبل أن يصل المهرج جودار إلى الشاطئ الغربي
لأمريكا ذابت السيارة وتفككت كلها .. أما هو فقد سقط على الأرض
وتدحرج في إحدى القنوات .. وعندها خرج من الماء فوجئ الناس بأنه
ارتدى الملابس الأوروبية فوق الملابس الصينية التي كان يتغافل بها .. وتعلم
الملابس الصينية وألقى بتمثال يوزا في الماء .. وراح يصرخ على سيارته التي
ماتت على حد قوله ثم تعدد إلى جوارها .. ونام .. وتركه الناس نائما .. ساعة ..
ساعتين .. ثم حملوه وهو يختنق بقايا سيارته ودفنوها معا .. فقد مات جودار ..
إنها نكتة مؤلمة لمهرج عالمي !

ذهبت إلى الجنة
وعادت تروي ما حدث !؟

كانوا سبعة يجلسون على مائدة الطعام . وقبل أن ينهوا من شرب القهوة
وقفت هي لتقول لهم جميعا : أريد أن أنهى هذه الفرصة المعبدة لاستودعكم
الله .

قالوا : إلى أين .. إلى فرنسا .. إلى إيطاليا .. إلى القطب الشمالى .

تركهم ينقلون على خريطة أوروبا كلها .

وأخيرا قالت : إننى ذاهبة إلى الجنة .

قالت واحدة خبيثة : إذن أنت قررت الزواج ؟

قالت واحدة أخرى أكثر خبثا : لا بد أنه الإلتحار فى مكان جميل مع

شاب جميل ؟

وأمام هذا الضحك من الجميع كانت ملاحظتها جادة على غير عادتها .

وقالت : إنها مغامرة !

وليس غريبا أن تعلن هذه الفتاة أنها ستقوم بمغامرة . فقد فعلت ذلك
كثيرا .. خرجت فى الليل وحدها وعادت بذئب قتيل .. ثم ركبت زورقا
وحطمت الزورق وعادت إلى الشاطئ بين الحياة والموت .. وصعدت برج
إحدى الكنائس .. ثم تدلت بحبل حتى الأرض .

أما الأسباب فليست واضحة وإنما هى تقول عبارة واحدة : أريد شيئا
يهزى من أحماقى .. أريد شيئا يفزعنى حتى الموت ، يسعدنى حتى الموت ..

أما هذه المرة فقد جمعت ملابسها .. فى حقيبتين ، ثم حملت معها سريراً صغيراً ، وركبت السفينة إلى سوريا . ومن سوريا اتجهت إلى إيران . وفى إيران سألت عن منطقة معينة .. تعرفها على الخريطة ولكن لا تعرف الكثير عن تفاصيلها . وعلى الحدود سالوها : أيتها الفتاة الإنجليزية قرأيا ستارك ماذا تريدان من بلادنا .

قالت : إلى ساحة .

قالوا : وأى الأماكن تريدان ؟

قالت : أريد أن أرى اللجنة التى أقامها الحشاشون فى القرن الحادى عشر فى منطقة جبال البروز .. وعند حفرة الموت ..

وضحك رجال الحدود وقالوا لها : ولكننا الآن فى مايو سنة ١٩٣٠

وعاد الإصرار على وجه الفتاة الإنجليزية . وأكدت أنها تعرف ذلك ولكنها تريد أن ترى ما تبقى من اللجنة التى أقامها بعض الناس على الأرض من أجل قتل أناس آخرين

وعلى الرغم من أن قرأيا ستارك هذه كانت مغامرة فقط ، وأنها تريد أن ترى ، فقد أضافت إلى كل كسب الجغرافيا والتاريخ معلومات قيمة . عندما نشرت كتابها «رحلة فى وادى الحشاشين» . ولذلك فقد عاونتها «الجمعية الجغرافية الملكية» فى تكاليف هذه الرحلة .

ولكن قرأيا ستارك فى خطاب لها إلى صديقة تقول : «إن الشئ الذى يبحث على السعادة حقاً ، أن فى جبر جنين .. ومعنى ذلك أننى لن أخاف من اللصوص .. فى استطاعتهم أن يسرقوا منى شيئاً واحداً : النوم : ومع ذلك فأنا لا أنام إلا قليلاً»

وفى استطاعتك أن تتصور فتاة إنجليزية بمفردها فى يدها خريطة .

وتركيب حصاننا ومن ورائها إثنان من الشياطين . وقد انجھت إلى مناطق جبلية ..
هذه المناطق لم تر فتاة أوروبية من قبل . فالناس مهذبون . وهم يخفون دهشهم
في أدب .

وكل ما تعرفه بوضوح هو : أن هناك جبلا اسمه جبل الموت . وقلة
الموت ومحنة الموت . وأن زعيم الحشاشين حسن الصباح كان يقيم في هذه
المنطقة . وأنه مات سنة ١١٣٤ . وكان له قصر اسمه قصر خان .

وانجھت فرايا استارك إلى منطقة الجبال العالية الموحشة . والناس يعرضون
طريقها . وكان الشياطين يتولون شرح أسباب هذه الرحلة . الشياطين هم
عزير وسليمان وحجة الله .. وكانت تدفع لكل واحد أربعة شلنات كل يومين .

كتب فرايا استارك تقول :

« هنا العزلة .. والهدوء والأحلام ورائحة الزهور .. كأنني في عالم آخر
أو كأنني أركب العربدة الأخيرة في قطار الزمن .. وكأن هؤلاء الناس موجودون
هنا من ملايين السنين .. لم يتغير شيء .. ويبدو أن شيئا ولن يتغير » .

سألت فرايا استارك أحد شياطينها : وأنت ماذا تريد ؟

فقال لا شيء !

فألت : لا أقصد ما الذي تريده مني ؟ ما الذي تريده من هذه الحياة

فأجاب : لا شيء .

— لا أمل لك في شيء ؟

— لا أمل .

— ولا يأمن من شيء ؟

— ولا يأمن .

— سعيد أنت هكذا .

— هكذا سعيد ..

وتقول غرايا استارك أنها نظرت إلى ملايه .. إلى وجهه .. إلى عينيه ..
إلى شفتيه .. كل شيء هو الحد الأدنى من أي شيء .. فهل السعادة هي أن
يكون للإنسان الحد الأدنى من كل شيء ..

نعم : السعادة أن يكون لدى الإنسان الحد الأدنى من أي شيء .. وهذا
الحد الأقصى من القناعة !

واقربت قافلة فرايا استارك الصغيرة من بحر شالا .. بحر ضيق .. ولكن
على جانبيه الزهور والورود .. وأحست أن المطر نفسه ثقيل كأنه ضباب
يجب عن الأنف أن يميز بين روائح الزهور وفي هذا البحر تنطلق البغال
تحمل الناس والبضائع .. منذ ألوف السنين .. فلم يتغير هذا الطريق بين
الصين والهند وسوريا ومصر .. ولم تتوقف الأقدام والحوافر والعطور والصنصنة
والشمس والجليد في القمم .. كل ذلك كأنه صدى لما كان من عشرات
القرون ..

وفتحت فرايا استارك الخريطة لترى أين هو عرش سليمان . فالخريطة
تقول أنه عند قدم هذه الجبال فوق محور عالية له شكل العرش . ويقال إنه
عرش سليمان أو أطلق عليه بعض الناس هذا الاسم .

وفي كتيب صغير قرأت : : انه إذا كان عرش سليمان على البسار ..
فإنه بعد أميال إلى اليمن يوجد « وادي الحشاشين » . وعندما حاولت فرايا
استارك أن تطوى خريطة ظهر لها أحد رجال البوليس : له لحية حمراء .
وعينان سوداوان . وبسرة امتدت يده إلى الخريطة .. وقلبا . ولم يفهم منها
شيئا .. ثم عاد ونظر إلى سريره وطلب منها أن تشره على الأرض . ثم طلب
إلى الشياطين أن يضعوا الحفائب على الأرض وفتح الحفائب . وفشها جيدا .

وقبل أن ينطق بكلمة واحدة أخرى كانت غرايا استارك قد خلعت البياضات والجاكنة والحذاء الغليظ والبنطلون .. وعلى الرغم من أنه أدرك أنها تسخر منه .. ولكن هذا اللمعان الغريب في عينيها يدل على أنه قد أعجب بساقها .. وكانت هي تعرف هذه الحقيقة !

ومضت القافلة في دهشة مما حدث . ولكن الجبل الواضح على وجوه الشياطين أفقدهم النطق طوول الطريق . أما هي فلم تنطق ، لا خجلا فليست هي من هذا الطراز الذي يستحي ، وإنما لأن المنظر أمامها يصيب من براه ينشوة غامرة .. وكتب غرايا استارك تقول : « هؤلاء الخشاشون كانوا يدخنون مرتين .. مرة عندما يتلأون عيونهم وأنوفهم بهذا الجمال ، ومرة عندما يتعاطون الخشيش .. إنني أفضل هذا الخشيش الطبيعي » .

هنا في وادي الخشاشين .. كان حسن الصباح - زعيم الخشاشين والذي كانوا يقبضونه شيخ الجبل - يزرع الخشاش ويكثر من الزهور .. وكان يشق الصخور لكي يهبط الماء .. وكان يجعل الزهور الحمراء إلى اليسار والصفراء إلى اليمين .. وفوق الجبل توجد قلعة الموت .. ومن هذه القلعة كان يطل حسن الصباح على الوادي .. وعلى رجاله من المؤمنين به .. وكان يقول لهم : لا صلاة إلا من أجل .. ولا صوم إلا بأمرى .. ولا معبود إلا أنا ..

وكان حسن الصباح عندما يهبط إلى الوادي ينظر إلى القلعة .. ويشير إلى أحد حراسه أن يهبط .. فيأتي بنفسه من أعلى القلعة .. ويهبط إلى الأرض ميتا - مغشى الطاعة العمياء ..

وهنا كان حسن الصباح يدعو صديقه الشاعر الصوفي الفيلسوف عمر الحيام . ويقال إن عمر الحيام كان يشرب النبيذ بطريقة جديدة .. كان حسن الصباح يصب النبيذ في أحواس كبيرة .. ثم يأتي بالغثيات الحميلات بسبحن في النبيذ . وكان يشرب النبيذ من فوق أجسام الغثيات .. وقد انتقلت موضحة استحمام الغثيات في النبيذ إلى أوروبا أيام الحروب الصليبية .. وانتقلت إلى أغاني

شعراء الطروبادور في فرنسا وإسبانيا فكرة اللجنة على الأرض .. أو اللجنة التي استطاع إنسان أن يصنعها وأن يدخل إليها المؤمنون . ثم يطردهم منها .. ويرغبهم فيها إذا أطاعوا أوامره .. وكانت أوامره محددة : اقتلوا فلانا الوزير .. أو فلانا الملك ..

وكانوا يفعلون ..

واقربت فرايا استارك من القلعة التي كانت مصدر الرعب والفرع منذ أكثر من مائة قرون .. لم يبق من هذه القلعة شيء .. لقد ظلت هذه القلعة وخسوف قلعة أخرى ، مهيبة قرنا ونصف قرن .. وكان من عادة حسن الصباح أن يدعو رجاله القديسين . إلى داخل القلعة ، وهناك يعطيهم الحشيش .. حتى ينتشروا تماما .. ثم تظهر أمامهم القنيتات الجحيلات عاريات .. ثم يرون قنوات من لبن وخمر ومن عمل .. ويسمعون الموسيقى .. كأنهم في الجنة ..

ثم يلقى بهم حسن الصباح إلى خارج القلعة .. ويعددهم أن قتلوا هذا أو ذاك أدخلهم الجنة مرة أخرى ..

واستمعت فرايا استارك إلى قصص وأناشيد وخرافات عجيبة عن سحر حسن الصباح وتخلقاته من شيوخ الجبل وزعماء الحشاشين ..

فقد كان من عادة حسن الصباح أن ينشر رجاله في كل مكان ليربوا للناس ماذا رأوا وكيف رأوا ؟ وكيف أن الجنة قريبة .. هناك فوق الجبل .. وأن في استطاعة أي إنسان أن يدخل الجنة .. لأن الطريق إلى الجنة يقف على بابه رضوان ؟ ، ورضوان هذا هو حسن الصباح .. وفي استطاعة الناس أن يقتربوا إلى الجنة بنساء الآخرين أعداء حسن الصباح .. وكان على باب الجنة هذه ستة من الكلاب السود .. هذه الكلاب تصيح وحوشا أحيانا ، وتصيح في وداعة القطط أحيانا .. لقد كان شيخ الجبل يعطيها الحشيش هي أيضا ..

وينشر هؤلاء القذالين قصص الذهب والقضة والمرجان الذى رأوه فى أرض وسقف الجنة .. وكيف أنهم جلسوا على الأرائك ينظرون .. وعن النعيم المقيم !

وكتبت غرايا استارك تقول فى كتابها : كنت أعدد على سربرى .. وفجأة رأيت طفلا صغيرا .. وجاء الطفل وغدَم لى زهرة .. وكانت نحية رفيقة صادقة صافية لم أتوقعها .. فأنا ما أزال فى ذهول مما أرى .. ورأيت الطفل يمد يده إلى الزهرة ثم يقطف منها ورقة .. ويأكلها .. وكانت عيناه تعطين منى أن أفعل مثله .. وأكلت ورقة .. ثم ورقة .. ورابعة .. وأكلت الزهرة كلها .. والآن أستأنف كتابة هذه المذكرات بعد ثلاث ساعات أعضيتها فى النوم .. فقد كانت هذه الزهرة الجبلية نباتا مخدرا .. وكنت فى حاجة إلى النوم حقا .. وبصراحة لا أعرف بالضبط .. إن كان هذا قد حدث .. أو أننى أحلم أو أن بعض الأقطعة الخفيرة قد أكلتها دون أن أدري .. أو أننى إنضممت دون علم منى إلى جماعة الخشاشين .. لو ظهر لى الآن حسن الصباح لطبقت عليه أحد مبادئه : وذلك بأن أقتله هو ..

وإلى هذه المنطقة التى رحبها رحبا دافقا ، جاء المنول بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٦ وحاصروا هذه القلاع . ومن العريب أن هذه القلاع ظلت صامدة عدة شهور ثم استسلمت .. وقتل هولاكو ١٢ ألفا من الخشاشين .. وكان فى جيش هولاكو عدد من المهندسين القتيين .. وعدد من خبراء القلاع .. وقد دخل المهندسون الصينيون إلى داخل القلاع وفقشوا عن الذهب والناس الذى وضعه حسن الصباح فى كهوف عميقة .. وحمل هولاكو هذه التروات الخيالية معه .. أما المكتبة التى كانت تضم كتباً عن الإلحاد ، ألوف الكتب ، فقد أحرقها هولاكو . وقبل أن يحرقها سأل بعض الخشاشين من هو أعقلكم هنا ؟

فتقدم رجلان ..

فأمر هولاءكو بقتلهم فوراً وقال : : لو كنا عاقلين ما تقدمنا ..

ثم نظر إلى سبعة آخرين وقال : : لاذن أنتم أعقل الموجودين هنا ..

وأمر بإحراقهم وعشرات الألوف من الكتب ..

ونحولت الجنة الوهمية إلى نار حقيقية ..

وعادت فرايا استارك إلى إنجلترا تحكي ما رأت ..

ويبدو أن شيئاً قد قاتلها في وادي الحشاشين .. ولذلك رجعت مرة أخرى

إلى جبل البروز وإلى قرية الموت وصخرة الموت .

وقررت أن تفعل شيئاً غريباً جنوباً .. حملت سريرها .. وتامت في قلعة

حسن الصباح .. أوفى بقايا هذه القلعة .. ومن العجيب أنها رأت في نومها حسن

الصباح ورأت الجنة .. ورأت أنهار اللبن والعسل والحمر والقنبيات الجميلات

وشبابا في غاية الرجولة والجمال أيضا .. والذي أنهضها من نومها الغريب أن

شابا كانت تحبه قد رآته في الجنة أيضا .. فقرعت من نومها .. فهذا الشاب قد

قتل في حادث سيارة ..

وفي اليوم التالي قررت ألا تتناول أى طعام سوى التماككة .. فقد خافت

أن يكون في كل شئ حشيش : الهواء والماء والخبز والأرز .. وتحدثت على

سريرها وحدها .. وصحت من النوم في ذهول أكثر : فقد أمضت ليلة طويلة

عروسا لحسن الصباح .. زفة عروس .. وعروس .. وغرفة من ذهب وفضة

وحرير .. تطير فوق السحاب .. ثم تهبط فوق الجليد .. ثم تنزل على عرش

سليمان .. وأنها بلفيس .. ثم أحست أنها كليوباترة .. وعندما التفت

حولها ألقى كليوباترة نهضت من نومها .. وجمعت حقائقها .. وتركت سريرها

وانجحت إلى الشاطئ .. إلى البحر .. إلى إنجلترا فتروى للناس كيف دخلت

وخرجت ودخلت الجنة ! ..

تسعون يوما..
على ألواح فئسبية
بحثا عن إله أبيض !

رجل وزوجته أقاما في إحدى جزر المحيط الهادى بضح سنوات .. كل
سكان الجزيرة عمارة بدائيون . ولكن الذى يبعث على الدهشة أن لهم انفساء
دائمة .. وأن لهم شعرا أصفر وعيونا زرقاء .. وهذا عجيب . فكل سكان الجزيرة
من الصفر أو السمر ، ولكن هؤلاء البيض بدائيون أيضا .. فمن أين جاءوا ؟

ظل هذا الرجل يفكر كل سنوات الحرب العالمية الثانية . كانت عنده
عدة فروص . ولا يوجد أى دليل علمى . ولذلك أخذ يجمع الأساطير القديمة
والأغاني الشعبية . وراح يصور النقوش والتماثيل التى تتجه إلى الغرب وكلها
تتجه إلى ناحية واحدة .

وبى إحدى الليالى كان هو وزوجته يتطلعان إلى القمر . والمحيط الهادى
هادئ فعلا . لا موج . لا شئ يعلو من الماء . والنسيم عليل يسحب نفسه
سحبا على السطح .. وفجأة هبت الريح . وعلت الأمواج .

ولاحظت زوجته شيئا عاديا . وعندما فكر فيه زوجها ظهرت أمامه
روية جديدة .. لاحظت الزوجة أن الأمواج كلها تنكسر على شاطئ واحد ..
أما بقية شواطئ الجزيرة فلا تنكسر عليها الأمواج . أو بعبارة أخرى أن الموج
أو التيار يجرى من ناحية واحدة .. فلماذا لا يجرى أناس آخرون أيضا من هذه
الناحية . أما هذه الناحية فهى أمريكا والمسافة بين هذه الجزيرة وأمريكا حوالى
٤٣٠٠ ميل ؟

لماذا ؟ ليس أسهل من الأسئلة وليس أصعب من الإجابة عليها .

وبهذه الملاحظة اكتملت النظرية في رأس زوجها الرحالة الشاب نور هابر دال وكان عليه أن يدرس أكثر ويتصفح خرائط أكثر . وأن يتصل بعدد من العلماء . وانتهى الحرب . وذهب إلى نيويورك . وقلب عشرات المئات من الكتب . ومجمل ملاحظاته كلها في بحث . وعرض البحث على أساتذة الجامعات الأمريكية . هزأ رؤوسهم وقالوا : مجهود عظيم ولكن نظرية خاطئة . وكان رد هابر دال : مجهود عظيم هذا صحيح . . والنظرية صحيحة حقا ! وأمن بنظريته . وصمم على أن يثبت صحتها . وهو في حاجة إلى مال . وإلى عدد من الشبان المعاصرين الذين يؤمنون بوجهة نظره هو أيضا . ويقامرون بحياتهم معه !

أما النظرية فهي : أن هؤلاء البيض الذين تثاروا في جزر المحيط الهادى لابد أن يكونوا قد جاءوا من أمريكا الجنوبية . ولكن سكان أمريكا الجنوبية من ألوف السنين كانوا من المتود الحمر . وليس معروفا عن المتود الحمر أنهم كانوا يصنعون السفن ويرتادون المحيط . إذن من أين جاء هؤلاء البيض . لابد أن تكون هناك جماعة أخرى من البيض كانوا يسكنون أمريكا الجنوبية قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون . أما الأساطير فنقول إن هناك جماعة من البيض جاءوا من بعيد . وأساطير أمريكا الجنوبية تقول إن جماعة من البيض دارت بينهم وبين السكان الأصليين مذابح . هذه المذابح جعلت البيض يهجرون أمريكا ويتجهون إلى هذه الجزر . وكان يزعم هؤلاء البيض الزعيم الإله « تيكي » . . وكانوا يطلقون عليه كلمة « إله » العربية هذه . وهذا غريب !

ولاحظ نور هابر دال أن هناك تماثيل عجيبة الشكل والحجم . وأن بعضها في غاية الدقة . وأن هذه التماثيل شبيهة بالتماثيل الموجودة في بيرو في أمريكا الجنوبية . مع أن المسافة بينهما أكثر من أربعة آلاف ميل . . ولاحظ أن لغة جزر هاواي تشبه لغة جزر تاهيتي مع أن المسافة بين هذه الجزر تعد بالآلاف الأميال .

إذن لابد أن تكون الشعوب التي عاشت في هذه الجزر واحدة أو أنه شعب واحد يختلف عن كل الشعوب الآسيوية ..

ثم اكتشف هايردال أنه إذا كان هؤلاء البيض الذين سكنوا أمريكا الجنوبية وهاجروا إلى هذه الجزر لم يتركوا سفنا كبيرة فاما المانع أن يعبروا المحيط الهادى في زوارق صغيرة ؟

وكل المعلومات القديمة تؤكد أن أبناء الشعوب الغربية لأمريكا كانوا يستخدمون خشب البalsa في صنع الزوارق . إذن لابد من القيام بالتجربة وأعلن عن رحلته .. وتمثلت الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى . وتقدم هايردال إلى وزارة الطيران الأمريكى فساعدته وأعطته زوارق لم تجربها بعد . ووزارة التموين البريطانية أعطته أنواعا من الحبوب تريد أن تجربها .. ثم تقدم خمسة رجال آخرون يريدون أن يساهموا في هذه الرحلة .. أصبحوا ستة الآن . خمسة من النرويج وواحد سويدي .

واعترض هايردال على تزويد زورقه بالحديد بجهاز لاسلكى لأنه أراد أن يعيش في نفس الظروف التي عاشها المهاجرون البيض من ألوف السنين . ولكن زملاءه نبهوه إلى أن هذا الجهاز لا يقيد في أى شئ . لأنهم إذا غرقوا فلن يستطيع أحد إنقاذهم . ولكنه ضرورى لكي ينقلوا إلى العالم أحوال الطقس . أو ليصححوا مسارهم .. وأخيرا وافق ..

إذن لا يستبعد أن يكون المهاجرون الأمريكان البيض قد استخدموا زوارق صغيرة . وعاشوا على صيد السمك وشرب ماء المطر . وقطعوا كل هذه المسافة . ممكن .

وظهرت مشكلة جديدة : من أين يأخذ بخشب البalsa ؟ فهذا الخشب لا يوجد في بربو التي تقع على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية . وإنما يوجد في الداخل في دولة إكوادور . وعليه أن يذهب إلى إكوادور ويقطع أشجار البalsa ثم يقوم بتحميلها في النهر إلى الشاطئ .. وعلى الشاطئ يجب أن يصنع هذا الزورق مستخدما الفأس والسكين . وفي ميناء « كالا » بدولة بربو : جلس

الستة يصنعون زورقهم من ألواح خشبية متراصة . لا مسامير ولا أسلاك .
 وإنما من الخبال وصنعوا أيضا شراعا مثلثا . وآخر مربعا . واستخدموا المجاذيف .
 وكانت الدفة مجدافا أيضا . وجعلوا فوق الألواح الخشبية غرفة ينامون فيها .
 وكان العالم كله يتابع أخبار هؤلاء المغامرين الذين وصفهم الأديب الإنجليزي
 سومرست موم : بأنهم أنعموا الروح الأوروبية التي انهارت بعد الحرب العالمية
 الثانية . وأن الذين عندهم بلادة ذهنية فقط هم الذين يستطيعون تجاهل مثل هذا
 العمل العظيم ..

وفي أحد الأيام جاء وزير بحرية بيروت . ونظر إلى الميناء وإلى أرصفة
 السفن . وسأل عن الزورق الذي سوف يعبر المحيط . ولكنه لم يستطع أن يراه
 وأخيرا دلوه على كومة من الخشب البني اللون متراصة بعضها إلى جوار بعض .
 فضحك ثم طلب إلى هؤلاء الستة أن يوقعوا على وثيقة تقول إن هذه الرحلة على
 مسئوليتهم وحدهم !

وجاء يوم السفر . وكان ذلك يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ .

وتطلع الناس إلى الزورق الصغير الذي اختار له هايردال اسم « كون
 نيكى » أى إله الشمس .. ثم صعدت ثلاث فتيات جميلات إلى ظهر الزورق
 الصغير .. وجاء فنش وسحبه إلى خارج الميناء .. وبعد ذلك نزلت الفتيات
 الثلاث .. وركب البحارة الستة .. وتعالى الصيحات والموسيقى تملأ للمغامرين
 النجاح في هذه الرحلة المجهولة وتطلع هؤلاء الشبان إلى الجبال العالية . إنها
 ما تزال راحئة وظلت راحئة أمامهم ساعات طويلة .. والزورق لا يتحرك من
 مكانه . حتى هبت نسمة .. وامتأ الشراع . وراحوا يلقون قطع الورق ليروا
 حركة الزورق .. وكان يتحرك .. وجاء الليل واخفى كل شئ بعيدا .
 وقد اقترح عليهم بعض الأصدقاء أن يستخدموا المصابيح الكهربائية لئلا
 لأنهم يمشون في طريق ملاحى . فقد نفرقهم السفن الكبرى دون أن تراهم
 أو تدرى بهم . وقد عارضوا أول الأمر . ثم وافقوا .. وبقياس سرعة الزورق

لاحظوا أنه سار في الأربع والعشرين ساعة مسافة ٥٥ ميلا أي بمعدل ميلين في الساعة .. وجلس البحارة على صناديق الطعام .. وقد ارتبط كل واحد منهم بحبل حتى لا يسقط في الماء .. وناموا مهمومين جميعا .. إلا واحدا .. هذا الواحد هو بيتاء في قفص كان يثاقل الأسماك التي تلتاثر من الماء وتسقط على الزورق .. وأحس البحارة الستة أن العزلة تامة ! لا أحد .. لا شيء .. البحر حولهم .. لا نهاية لأي شيء .. وقد قدروا هذه الرحلة بحوالي سبعة وتسعين يوما إذا لم يحدث شيء غير عادي ..

وتوالت الليالي ..

وفي إحدى الليالي صحا واحد منهم على شيء بارد يلعب في قفاه .. وكان الليل أسود .. وصرخ .. وأشعل عود كبريت .. فوجد شعبانا طويلا .. وفي فم الشعبان سمكة .. سقطت السمكة .. ثم خرجت من فم سمكة أخرى .. وتعاونوا على قتله .. وكان من الثعابين النادرة .. أما هذا الصوت الغريب الذي يسمعونه ليلا إلى جوار الزورق فهو : سحك الفرش .. لم يفارقهم ليلا أو نهارا .. أما هذه الحزير الصغيرة التي تعلو وتهبط فهي عشرات الحيتان ..

وبعد ذلك لم يعرفوا النوم العميق طعما .. فهم يتوقعون رياحات مفاجئة شاذة كل ليلة : صوت سحك فرش .. ثعابين .. أخطبوط .. وفي هذه المناطق أنواع من هذا الأخطبوط قادرة على أن تحطم عنق أي إنسان يذراعين من أذرعها فقط !

وحاول هايردال أن يخبر أخشاب الزورق .. وكان يخشى أن تتمزق الحبال .. وفي هذه الحالة يصبح الزورق مجموعة من الحبال والألواح .. ولكنه لاحظ أن الحبال قد انتصفت بالأخشاب تماما .. وأنه لحسن الحظ قد اختار نوعا من الأخشاب الخضراء .. ولو كانت هذه الأخشاب جافة لشربت الماء .. ولكن هذه الأخشاب الخضراء قد وقفت في وجه الماء ولم تفص بالزورق إلا مليحترات قليلة .. مجرد صدفة سعيدة !

أما حياتهم اليومية فهي صيد السمك .. والسباحة إلى جوار الزورق أحيانا وتناوب الدفة ساعة أو ساعتين وبعد ذلك يستريحون .. وفي أثناء العواصف يرتبك النظام ويصحون جميعا ويهاكون . وفي إحدى المرات سقط واحد منهم في الماء . وكان المخرج عاليا . ولم يفلحوا في إنقاذه . فهبط واحد منهم وقد لف حبالا حول وسطه .. وسحب .. وحاول الجميع سحب الاثنين وفي مرة ثانية سقطت أغطية واحد منهم قال يلتقطها من الماء . وأنقذوه بصعوبة وكان وراءه سمك القرش .. وفي آخر لحظة قفز إلى الزورق !

وعندما يصغر الجو ، يضجكون ، ويلعبون . ويستمعون إلى الموسيقى ويتصلون بهواة اللاسلكى . وكان واحد في العالم كله هو الذي يعرف مكانهم وأخبارهم أولا بأول وقد لاحظ هايردال أن الصور التي يلتقطها عندما يقوم بتحميضها تكون باهتة .. فما السبب ؟ واتصل باللاسلكى . وعرف عن طريق أحد الخبراء أن جهاز التحميض ساحن . ولذلك يجب تبريده . وأخبروا طريقة للتبريد للحصول على ثلج أيضا !

وكانت معهم أدوية من كل نوع .. ولكن في إحدى الليالي شكا واحد منهم من مفعص شديد . فاتصل باللاسلكى بأحد المستشفيات في أمريكا وودت عليه إحدى الطبيبات بأن هذه هي أعراض مصران أعور . وجاء رد البحار بأنه تخلص من المصران الأعور منذ سنوات .. فقالت الطبيبة : لابد أن لديك أعور آخر .

وعاد البحار يقول لنا في المحيط وأن الأمر خطير . وأنه لا توجد أية وسيلة للإنقاذ .. فاعتثرت الطبيبة عن هذه المداعبة . وأيقظت طبيبا عالميا في مستشفى مايو هـ الشهير . وطلب إليه الطبيب أن يكف عن التدخين ..

وتوقف عن التدخين في ذلك اليوم وذهب المفعص ؟

ومضت أيام نحول فيها الزورق إلى حديقة نباتات . فالبذور التي حملوها

معهم قد نمت . والبصيلات قد طالت .. حتى اليقاف هو الآخر قد ازداد
مرحا وسعادة ..

وجاءت موجة عالية غاطحت به هو والقفص في الماء . وكانوا يحملون
له بعروس في إحدى الجزر !

وبين الحين والحين يأتي هايرداك يسكين ويدفها في خشب الزورق
ليعرف مدى تشبعه بالماء . وكان يلاحظ أن قلب الخشب جاف أصم تماما !
وفي إحدى الليالي القمرية وراح واحد منهم يردد أغنية شعبية ترويحية
تقول : كان ذلك حور علمي ..

ثم توقف فجأة وسأل : من هذا الجنون الذي أقنعنا بأن نجى إلى هذه
المناطق الموحشة وبهذه الصورة ؟ !

وضحك الجميع .

وحاولوا نضيق الوقت . فتساءل واحد منهم : ما هي أمنيته . فأجاب :
أن أصل إلى أية جزيرة ؟

وقال الثاني : أن أنام وأصحو على نهاية هذا الجنون ؟

وقال الثالث : أن يجي حوت ويحمل سفينتنا على ظهره بقية الطريق .

وقال الرابع : أن أعتمد على الشاطئ !

وقال الخامس : أن أتزوج .

وقال السادس : أن يكون كل ما أراه حلما !

وصاد الأول بقول : أما أنا فأميتي ألا أرى وجوهكم !

وتلفت واحد يصرخ ويقول : انظروا .. انظروا كيف تحول الحلم إلى

حقيقة !

ونظروا .. وكانت مجموعة من الطيور .. إذ أن هم فرييون من أرض ..
من جزيرة . وكان ذلك في نهاية يوليو .. أي بعد حوالي تسعين يوما من الرحلة ..
وصرخوا من الفرح والسعادة . وعادوا إلى خرائطهم . وقالوا لابد أنها جزر
بوكايوكا . واقتربوا منها . ومروا بها . ولم يتمكنوا من الاقتراب لوجود محصور
ناثمة وشعاب مرجانية حادة . ودفعهم الريح بعيدا عنها ..

وفي اليوم السابع والتسعين اقتربوا من جزيرة أتاكانو .. ولاحظوا أن رجلا
كبيرا جاء في زورق صغير واقترب منهم . وقال لهم : مساء الخير .. قالها
باللغة الإنجليزية واندثروا وتحذروا إليه بالإنجليزية . ولكنهم اكتشفوا أنه لا يعرف
إلا هاتين الكلمتين . وعرفوا أن هذه جزر أتاكانو .. ولم يتمكنوا من الاقتراب
منها .

وحاولوا الدوران ..

ولكن الموج كان عاتيا . وتمزقت الحبال .. كأنها أحست أنها قد أدت
واجبها وأكملت . وأطلقت للألواح الخشبية حرية الحركة . ونحطم الزورق
وانتهت الرحلة ولكن البحارة قد وضعوا الأجهزة في علب لا ينفذ إليها الماء
وألغوا بها في الماء .. في الضبط .. ثم جاء رجال الجزر وجمعوا الألواح .
وجاءت سفينة ونقلت الحطام إلى جزر تاهيتي وبعد ذلك حملوها إلى
أوروبا .. ووضعت هذه السفينة التاريخية في متحف في مدينة أوسلو عاصمة
النرويج ..

أما الرحلة فقد نجحت . وأما النظرية فلا تزال حائرة بين الذين يؤيدونها وبين
الذين يرفضونها .. ولكن بقيت مشكلة الإله الأبيض الذي أقيمت له القاعات
الغريبة .

لقد كان لغزا .. هل هو رجل أبيض هل هو واحد من الذين هبطوا من السماء؟
وفي آخر ليلة لم .. تلقوا رسالة من أحد هواة اللاسلكي يقول : أنا أعرف

مكانكم الآن تماما .. الصوت واضح .. فقالوا له : انتهت رحلتنا .. فقال لهم :
مبروك .. هل تسمحون لجيني أن تبعث لكم بقبلة ؟ .. فزاحموا على
الجهاز وقالوا : دعها نقبلنا جميعا في وقت واحد .

وسمع الجميع صوت قبلة ..

ثم سأله : كم يبلغ عمر جيني ؟

فقال : إنها ليست كبيرة .. إنها جديتي عمرها تسعون عاما !

فضحكوا قائلين : شكرا لك يا جيني .. نحن نتمناه لك بهذا الرقم أيضا !

الطبيب الذي قرر
أنه يعبر المحيط غريقا !

بالصدفة قرأ صحيفة تقول إن رجلا استطاع أن يمتنع عن الطعام أربعين يوما ولم يموت . كان يشرب الماء فقط . وعند نهاية هذه المدة سأله : ماذا تريد قال : أن أقتل زوج أختي ! ولما سئل عن السبب . قال : لأنه هو صاحب فكرة أن يضرب الإنسان عن الطعام مقابل مبلغ نأفه من المال !

ومعنى ذلك أن هذه الأيام الأربعين لم تكن مجرد جوع مستمر . وإنما كانت جوعا وعذابا وانتظارا للانتقام !

وفي نفس اليوم تسلم مستشفى (بولون - على - البحر) في فرنسا جث ٤٣ غريفا .. وكان ذلك في أحد أيام سنة ١٩٥١ . وتشاء الصدفة مرة أخرى أن يكون في استقبال هذه الجثث طبيب شاب اسمه : آلان بومبار . وعلى الرغم من أنه طبيب ، وأنه ككل الأطباء : قد اعتاد على الدم والصرخات والآفات فإنه أصيب بحالة من القزع .. لقد رأى على وجوه الفرق أشكالا وألوانا من الخوف والصراخ المكثوم . فلبس أبشع من أن يموت الإنسان غريفا : أى بعد صراع بالسر مع البحر والشمس والعطش .. إنها العزلة الموحشة التي تقتل أى إنسان !

وكان هذا الطبيب مشغولا في ذلك الوقت ببحث عن الجوع والتضور . ماذا يحدث للإنسان الجائع ؟ وكم يوما يحتمل الجوع والعطش . فهو يعلم أن أعمال إنقاذ الفريق تتوقف بعد عشرة أيام . وبعدها يستحيل على الجسم الإنساني أن يقاوم .

وتحطرت له فكرة : ولكن لماذا لا يقاوم الإنسان ويلات المحيط . إن

المحيط ليس عميقا . فثمة أسماك من الممكن أن يأكلها . وهناك ماء المظفر من الممكن أن يشربه .

وقرر الطبيب بومبار أن يدرس السمك . ومن دراسة السمك عرف أن السوائل الموجودة في داخل السمك تحتوي على نسبة قليلة من الملح . ومعنى ذلك أن هذا السائل يمكن للغريق أن يمتصه . ففي استطاعة الغريق أن يعيش على عصير السمك .

ودارت في رأسه فكرة أخرى : لماذا لا أجرب حياة الغريق . لماذا لا أحبس كغريق وأكتشف بنفسى ماذا يحدث لأذى إنسان لو غرق . إن كل ما سوف أكتشفه سيؤدى إلى إنقاذ ألوف الناس !

ومن المؤكد - من وجهة نظره - أن أى غريق ليس غريقا تماما .. فأمامه فرص للنجاة لا شك فيها ؟

وأعلن عن فكرته ..

ونشرتها الصحف . واتصل به أحد الأثرياء الهولنديين . وطلب إليه أن يجرب أنواعا جديدة من زوارق النجاة المصنوعة من المطاط . أما الزورق فهو عبارة عن طوف له موتور . ركبه في بحر عاصف . ونجحت التجربة . وأعلن عن حاجته لزورق أكبر يستطيع أن يواجه ويقاوم ويطفو على أمواج المحيط . وكما هي العادة تقدم له أناس كثيرون متحمسون ..

وسافر الطبيب إلى مدينة موناكو . وفي هذه المدينة أقام معسلا صغيرا في متحف الأحياء المائية . وهناك أجرى تجارب جديدة على الأسماك . واكتشف أن السمك غنى بالبروتينات الضرورية . ووجد فيه كمية كبيرة من الدهون وكذلك فيتامينات أ و ب و ج و د . أما فيتامين ج فوجوده في الأعشاب البحرية . واكتشف أن السمك به من ٥٠٪ إلى ٨٠٪ من السوائل . ومعنى

هذا أن سبعة أوطال من السمك التي بصيدها أى غريق في اليوم تكفيه للشرب
٢٤ ساعة .

ولكن ماذا حدث إذا مضت أيام دون أن يصيد الغريق سمكة واحدة ؟
في هذه الحادثة يجب أن يشرب من ماء البحر . ولذلك يجب أن يدرس كمية
ماء البحر التي يتحملها الغريق . ومن المعروف أن الامتلاء بماء البحر يؤدي
إلى الالتهاب الكلوي والموت الأكيد . غير أن تحليله لماء البحر قد هداه
إلى أن كوبا ونصفا من ماء البحر يوميا لمدة خمسة أيام لا تهدد الكلبتين !
وانتهى الطبيب بومبار إلى أن وجبة متوازنة من الطعام سوف تمكنه من الحياة !

أما القرار النهائي الذي اتخذته فهو : سوف أعبّر المحيط غربا وفي نفس
الطريق الذي سار فيه كريستوف كولومبس عندما اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ .

وعاد الطبيب بومبار يراجع معلوماته كلها .. فوجد أنه قد درس الأسماك
دراسة وافية ودرس الأمواج واتجاه الرياح . والتيارات المائية . واستطاع بعد
ذلك أن يقول لبعض أصدقائه : إن معلوماتي عن الملاحة أوسع وأعمق من
معلومات كولومبس !

وكان خاطئا في هذا الوهم !

ولم يزد كثير من أصدقائه في أن يصارحه بأنه شاب مجنون . وهو على
يقين من أن أصحاب الأفكار المجنونة هم الذين أنقذوا البشرية مئات المرات .

أما الزورق الذي اختاره فكان من المخطاط على شكل حدود الحصان .
وله سارية وشراع ومزود بمعلومات من المخطاط . أما هو فقد لف حول جسمه
أطواق النجاة . واختار لهذا الزورق الصغير اسم « القاجر » و « الفاجرة » ..
ومن المضحك أن أحد الذين أعجبوا بهذه المغامرة قد عرض نفسه لأن يكون طعاما
للسمك ثم يحدث العالم بعد ذلك .. عما يشعر به أي إنسان وهو يموت قطعة
قطعة !

وقام الطبيب بومبار برحلته العذراء من ميناء مونكو يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٥٢ . . إلى البحر الأبيض متجها إلى جبل طارق . ومعه صديق إنجليزي . استغرقت الرحلة ١٢ يوما . أكلا فيها الأسماك وشربا ماء المطر وكانت الأعشاب البحرية لها طعم الجمبرى أو الكابوريا المسلوقة . وقد أصيب الاثنان بالتهابات شديدة في الفم . وعندما وصل الاثنان إلى جزيرة مايوركا الأسبانية كانا قد ضريا رقعا قياميا في البقاء في الماء والحياة على حيوانات البحر .

ومن جزيرة مايوركا جاءت سفينة وحملت الزورقي الفاجر إلى جزر الكناري ، ومن هذه الجزر خرج كولموس في رحلته المشهورة . وهرب الصديق الإنجليزي . وفرر الطبيب أن يمضي وحده . عربقا . أما الأشياء التي حملها معه فهي الضروريات فقط . فمعه صندوقان : امتلا بالأطعمة المحفوظة وقد كتب بها قائمة . وطلب إلى الجهات المستولة أن توقع عليها . فقد وعد الطبيب ألا يلجأ إلى هذه الأطعمة إلا إذا كان مهددا بالموت وصندوق آخر به بعض العقاقير الطبية . ثم حمل معه ثنتين من الخبثان وخرطوشة كبريت وإبرة وبكرة خيط وراديو بطارية . ومعه ورق . وبعض الكتب .

وفي يوم الأحد ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٢ خرج الزورقي الفاجر مسحوبا إلى خارج جزر الكناري . والناس يهتفون ويصرخون ويلقون عليه الورود . . أما كل السفن الكبرى عابرات المحيط فقد أطلقت صفاراتها تحية للمغامر الشاب . ووقف رجال الدين يتطلعون إلى أسماء يدعون الله أن يوفقه في هذه الرحلة الإنسانية !

وعاد اللئس الذي صبه إلى خارج الميناء . وبعد ذلك أصبح الطبيب وحده تماما . وكان الجو جميلا هادئا . وأوفد فانوسا صغيرا حتى لا ينططم به السفن الكبرى . ووضع رأسه على طوق نجاة . وترك الزورقي للموج واتبات البحرية . وفي هذه اللحظة فكر في زوجته . وقال : مسكينة أن تترجى

طبيبا مجنوننا مثل . . ألم أقل لك أن ابن عمك كان أفضل . . أنه قروى صاحب
دواجن وأبقار وحدائق . وسوف يعيش ويموت إلى جوارك . . ولكنك
أنت التي رفضت . إذن . . هو قدرك أن تنزوحى طبيبا لا يعترف الطب وإغا
يهوى الملاحة ويعترف المجنون ! مسكينة !

ثم اكتشف أنه هو المسكين حقيقة . فلن يرى في هذا المحيط سفينة
ولا طائفة — كما اعتاد أن يرى في البحر الأبيض . وإنما ههنا صمت ولا نهاية
لأى شيء . . لا نهاية للبحر ولا للسماء ولا للهواء . ولا لتقزع . وحده تماما .

وطلع الصباح ولم تتحرك الريح . . ولكنه لاحظ أن الزورق (الفاجر)
قد انجبه إلى الجنوب أكثر مما يجب . وجاء اليوم الثالث . ولا ريح . كل شيء
ساكن جامد ميت كأن الكون كله يتفرج عليه . . ولم يتمكن من صيد سمكة
واحدة . وشرب نصيبه من ماء البحر . وفي الليل هبت الرياح التجارية
واشتدت . وظل طول الليل ماهرا . والحقيقة أنه أوقف بعنف من نومه . .
فقد غطت الأمواج ظهر الزورق . ومزقت الرياح شراع الزورق أيضا .
وراح يلقي بالماء من فوق ظهر الزورق إلى المحيط . وكان الجو باردا .
وقد لسهه البرد . وبعد أن تأكدت الريح من أنه أصبح يتلوى كالسمك ،
هدأت حتى الموت . وفي النهار نحون الزورق إلى ملاحه . . كل شيء يغطى
بالملح . وهو أيضا قد غطاه الملح . ولا أمل في إزالته .

وعندما طلع النهار أصبح واضحا أن الريح قد مرقت الشراع . واضطر
الطبيب إلى إلقاء المرساة في الماء ، فبنوقف الزورق حتى يتمكن من إصلاح
الشراع . وراح يحيط هذه الثقوب ولكنه لا يدري ما الذي سوف تفعله
الرياح مرة أخرى بالشراع .

وفي صباح اليوم التالي لاحظ بعضا زرقاء متحركة تحت الماء . . فأدرك
أن طابورا من الأسماك في الطريق إليه . ووراء هذه الأسماك جاءت الدرافيل .

وربط مسكينا في شداف . ثم أصاب بالمسكين درقبلا . وقتله . . وصحبه
إلى ظهر الزورق . . أخيراً أوجد طعاما . وجبة واحدة على الأقل !

وكان الطبيب يظن أن الوحدة لا تخيف . وكان هذا رأيه وهو على مرأى
من الشاطئ " والسفن والطائرات . أما الآن . . فلا شيء " . . أنه شيء تافه
بين عالم رهيب لا يمكن أن يوصف !

وظلت الدرافيل تنابح الزورق المفاجر ولكن يحرص على مسافة منه .
أما الأسماك الطائرة فقد كانت ترتاد الزورق ذهابا وإيابا . وتعلوه وتتساقط
عليه ثم ترتد على الماء ولها طعم الفسيخ ورائحة الكلاب الميتة !

وفي يوم ٢٧ أكتوبر كان عيد ميلاده فقد بلغ الثامنة والعشرين في هذه
المخيلة وأقام لنفسه وبنجة . فاصطاد طائرا بحريا . وأكل نصفه في العشاء .
وترك النصف الآخر للغداء . . ولاحظ وهو يتقلب في الليل أن هناك أشباحا
على ظهر الزورق روح ونحي . . هل من المعقول أنها عفاريت البحر ؟
هل صحيح ما يرى ؟ أم أن الذي يراه خداع بصري فقط . فاشعل عودا من
الكبريت . . ووجد أن هذا الضوء القسودي ينبعث من النصف الآخر
للطائر ؟

ونظر في ساعته الاوتوماتيكية فوجدها قد توقفت تماما . وهذه كارثة
لم تكن في حسابه . فبتد الآن ان يعرف الوقت . ولئن يعرف مرعة الزورق
في المفاجر . . .

وغرض على نفسه نظاما قاسيا : أن ينهض مع شروق الشمس . ويصيد
السماك الطائرة ويشرب أكبر كمية من ماء المطر . ويسريح ساعة . ثم ينهض
بعد ذلك ويحدد المسار الصحيح لهذا الزورق الذي يبلغ طوله ٢٨ قدما .
ويبدو في بعض الأحيان أنه قدم واحدة ! وعليه بعد ذلك أن يقرأ في أحد
الكتب . ثم يسجل ملاحظاته . فقد وعد بتأليف كتاب عن هذه المغامرة .

وفجأة ألقى الكتاب من يده . . فقد لاحظ أن سمكة قرش تحاول أن تمزق المطاط . ولكن لحسن الحظ كان المطاط أكبر من فمها . فركبته السمكة ومن ملاحظاته أيضا أن سمك القرش جبان . يكنى أن تدق رأسه وبعد ذلك يتحول إلى قطعة من اللحم الطافية .

أما الذي حدث له بعد هذه الوجبات البحرية فواضح تماما : فأظافره تكسرت . وفقد ثلاثة أظافر والنهيت مؤخرته وظهرت عليها التامامل . وكان من الصعب عليه أن يجلس . وحتى لا يسقط من الإرهاق فإنه قد ربط نفسه بسارية الزورق بحبل متين . .
ورغم ذلك كان شديد التفاؤل . .

وهبت الرياح التجارية . وتحرك الزورق المفاجر بسرعة أكبر . وكان الطبيب على يقين من أنه سوف يرى الأرض بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر . ولا بد أنه افتتح في هذه اللحظة أن الملاحة ليست سهلة . ولا أن معلوماته أكثر من معلومات كولجوس .

وفي يوم الأحد ٧ نوفمبر كان من الممكن أن تنتهى المرحلة تماما . نهاية مفاجئة . فقد سقط طوق النجاة الذي كان يلقه دائما حول جسمه . وألقى بنفسه في المحيط ليأمن به . وهنا ابتعد الزورق قليلا . . قليلا . . ان المسافة التي يراها الآن بينه وبين الزورق يمكن اعتبارها ألف متر . . مليون متر . . كأن الزورق غرر أن يعبر المحيط وحده . . حاول الطبيب أن يدرك الزورق فلم يستطع . . وهذا فقط تنطلق القوة الكامنة الاحيائية الموجودة في جسم الانسان . والتي لا تظهر إلا في مواجهة الموت المحقق . ضرب بزرعيه ورجليه . . ولكن الزورق بعيد . . هنا حدث المعجزة لقد انقطع الحبل الذي يمسك المرساة . . سقطت المرساة في المحيط أما الحبل فقد طفا على الماء . . وامتدت يد الطبيب وأمسك الحبل . وتوقف الزورق تماما . واقترب الطبيب وصعد إلى الزورق . . واستأنف الرحلة الجنوبية !

وفي صباح اليوم التالي رأى سفينة من بعيد . . حاول بكل الجهد أن يلتفت
النظر إليه . . ولكن السفينة مضت ولم يلاحظ أحد هذه البقعة السوداء
فقال بومبار لنفسه : مسكين يا أي غريق !

ورأى أسراب الطيور . أدرك أن الأرض قريبة . . ربما على مدى
أسبوعين أو ثلاثة . وأصيب بالتهاب شديد في أذنه - التهاب في الغدة النكفية .
وكان يأمل أن يصل إلى جزر الهند الغربية أي على مقربة من الساحل الأمريكي
فيما بين ٢٣ و ٣٠ نوفمبر . ولم يخطر على باله أنه سوف يظل في المحيط حتى
نهاية ديسمبر !

وظلت الدرافيل تتابع الفاجر . . وفي يوم ٨ نوفمبر لاحظ أن الراديو
الذي أخذ صوته يخفت ، قد فقد النطق تماما . وهذه كارثة أخرى !

. أما في يوم ١١ نوفمبر فقد هدا البحر . وسكت الريح . وتحول الماء
إلى لون الزيت ونعمته . وعرف بومبار أن هذا هو الهدوء الذي يسبق المطر ؛
فخاض ملاياه تماما . ووقف عازيا وزل المطر . واستحم بالماء العذب .
وراح يغسل الملح الذي التصق بجسمه وأشعل فيه النار . وراح يمسح يديه
وبشرب . . وملا إظارا من المطاط بالماء العذب . . ونكاثرت الأمطار
وغطت الزورق وكاد يغرق في الماء الحلو ! وراح يصيحك في جنون
وهو يقول : إنني أكاد أغرق مرتين ثم يقول : أنا الرجل الوحيد الذي يلقى
بالماء الحلو في الماء المالح !

أما هذا الصوت الغريب الذي سمعه . . وهز الزورق بعنف . فليس
المطر طبعيا . ولا الريح . فلا ريح . ولا هي درافيل إنها بعيدة . ولكن هناك
أسمكا كبيرة اسمها أبو سيف قد حطمت الدفة . وبعد ذلك اتجهت إلى الزورق
نفسه . وهي تحاول شيئا آخر . ولكنها لم تفلح فالتجعت بعيدا عن الزورق !

وتوقف المطر بعد يومين وبدأ يشعر بالآلام شديدة في كل مكان . فجسمه

فقد تغطي بالدخان . . وأظافره تساقطت وتورمت أصابعه كلها . وجلد قدميه
بدأ يتساقط . . وأحس كأن أعصابه كلها عارية ملتهبة . . والملح يشويها .

وظهرت الشمس فكانت أقسى من الملح . وراح يتوارى منها بكل ما لديه
ولكن لا أمل . . انه قطعة من النار تهرب من الماء إلى النار . . وأحس أنه
فقد الاتجاه تماما . فهو لا يعرف أين هو . . ولا أين تقع الأرض القريبة .
ووقف الفاجر تماما . لا يتقدم . .

وفي يوم ٢٣ نوفمبر لم تظهر الأرض كما كان يتوقع . وفجأة في ذلك اليوم
تحول النهار إلى ليل . والبحر إلى عيط من الحبر الأسود . وهبت عاصفة
خفيفة واحتمى بومبار بالشرع . ولث جزءا منه حول ذراعيه التي تسيل
منها الندماء . وتحرك الفاجر بسرعة . . وسكنت العاصفة وذهب الشر !

ولم يكن يتصور أن الأسوأ ما يزال في الطريق إليه . . فقد رأى طيوراً
كثيرة . بل ورأى علفقات من الخشب والورق . . ورأى فراشا . ولاحظ
أن هناك نسج عنكبوت على سطح الماء . وفتح كتابا عن المحيط والرحلات .
والكتاب يقول إن هذه العلامات تدل على أن الشاطئ لا يبعد عن مائة ميل
وجاء يوم ٤ ديسمبر وهو يعاني من الإسهال الشديد . . وكان يحلم بكوب
من اللبن البارد . . ويعلم بدش من الماء البارد . . والنوم على فراش لبن
داق . . وطرده هذه الأحلام التي تعذبه . واكتفى بأن تصور أن زوجته
تستمتع بهذه الأشياء مهما كانت حزينة عليه . على كل حال إذا كان عاجزا
عن أن يمسك القلم ويكتب حرفا واحدا . فقد تطلع الشمس أو بعد غد . .
أو بعد بعد غد ، إنه لم يفقد الأمل . ولن يفقده !

وفي الساعة العاشرة صباحا يوم ١٠ ديسمبر رأى سفينة . واقترب منها
وراح يصرخ . والقبطان يصرخ في الميكروفون : هل أنت في حاجة إلى
مساعدة ؟ وكان رد الطبيب الفرنسي بومبار : أريد أن أعرف خط الطول
والعرض !

وكان رد القبطان : أنه ٤٩ تقريباً !

وأدرك يومبار أنه أخطأ الحساب عشرة خطوط على الأقل . وعلى ذلك فالمسافة التي بينه وبين الشاطئ لا تقل عن ٦٠٠ ميل .

ودعاه القبطان إلى ظهر السفينة . وقبل الدعوة . ورأى صورته المفعرة في المرآة وأخذ دشا بارداً . ثم استأذن القبطان في أن يرى نفسه في المرآة مرة أخرى : الوجه شاحب . العينان غائرتان . اللحمامل قد غطت كل جسمه . على كل حال أنه ما يزال حياً . . وفي استطاعة القبطان أن يبرق إلى زوجته أنه ما يزال حياً . وأنه في طريقه إلى الشاطئ !

وعرض عليه القبطان أن يحمله إلى الشاطئ ولكن يومبار ، أصر على اكتمال الرحلة ثم أدخله القبطان في قاعة الخرائط . وعرف يومبار لماذا أخطأ في حساب خطوط الطول والعرض . وأيقن أن المعلومات البحرية التي عنده قليلة جداً . وأن المعلومات القليلة أكثر خطورة من البحر !

وفي ليلة الكريسماس وصل الفاجر إلى جزر بارابادوس . . وكادت الصبحور البارزة أن تحطمه . ولكنه رغم ذلك نجح تماماً . لقد نقص وزنه ٥٥ رطلاً . وأصيب بفقر دم حاد وانخفض ضغط الدم . وضعف بصره ولكنه رغم كل شيء قد ظل حياً ٦٥ يوماً في البحر ، وجاءت هذه المقامرة دليلاً على أن الغريق يجب ألا يفقد الأمل . . وأن الموت أبعد بكثير جداً مما نتصور !

معهنا...
إلى ألفي مليون سنة!!

يقال أن النبي عليه السلام يوم موقعة حنين أعطى أباه سفيان بن حرب
مائة من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى العباس
ابن مرداس أقل من مائة . فغضب ابن مرداس ووقف بين يدي رسول الله
يقول متحدثا عن مزايده وعيوب الآخرين :

وما كان بلدر ولا حابس

يفوقان مرداس في جمع

وما كنت دون أمرى منهما

ومن تضع اليوم لا يرفع

فضحك النبي وجعل الإبل لهذا الشاعر مائة |

أهم ما في هذه الرواية التي جاءت في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة
هو اسم : مرداس . .

وكلمة « مرداس » هذه معناها : قطعة الحجر التي كان يلقيها العرب
في البئر ليعرفوا إن كان فيها ماء . وكانت هذه صناعة ابن الشاعر .

ومن الغريب أن كلمة « مرداس » هذه قد جاءت في قصة عجيبة عن
الإسكندر الأكبر . فقد كان الإسكندر يجلس على شاطئ البحر الأبيض
والتي حجرا . . لم يطلب أن يركب زورقا . . وألقى حجرا . ولم يكن من عادة
الناس حوله أن يسألوه عما يفعل . وفي إحدى المرات أراد أن يعرف عمق

الماء عند الشاطئ؛ فآلئى حجراً وراء حجر . . . ولاحظ أن بعض الأحجار تختفى بسرعة وبعضها يختفى ببطء . . . ولم يستطع الاسكندر أن يستنتج أن جاذبية الأرض هي المسئولة عن السرعة . . . ولكن رجلاً قال له مرداس . . . أو مدرياس استطاع أن يربط الحجر في جبل . . . وأن يعرف عن طريق طول الحبل عمق البحر . وكانت هذه أول محاولة في التاريخ لمعرفة أعماق البحار . . . فقط أعماق البحار . . .

وإذا كنا في العشرين عاماً الماضية استطعنا أن نطلق سفن الفضاء إلى ما حول الأرض وإلى الكواكب الأخرى ، فإن دولتين فقط في العالم هما القادران على ذلك . . . فالأموان باهظة . . . والفوائد العلمية لا يمكن أن نقدرها . ولكن من المؤكد أن الذى ننفعه على رواد الفضاء سوف يعود على دافعى الضرائب بالخير العام بعد عشرات السنين . . .

وإذا كنا استطعنا أن نرسم الهيئة الفلكية : النجوم والكواكب القريبة والبعيدة ونرسم الأرض بوديانها وجبالها وغاباتها وأنهارها ، فإن البحر ما يزال صراعاً غامضاً . . . اننا فقط نتمدد على شواطئه ونعبثه وأمامه نشعر بالجمال والجلال . بالتمتع والرهبة معا . . . ونرى في أمواجه التى تضرب الشاطئ محاولة أبدية يائسة : فلا البحر زحزح الشاطئ ، ولا الشاطئ قد أسكت البحر . . .

وقديماً جداً حار الملك سليمان وهو ينظر إلى الأنهار وهي تصب في البحار وكان يقول : لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت . ولم يكن الملك سليمان يعرف قانون تبخر المياه من البحار ومقوطةا مرة أخرى على أعالي الجبال إلى الأنهار إلى البحار مرة أخرى !

ولكن محاولة معرفة أعماق البحار ترجع إلى مائة سنة تقريباً . وقد بدأت بمحاولة جريئة سنة ١٨٧٢ . . . عندما حاول عدد من العلماء برأسهم الأستاذ ويفيل توماس أن يدوروا حول الأرض . وجمعوا ألوف العينات من

النباتات والحيوانات البحرية في أماكن مختلفة وفي درجات حرارة متباينة . وظلت هذه الرحلة أكثر من ثلاث سنوات . وأتوا ببيض هذه الحيوانات البحرية من أعماق المحيط على انخفاض ما يقرب من ثلاثة آلاف قامة - القامة ستة أقدام .

وقد استخدم ويفيل توماس : نظرية الصوت والصدى ليعرف أعماق المحيط واكتشف لأول مرة وبصورة عملية أن قاع البحر يشبه وجه الأرض : على* بالجبال والوديان !

ولكن الإنسان لابد أن يهبط بنفسه ليرى ماذا يجري هناك . تماماً كما ذهب الإنسان بنفسه إلى القمر ليرى بعينه ماذا هناك . ولذلك يجب أن يبحث عن وسيلة يهبط بها وفيها دون أن يموت . . في أعماق المحيط يصل ضغط الماء على البوصة المربعة إلى تسعة أطنان ! وفي هذه الحالة لا يمكن أن تنفع بدلة الغواصين . . تماماً كما لم تنفع بدلة رائد الفضاء . . فرائد الفضاء ينطلق في سفينة محكمة جداً . . فإذا هبط إلى القمر فهو يرتدى بدلة أكثر إحكاماً من الكبسولة .

وقد حاول المهبوط إلى قاع البحر كثيرون . ومات كثيرون دون أن يدرى بهم أحد . فمثلاً حاول المغامر الأسباني ثرفو في سنة ١٨٣٨ فقد ابتكر لنفسه جهازاً أو أنبوبة من الخشب . وعلق فيها أنفاقاً من الحديد والرصاص وهبط بها إلى أعماق المحيط . وحدث ما كان متوقفاً . فقد سحقها ضغط الماء . . وبعد لحظات . . طفت على الماء ألواح خشبية أما الرجل نفسه فلم يعد ! .

وفي سنة ١٩٣٠ حاول الأستاذ الأمريكي وليام ييب ومعه مهندس أوتيس بارثون أن يصمما معاً جهازاً للمهبوط إلى أعماق البحر . وجاء الجهاز على شكل اسطوانة من الصلب الذي يمكنه بوصة ونصف بوصة . وجعلوا لها فتحة من الكريستال . وكان لهذا الجهاز شكل المضغدة .

وزلت الضفدعة إلى البحر مربوطة في حبل من الصلب سمكه بوصة -
أيضا . واستطاع الرجلان أن يهبطا إلى عمق ١٥٠ قامة . .

وبعد ذلك بستين استطاع الرجلان أن يهبطا إلى ١٨٠ قامة . . ولم يتمكنوا
من الهبوط إلى مادون ذلك .

وكتب الأستاذ بيب في مذكراته التي نشرت بعنوان (نصف ميل
تحت الماء) يقول : « من هنا إلى تحت ومنذ أثنى مليون سنة ، لم يكن ليل
ولا نهار ، ولا صيف ولا شتاء ، ولا زمن . . حتى جئنا وبجلنا ذلك » .

وعلى الرغم من عدم وصول أشعة الشمس إلى هذه الأعماق ، فإنه
استطاع أن يرى من الفتحة الصغيرة كائنات مضيئة تروح وتجي . . فبعض
هذه الأسماك تشبه السيارات في الشوارع ليلا عندما تنظر إليها من طائرة .
ومن الكائنات الغريبة أسماك زرقاء الرعاف حمراء العيون وبعضها طوله
أكثر من مترين . ان هذه الأسماك تشبه زوارق الأعماق التي يستحيل على أى
إنسان أن يلمسها !

وفي سنة ١٩٣٤ قام الرجلان بتحسين هذا الجهاز الذي بقوصان به
وأطلقا عليه اسم « زورق الأعماق » . واستطاعا أن يهبطا إلى ٥١٠ قامات
(٣٠٦٠ قدما) إلى آخر الحبل الصلب الذي تمل منه الزورق . وفجأة
أحس الاثنان بضدعة . . بصوت خفيف يهزها تماما . وأدرك الاثنان أن
الحبل الذي يربطهما إلى منصة عائمة قد انقطع ، إن هلاكهما لا محالة .
فالسافة بينهما وبين قاع المحيط أكثر من ميل !

ولكنهما اكتشفا أن الزورق قد اصطدم بأحد التلال الموجودة في قاع
المحيط وقد أدى بهما الفزع إلى أن يوقفا الهبوط وأن يصعدا بسرعة !

وكان لابد من تعديل هذه الطريقة البدائية في القوص إلى الأعماق . .
فالذي يحدث هو أن زورقا عائما أو منصة يتدلى منها حبل من الصلب ومن

هذا الحبل يتبدل أو يربط زورق الأعماق . وعند الاحساس بالخطر يقوم الزورق العالم بسحب الزورق القاطن . فالحبل يقوم بنور « الحبل السرى » الذى يتصل به الجنين فى بطن أمه 1

وهذا ما فعله الأستاذ البلجيكي أوجيست بيكار . وهو رجل مغامر وقد عرفه العالم . بمحاولاته الجريئة : فقد حاول أن يطير فى بالونات هوائية إلى طبقات الجو العليا .. ونجح فى أن يرتفع وهو فى داخل بالون إلى ٥٥,٥٥٧ قدما ..

وعندما حاول الأستاذ أوجيست بيكار أن يساهم فى مقامرات النوص تحت الماء استخدم نفس الأسلوب . فإذا كان فى حالة البالونات يستخدم الغاز الأخف من الهواء . فإنه فى حالة النوص استخدم البترول الأخف من الماء أيضا .. فالغاز الخفيف يدفع البالون . والبترول الخفيف يتعلق فيه زورق الأعماق ولا ينوص معه .. وبذلك يمكنه أن يهبط ويعلو كيف يريد .. وصنع الأستاذ بيكار زورقا له جدران قوية جدا . ثم ربط الزورق بعوامة على شكل سيارة مليئة بالبترول . ثم إن هذا البترول له أهمية أخرى هو أن يحصى الزورق من ضغط الماء الشديد عليه .. ثم وضع فى زورق الأعماق كتلا ضخمة من الرصاص تساعد على الغوص . فإذا أراد الصعود ألقى بهذه الأوزان فيخف الزورق ويرتفع .. وهذا ما يحدث تماما عندما يريد البالون أن يرتفع فهو يسقط منه أكياس الرمل فيخف وزنه فيعلو ..

وتحدد اليوم الموعد فى سنة ١٩٤٨ .. عندما ذهب الأستاذ بيكار إلى ساحل غرب أفريقيا .. وهبط بزورق الأعماق إلى ما يقرب من ١٤٥٠ قامة ! ولم يكن بهذا الزورق أحد . لقد كانت محاولة تجريبية . واعتبرت هذه التجربة ناجحة . ولكن عوامة البترول قد انصهرت قبل أن تصعد إلى السطح لأسباب فنية أمكن إصلاحها .

وانضم إلى الأستاذ بيكار مهندس فرنسي اسمه كوستو وتولت الحكومتان البلجيكية والفرنسية الإنفاق على هذا المشروع . ولكن المشروع ضاع بين

القيان الفرعية . والميزانيات والاعتمادات الإضافية وضرورة مناقشة هذين الرجلين قبل إعطائهما مايا واحدا [

ومهرب الأستاذ بيكار بطلب معونة الحكومة السويسرية . فوافقت على إعائه مناصفة مع الحكومة الإيطالية . وشعرت الحكومة الفرنسية بأنها أهينت . ولذلك عجلت بمشروعها . ونشر الأستاذ بيكار في الصحف أن زورق الأعماق الفرنسي ملئ .. بالعيوب الفنية وأنه مقبرة لكل من يحاول أن يهبط به . وأجريت الفحوص الإشعاعية على الزورق الفرنسي . وظهرت له عيوب طفيفة أمكن إخفاؤها بسرعة ..

وفي يوم السبت ١٣ فبراير سنة ١٩٥٤ وصل إثنان من الفرنسيين أحدهما غواص والآخر مهندس إلى الساحل الغربي لأفريقيا . وعثرا أن بنزلا في البحر . فن أجل فرنسا وكرامتها وشرفها العلمي شهون الحياة . ورافق الاثنان عدد كبير من رجال الأعلام . وكانت هناك إذاعة متابعة تذيع على الهواء كل ما يحدث . أما الرجلان فهما : هو .. وفيلم .. وقد صدر للثنتين كتاب جميل ممتع أسماه : إلى ما تحت ألقي قائمة وفي اللحظة المحددة تماما . نزل الاثنان إلى زورق الأعماق ، وأغلقا الباب .. وكان يصلهما بالمنصة العائمة سلك تليفوني .. وكان على اتصال مستمر ..

وأصبحت التليفونات مسموعة في كل أنحاء العالم : الآن أغلقنا الباب تماما .. كل شيء على ما يرام .. الرؤية واضحة ..

وتجئ أصوات أخرى من فوق المنصة العائمة : على بركة الله .. ومع السلامة .. النزول يبدأ ..

وبدأت غواصة الأعماق في الهبوط .. رجلان وحدهما تماما .. يربطهما خط تليفوني سري يفصل تلقائيا بعد لحظات وكانت الساعة العاشرة صباحا ..

ليس في استطاعة أحد ابتداء من هذه اللحظة أن يساعدهما ، وغدا أمسك
واحد منهما التليفون يقول : عندنا شعور بالنشوة .. كأننا نشرب شيئا معقيا
ممتعا .. ولكن الآن حياتنا بأيدينا .. اتنا نحاول نفس الشيء الذى حاوله
أبطال مجهولون من ألوف السنين أن يرتادوا البحر والقارات وحدهم وبلا
علم حديث .. اتنا ..

وهنا انقطع الخط التليفونى ..

ونظر أحدهما إلى الآخر يكمل جملته : إتنا نسينا السندوتشات .. فليس
أمانا إلا أن نموت ، أو نموت من الجوع .. وفى كلتا الحالتين نحن وجبة
دسمة للسماك .. وخصوصا أنت !

وقال له الآخر : كيف عرفت ما كانت نقوله أى دائما .. وأنا أحاول
السباحة .. إنها كانت تقول يجب أن تتعلم بسرعة حتى لا تكون طعاما شها
للسماك ..

ورد الآخر : بل هذا ما نقوله أى أيضا .. فلعنة الأمهات واحدة
وخوفهن واحد .. !

وهبطت الغواصة الأحمق إلى ما دون ذلك ويطء .. ومن فتحة الغواصة
لاحظ الإثنان أن لون الماء أصبح .. أو أن هذه المنطقة من المحيط خضراء ..
وكان عليهما أن يبحثا بإشارة صوتية تقول كل شئ" ثم كما تجرون ..

وفى العاشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة تقول : هبطنا إلى عمق
مائتى متر .. الماء لونه أصود تماما .

ثم أرسلت الغواصة إشارة تقول : إتنا ندور حول أنفسنا ونحن نبط ..
ولو كنا نرى شيئا من الفتحة الكريستالية لدخنا .. ولكننا لا نرى أى شئ"
ومن هنا وما زلنا نحفظ بشئ" من العقل ..

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة صوتية
نقول وصلنا الآن إلى عمق ألفي متر !

وفي الساعة الثانية عشرة أرسلت الغواصة إشارة أخرى نقول : وصلنا إلى
عمق ثلاثة آلاف متر ..

وكان من الضروري الإبطاء في الهبوط . ولذلك أطلق الرجلان سراح
طن من الرصاص الملتصق بالغواصة .. فحقف وزنها . فأصبحت حركة
الهبوط أبطأ .

وتوقفت الغواصة تماما ..

وبدأ الرجلان بفحصان الغواصة من الداخل . فلم يجدوا أى تسرب للماء
وفي هذا الوقت كان ضغط الماء يعادل ٥٩٠ طنا على الوصلة المربعة .
وكانت درجة حرارة الماء خارج الغواصة تصل إلى خمس درجات مئوية ..
أما درجة حرارة البترول في العوامة التي هي غطاء للغواصة فتصل إلى ١٣
درجة مئوية ولذلك كان لابد من الانتظار بعض الوقت حتى تنخفض درجة
حرارة البترول ..

وهبطت الغواصة إلى عمق ٣٣٠٠ متر .. ومن الفتحة الكريستالية لاحظ
الرجلان أن هناك كائنات غريبة وعجيبة .. أنواعا وأحجاما من الجمبري
والكائنات اللبقة الطويلة المضطربة .. وأحيانا يكون الضوء متصلا . وأحيانا
يكون نوعا من البرق الباهر ..

وعندما وصلت الغواصة إلى انخفاض ٣٥٠٠ متر لاحظ الرجلان أنها
تهبط بسرعة أكبر مما يجب . ولذلك أطلقا بعض كتل الرصاص المعلقة من
الغواصة . وبسرعة توقفت الغواصة عن الهبوط ..

وفي الساعة الواحدة انطلقت إشارة صوتية من الغواصة تعلن لرجال

الصحافة والإذاعة أنها وصلت إلى عمق ٤٠٠٠ متر . وهذا أبعد ما وصل إليه أى إنسان !

وكانت للقواصة مصابيح فوتها ١٩٠٠ وات . وانفتحت المصابيح كأنها عيون شيطانية .. وانكشف ماء المحيط .. وصرخ الرجلان الواحد بعد الآخر :
إننا نكاد نرى قاع المحيط ..

وتدلت من القواصة سلسلة كما فعل الإسكندر الأكبر ليعرف بها عمق المحيط .. وعرف الرجلان من طول السلسلة أن القاع على مدى ستة أمتار فقط !

وفي هذه اللحظة كان ضغط الماء على القواصة قد وصل إلى تسعين ألف طن !

ومن الفتحة الكريستالية سجلت العدسات صوراً وأفلاماً للحياة عند قاع المحيط .. فهناك أسماك من أنواع نادرة غريبة اللون والشكل والحركة .. لم يرها أحد من قبل وكانت هذه الأسماك تتحرك برشاقة راقصات الباليه .. وأكثر هذه الأسماك لها عيون جاحظة - أى خارج الرأس . وهذه العيون تتحرك في كل الاتجاهات ..

وكان من المقرر أن تظل القواصة في أعماق المحيط ثلاث ساعات على الأقل ترزاد هذا العالم المجهول . وبينما يتبادل الرجلان النظر من الفتحة الكريستالية سمعا صوتاً عنيفاً غربياً .. وتحول ماء المحيط إلى لون البحر .. وداخ الرجلان .. وتساند أحدهما على الآخر .. إنها إذن النهاية .. النهاية العميقة لهذه المغامرة الشجاعة من أجل العلم .

وبعد لحظات أفاق الرجلان .. فقد انفتحت البطاريات الجلفانية التي تمد المصابيح بالضوء .. هذه البطاريات كانت موضوعة في أعمال القواصة وزنها ١٣٠٠ رطل ..

أما أحد الرجلين فقد جلس منهاراً ويقول لزميله : أنا رجل مخامر ..
وأنت مهندس .. أنقذنا من هذه الكارثة .

وقال المهندس ضاحكاً : أما أنا فسوف أنقذ نفسي . وعليك أنت أن
تبحث لك عن طريقة للنجاة !

وفي مواجهة الموت والخطر يشعر الإنسان بشئ من البأس . ومن هذا
البأس تخرج روح المرح كتمويض سريع عن خسارته الفادحة ..

ولذلك قال أحدهما للأخر : هل تعرف ماذا أعد لنا العاهل اليوم من
أنواع الشواء ..

وصرخ الثاني : فعلاً .. عتدى دجاجة مشوية .. إنها هدية من زوجتي ..
لم ينسح وقتي لشكى أشكرها على ذلك .

واقسم الرجلان الدجاجة ..

وأرسلت القواصة إشارة تقول : نحن صاعدان . ونرجو أن يكتب الله
لنا السلامة !

وأذيع النبا في العالم كله ..

وبعد لحظات نالت الإشارات بالصعود . وسرعة القواصة ..

وبعد خمس ساعات و ١٤ دقيقة ظهرت القواصة على سطح الماء .
وانفتح الباب وخرج الرجلان . وتعانق الجميع .. وفرقت زوجات
الشمبانيا .. وامتلأت المنصة المائمة بالأطعمة الثمينة .. وهنا الفرنسيون
انفسهم على هذا النصر العلمي في كل مكان ..

وجلس الرجلان بقلبان في برقيات التهنة ..

وفجأة وقف واحد منهم وهو المقلع فيلم : وصرخ : اقرأ ماذا تقول

زوجتي .. إنها تقول : كان ولدنا جاك يتمنى أن يقبلك ويهشك عند عودتك
ما معنى « كان يتمنى » ؟

وانصل بزوجته تليفونيا وعرف الرجل أن ابنه الصغير أيضا حاول أن
يقبله .. ففرق !

امسكوا قداسه...

لقد سرق الذهب وهرب

لو كانت في رأس واحد من الحاضرين شمعة واحدة لو فقت ثم سقطت في الحال فقد كانت لحظة رهبة لم يسبق لها نظير في التاريخ !

فقد جلس ألف واحد خاشعين تماما . فالموقف في غاية القداسة . الرؤوس انحنى . العيون أفلت . الأعناق تدلت . الأيدي تشابكت . الألسن ابتلمت . الآذان انفتحت وتردد في هذا الصمت سؤال يقول : وقبل أن يخلق الله السماء كيف كانت هذه الدنيا ؟

وكان السؤال موجها في خشوع شديد إلى طالب غير عادي .. فقال الطالب : لا يمكن أن تكون هناك سما قبل الله . فالله هو السماء !

واغتنت بلجنة الامتحانات . أما المستمعون فقد سرت فيهم كهرياء من السعادة وعادت اللجنة توجه إلى الطالب سوألا آخر : وأنت بالذات قبل أن تولد أين كنت ؟

وأحنى الطالب رأسه ليقول : بل كنت في السماء .

وكانت السعادة واضحة على اللجنة وعلى الحاضرين . ولكي تنهى اللجنة امتحان هذا الطالب وتمنحه درجة الماجستير في اللاهوت قالوا له : اننا لا نريد أن نسألك شيئا أو في شيء . وإنما نتوسل إليك وحياة أمك المقدسة وقديك الظاهرتين . وروحك التي ترزف على أرضنا وقلبك الذي اتسع لملايين البشر . وابتسامتك التي ولدت منها الشمس أن تغضل وتنكرم وتتواضع وتمنحنا البركة يا من أنت البركة !

ورمع الطالب يديه ليمنح الحاضرين بركته . ونهض الحاضرون جميعا ،

ورؤوسهم كلها قد حُلقت بالموسى .. اللجنة بأعضائها ذوى الخفى البيضاء وألف طالب خروا ساجدين وهنا فقط .. دخل اثنان من الضباط متلاصقين كأنهما مربوطان بسلك من حديد .. الوجه الصارم . العيون حمراء . الأرض تنكسر تحت خطواتهما . ولا بد أن يكون التاريخ قد جعل أنه في يوم أول مارس سنة ١٩٥٩ وفي مدينة لها اسم عاصمة التبت اقتحم اثنان من ضباط الحامية الصينية قدس الأقداس لصاحب القداسة الدلاى لاما . فقد دخلوا بغير إذن . ودخلوا دون اعتناء . وأعجب من ذلك أنهما بطلان مفاظته مباشرة تصورا مباشرة ، أى دون وساطة من كبير الكهنة ورئيس الديوان وقبل رئيس الديوان ، كبير الحرم . ثم كيف بدخل اثنان من الضباط على صاحب القداسة الدلاى لاما . الإله والرب الروحي للتبت ولم يحلق واحد منهما شعره .. إن هذا لشيء رهيب .. شيء فظيع ..

ولكن الضابطين لم يشعرا بشئ من ذلك . أو كانت التعليلات لديهما أن يتجاهلا أى شئ .. وبسرعة التفت الرهبان حول الدلاى لاما . كما يلتفت النحل الشغال حول ملكة الخلية لحمايتها من الدبابير .. ولكن الضابطين كانت لديهما تعليلات صريحة صارفة : نحن نريد تحديد موعد مع الدلاى لاما فوراً !

ومن المفروض ألا يسمع الدلاى لاما كلمة واحدة .. فهناك أناس محدودون فقط هم القادرون على أن يهمسوا في أذن قدامته مباشرة . وكان هذان الضابطان يعلمان هذه الحقيقة فصرخا لكي يسمع الدلاى لاما .. لإنهما إذن اخترقا المجال المحوى لصاحب القداسة . إنهما عدوان ولا شك . وفي اليوم الذى يحتفل فيه الدلاى لاما بنيل أعلى التدرجات العلمية في فقه الدين البوذى !

أما تفاصيل هذا الحادث المروع فقد ذكر كيان العاصمة . وخرج الضابطان طبعاً ولكن المدينة لم تنم .. وهامس الناس . وقالوا : عدوان .. وقالوا ..

زندقة .. ونساء لولا عن صحة صاحب القدمة بعد كل الذي حدث .. وقالوا :
إنه أغشى عليه .. وقالوا : صعد إلى السماء .. وأقسم أناس أنهم رأوه فعلا وهو
يركب سحابة بيضاء . ومعنى ذلك أن السماء تدخلت في الوقت المناسب .

وقبل أن تطلع شمس اليوم التالي كان الضابطان الصينيان في طريقهما
إلى قصر صاحب القدمة يلحان في مقابله لأمر هام محدد .

ولكن الضابطان في هذه المرة سارا في الطريق الشرعى . ذهبا إلى كبير
الحرس . وقالوا نفس العبارة : يريد مقابلة صاحب القدمة الدلاى لاما لأمر
هام .

واستطاع كبير الحراس أن يسأل : هل من الممكن أن أعرف السبب ؟
وكان الرد : أن قائد الحامية الصينية قد أقام حفلة استعراضية في قلب
الكثبات ويريد أن يتفرج عليها قدامة الدلاى لاما ..

واستطاع كبير الحراس أن يقول : سوف تعرض عليه الأمر .
وكان رد الضابطان : ومضى نعرف موافقة التامة على ذلك ؟

موافقة التامة ؟! - إذن ليست دعوة إليه إنما استدعاء ! المسألة خطيرة .
واجتمع الدلاى لاما بمجلس الوزراء وكبار رجال الدين .. وقال لهم :
- ما رأى .

تخطت الآراء . العقلاء قالوا : يجب أن نفكر ؟

المزمتون قالوا : بل يجب أن نرفض هذه الإهانة !
والدلاى لاما : لا رأى له عادة .

واحتشد الناس حول قصر الدلاى لاما . وجاء اليوم التالي والناس في غاية
القلق على ما حدث وما سوف يحدث . ولكن ثورتهم خرساء . إنهم يهزون
رؤوسهم . ولا يجدون فيها شعراً كافياً ليشدوه أو يقطعوه وينطلقون إلى

الشرفات المقدمة .. يرون بعض الملابس والوجوه والروؤوس تروح ونجي ..

وجاء الضابطان يلحان في أن تكون زيارة الدلاى لاما يوم ١٠ مارس على الأكثر . بشرط ألا يرافقه حراس . وإنما فقط خدام خاص وثلاثة من الوزراء . وأعلن هذان الضابطان أنهما سوف يأتيان ببلاغات الدعوة وبعد يومين ..

ولم يكن من الصعب على الناس جميعا في مدينة طامبا المقدمة أن يشعروا رائحة الخطر وأن يدركوا أن صاحب القداصة في خطر . وأن قداسة لن تتمكن من حمايته من القوات الصينية .. وقد ترددت شائعات كثيرة بأن قوات صينية قد حملتها الطائرات ليلا ونهارا . وهذا طبيعي . فإن رجلا له هذه القداسة لن يقوى عليه إلا ملايين الرجال . وقد لا يقدر على أيضا . وهذا الخطر الصيني يخيف أبناء التبت وفي نفس الوقت يغخ في كبرياتهم لأن الدلاى لاما من القوة بحيث لا يقدر عليه إلا جيش ١ وأى جيش ؟ جيش محمول على الطائرات !

وعادت الروؤوس التي خلت من الشعر تماما تتقارب وتتلاصق .. الروؤوس والجلود والأيدي والأنفاس وفي صمت يريسون أن يبحثوا عن إجابة واحدة لهذا السؤال : هل يدفع الدلاى لاما إلى التكتلات الصينية وحده ؟ وكان الجواب : بل يهرب من البلاد كلها !

وأعلن في المدينة كلها عن طريق الأبواق التي يمسكها دهبان بفغون فوق الأسطح : يا أهل البلد .. يا أهل البلد .. إن صاحب القداسة يفضل مشكورا بزيارة التكتلات الصينية .. فقفوا على جانبي الشارع في خشوع . ضعوا أيديكم وراء ظهوركم . لا تمسكوا عصا واحدة .. ولا طوبة .. ولا تقولوا شيئا .. الصمت عبادة .. !

وتزاحم الناس على جانبي الشارع العمومي منذ المساء . حملوا طعناهم
وفراشهم وأطقمهم . وبعضهم اصطحب الدواب والدواجن .. يريدون أن
يذبحوها تحت قدمي الدلاي لاما .. أو يريدون أن تتبرك هذه الحيوانات
بتنسم الهواء الذي يشمه . فتبيض الدجاج وتحمل الماعز وتلد الأم .. إنه يوم
البركات .

وفي الليل افتتح الباب الخلفي من القصر وخرج عدد من الجنود يركبون
البغال وكان بينهم ، أي بين الجنود ، واحد لا يكاد يرى أي شيء أمامه فقد
تطلع منظاره ووضعته في جيبه ولم يدر بوضوح كل ما يدور حوله .. هذا
الرجل الذي ارتدى ملابس الجنود هو الدلاي لاما نفسه !

إنه قرر أن يهرب إلى الهند . وعليه أن يختار طريقا صعبا جدا في بلاده
الواسعة وأن يعبر الجبال المغطاة بالجليد دون أن يثبه الصينيون إلى ذلك . .
وأخطر من ذلك دون أن يثبه أبناء التبت أيضا . وإلا امتلأت الشوارع
بالدماء . . وهو يريد لشعبه السلام . وهو يعرف أن هذه الساعة كان من
المؤكد أنها سوف تدق يعنف . . تدق رأسه وعرشه الديني . . وأن عقارب
هذه الساعة لا بد أن تطبق على عنقه . . قبلاد التبت واسعة وسكانها لا يتجاوزون
عشرة ملايين بينما الصين تضيق بمئات الملايين من أبنائها . . سبعمائة مليون
نسمة وأكثر . وأهل التبت زاهدون في قيم الدنيا وريثتها — ومن الأفضل
أن نقول إنهم جهلاء وكسالى . وهم أناس مسالمون لأنهم وثنيون بلهاء .
لا بد أن هذه المعاني دارت في رأس هذا الجندي في ملاهه التنكرية .

خرج الدلاي لاما ورجاله من القصر . . واجتازوا الشوارع وهو يسمع
الصراخات والطمعانات ولا يستطيع أن يرى الوجوه . . فقد أخفى منظاره
وهم يقدونه هو ويغله وسط الزحام المائل . وانتهى شارع . . ومن بعده
شارع . . واتسعت أمامه الأرض العارية . . وجاء نهر صغير . . عبرت
البغال . . وانضم إليه عدد من الجنود . . مائة . . وراء مائة . . ولكن أحدا

لا يرى ما سوف يحدث . . وبين لحظة وأخرى يتوقف أحد الجنود أيضا ويتحسس صندوقا فوق أحد البغال . . ويتأكد من أن أقفاله سليمة . . الصندوق مليء بالذهب . . وعندما عبر البغال أول نهر سخط كتاب الصلوات لبوذا . . وتشاءم الجميع . . ولكمهم نطلعوا إلى وجه الدلاي لاما الذي لا يرى تماما ووجلوا ابتسامته العريضة واستمدوا منها الراحة التامة وواصلوا السير .

وعندما اقرب أحد رجال الدين من الدلاي لاما وحس في أذنه قال : نعم يا صاحب القداسة . . إنها بخير لقد سافرت والدتك المقدسة وأنتك المقدسة وأنتوك المقدس في الصباح دون أن تدري أنت . . حرصا على صحتك !

إذن لقد هرب إخوته قبله . وكان من الممكن أن يفخوا في أبهى الفوات الصينية . وكان من الطيبي أن يسأل صاحب القداسة : ولكن كيف ؟

قال له أحد الحراس : أنهم جميعا قد ارتدوا ملابس الرجال والنساء . . أخوك لبس كفتاة وأهلك وأنتك رجلان !

ومضت القافلة . .

وجاء الليل . وصعدت البغال أحد الجبال . الطريق ضيق صاعد . البرد شديد . الجليد يغطي كل شيء . طلب قداسه أن يضع المنظار على عينيه . . ولكن هذه الرغبة لم تتحقق بسرعة . فقد ذهب أحد الحراس يسأل رئيس الوزراء إن كان هذا ممكنا . وعاد الجندي يقول لصاحب القداسة إن هذا غير ممكن . ولكن يبدو أن صاحب القداسة أصر . . وعاد الجندي ينقل أوامر قداسه إلى رئيس الوزراء . وهنا تشاور رئيس الوزراء والوزراء . . وتقاربت البغال في الطريق الضيق . واستقر رأيهم على أنه لا داعي لهذا المنظار . وجاء الجندي يحمل خراج مجلس الوزراء بأن المنظار غير ممكن . وهنا هدد صاحب القداسة بأن يلقي بنفسه من فوق الجبل . . وعاد الجندي بنقل هذه الكارثة إلى رئيس الوزراء في نهاية القافلة . وتقارب الوزراء . . وأخيرا قرروا

أن يسمحوا لقداسه بوضع المنظار على عينيه . . وبدلاً من أن يذهب واحد ذهب اثنان معاً ، واحد يحسك المنظار والآخر يرافقه . وفي اللحظة التي قدم فيها المنظار إلى صاحب القداسة جاء الجندي الآخر ودفع زميله فهوى على مرأى من صاحب القداسة إلى سفح الجبل . . تكسر المنظار والجندي معاً . . وبذلك يكون قرار مجلس الوزراء بالألا بضع صاحب القداسة هذا المنظار قراراً نافذاً . وفي نفس الوقت حاول الوزراء أن يخبر صاحب القداسة أنه في الطريق إلى أن يكون مواطناً عادياً أو لاجئاً سياسياً في الهند . . أي أنه ليس مقدساً . وإنما كان في يوم من الأيام مقدساً !

وفي الليل أوى الجميع إلى كوخ . ولم يدرك صاحب الكوخ من هنا الجندي الذي يحملونه فوق الأكتاف ولما رأوا في عينيه نوعاً ساذجاً من التساؤل قالوا له : إنه مريض .

ويقول الدلاي لاما في مذكراته التي عنوانها « مذكرات صاحب القداسة الدلاي لاما - شعبي وبلدي » : إنه عندما رأى هذا الرجل البسيط يكاد يعرفه استراحت نفسه فلم يمتد أن يكون مجهولاً كل هذه الأيام الطويلة . واسترد قداسه أنفاسه عندما أضيئت الشموع ورأى الذين حولوه وراؤهم . .

وفي الصباح عبروا أحد الأنهار وسقطت مسبعة كانت تلتف حول عرق الدلاي لاما . وحاول بعض الرهيان أن يستردها من النهر . ولكنه أشار برجله أنه لا داعي لذلك . . وأطاعوا - ومن حق الدلاي لاما أن ينهر بأي شيء ليكون أمراً !

وبسرعة مرت من فوقهم طائرة صينية . وأصيب الجميع برعب مؤكده ولكن الطائرة لم تر شيئاً هاما فهم قافلة تتحرك . وما أكثر التوافل .

ولكن الشيء الذي أفرع الجميع ، أنهم استمعوا في راديو صغير أن إذاعة صوت أمريكا تقول أن اضطرابات شديدة قد وقعت في عاصمة التبت .

وإن الأنهار قد زادت نهريْن آخرين : من الدم والدموع . . وأن الجميع قد عرفوا أن صاحب القداسة قد هرب : أي أن البلاد بلا رب . . فالشعب أصبح يتيمًا . . لا أب له . . عاريا لا صياء له . . ملعونا لا بركة فيه ١

وبكى صاحب القداسة . . وكاد يقرر العودة إلى بلاده لولا أن رئيس الوزراء والوزراء قالوا له ما معناه : اعقل قلبها الشاب . . ٢ ومضت القافلة ووصلت إلى الحدود الهندية . .

وكان الدلاي لاما قد تعب من ركوب البغال واحداً بعد واحد . ولا بد أن الذي أصابه هو نوع من الإمساك الشديد بسبب الإرهاق . . أو بسبب تناول أنواع من الأطعمة الباردة . أو لأي سبب آخر . . وابتهاجا بالوصول إلى الحدود الهندية قرر قداسه أن يذهب إلى دورة المياه — والحقيقة أنه لم تكن هناك دورة مياه ولكنني لا أجد التعبير المناسب لهذا المعنى ٣ وكاد يتكشف للجميع . .

فقداسه له طريقة خاصة في قضاء حاجته . وقد اعتاد عليها منذ الطفولة . وأنا مضطر أن أروي هذه الحادثة رغم أن المعاني التي تتبادر إلى الذهن ليست شيئا مشجعا أو مثيبا . جلس قداسه والنف حوله الكهنة ورفع ملابسهم . ولكنه ما يزال يعاني من الإمساك الشديد . . وصرخ فيهم صرخة مقدسة . هبوا يقرأون الترانيل ولكنه ما يزال يعاني وأمر بأن يقرأوا بعض الترانيل التي تساعد على الإسهال . وقرأوا . وهم يظفون حولهم وفجأة ظهر جندي صيني وهربوا جميعا . وتركوا قداسه يحاول .

وحاول ونجح . كاد الإله يتكشف عندما حاول أن يكون إنسانا ١ ويبدو أن المنظر لم يعجب الجندي الصيني . وأدرك أنها لعبة خفيفة وأن هذا الشاب يلهو ويلعب . لوى شففيه وبعث على الأرض . وأحس الجميع أن هذه البصقة هي نعمة من السماء . . فقد أنقذت الجميع . .

ودخل الحدود الهندية . . وعلى حدود الهند كان ينتظره ألوف من

المؤمنين به . . . وغير الحملابا . . . واتجه إلى ولاية ميسور . . . ونزل في أحد القصور هناك . . . ومعه مجلس الوزراء وعدد من الرهبان . . . أقاموا حوله ونشروا ملابسهم البنية الداكنة وأقامت الحكومة الهندية سياجا من حوله . . . وحرسا لحمايته . . . وغسل الدلاى لاما وجهه لأول مرة واستحم وأصيب بركام شديد . . .

واستمع إلى راديو بكين يقول : الدلاى لاما هرب إلى الهند بعد أن سرق كل التحف الذهبية . . . امسكوه حيا أو ميتا . . .

وفي أحد الأيام التي قرر أن يظل فيها بطلته البنية على شعبه . . . استمع إلى ضوضاء شديدة . . . وصراخ . . . وتهديدات بلغة غير معروفة تداخلها كلمات إنجليزية وعربية . . . ويبدو أنه أشار بيده ولكن القوات الهندية اعترضت وتحدث رئيس الوزراء باللغة الفرنسية وجاء الرد باللغة الفرنسية أيضا بالامتنان . . . ولكن الحوار بين رئيس الوزراء وبين شخص ملفوف في بطانية وحصول على محفة . . . ورأت الجماعه مريضا أبيض اللون جاء بتيرك بصاحب القداسة . فكان ذلك أعظم نحيب لهم . فقد ظنوا أن قداسته وبركاته لا تعتمد على حدود التبت . فإذا هي تغمر الجبال والوديان . . . الصفرة والبيض معا . . .

وحملوا المريض الذي يقول إنه جاء بالنبأية عن كل المرضى والبنائى والمساكين في العالم العربى وفي مصر بصفة خاصة وسكان عشش الترجمان بالذات — حيث توجد مؤسسة أخبار اليوم — وأنه قطع هذه الأكلوف من الأميال ليخطف منه بصيصا من البركة .

وأمام الدلاى لاما حلت البركة في المريض . ورفع الغطاء عنه . . . ونهض وأحس رأسه ومد يده مسلما والتقط للدلاى لاما أول صورة له ولأمه ولوزرائه وأخته وأخيه في العالم كله ولم يكن مريضا . . . إنما هو صحفى تمارض لبروى قصته للعالم كله . . . هذا الصحفى اسمه : أنيس منصور . . .

حتى لا تكتب مذكراتك
هذه هي الطريقة

في مثل هذا الشهر من ٢٧٠ عاما سافر أحد رجال الدين والعلم والأدب من دمشق إلى بيروت لألف في ذلك كتابا . وعشرات الألوف من الناس الآن يفعلون ذلك دون أن يؤلفوا كتابا أو يقولوا أنهم سافروا من دولة إلى دولة . لأن المسافة قصيرة . ولا تستغرق من المسافر أكثر من عربة سبافر يدخن نصفها والباقي يوزعه على غير « من المراقبين » .

ولكن السيد عبد القنى بن اسماعيل النابلسي قد ألف كتابا اسمه « النصفه النابلسية في الرحلة الطرابلسية » . والكتاب نشره المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت . وقد حققه المستشرق الألماني هريبرت بوسه وفي مقدمة هذا الكتاب تقدم بالشكر للذين نبهوه إلى هذه المخطوطة النادرة .. ويشكر الدكتور صلاح المنجد الذي « حرضه » على البحث عنها وتحقيقها — هو الذي قال حرضه على ارتكاب عملية النشر . والمقصود « شجعه » على النشر !

أما الكتاب نفسه فأسطويه عربي قديم مسجوع . والسجع في كثير من الأحيان متكلف . وبه مائة قضيلة نصفها من تأليف عبد القنى النابلسي . والمستشرق الألماني يرى لهذا الكتاب أهمية خاصة في معرفة أحوال الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت . ويقارن بين هذا الرحالة العربي ورحالة تركي اسمه أولياء شلبي .. ورحالة إنجليزي جاء إلى لبنان في نفس الوقت . ولكن كلا منهم عاش متعزلا عن الآخر .. النابلسي غارق في الصلوات والحمامات مع رجال الدين والفقهاء والرحالة الإنجليزي هنري مونترل مع الأوروبيين وأبناء البندقية . ولو اتقى الرجلان لروى كل منهما قصة مختلفة عن نفس البلاد .

وكان النابلسي في الأربعين من عمره عندما بدأ رحلته .. يقول النابلسي في أول مطور الكتاب متحدثا عن نفسه طبعاً : « يقول روضة الآداب الثنية والجامع من الفنون العلمية والأدبية : سليل العلماء الأعلام ، الشيخ اسماعيل المشير نسبة إلى للكريم ابن النابلسي . القادرى مشرباً ، والحنفى مذهباً ، والدمشقى موطناً ، والحناني تحقفاً ومعدناً .. » وهذا يكفي !

ولكنني أرى لهذا الكتاب أهمية أخرى ..

فوقه يفعل بالقبض ما يجب ألا يفعله أى رحالة ، إنه لا يتحدث عما رأى من الأشياء أو من الناس . إنه يقول سافرت من مدينة كذا إلى مدينة كذا . ونمت حتى الصباح . بعد أن تمشيت واصلت وحمدت الله . ولكن كيف سافر ؟

كيف كانت وسيلة السفر ؟ كيف حاله ؟ كيف حال الناس ؟

ماذا رأى من الناس ؟ ماذا رأوا منه .. ما الذى أخفيه ؟

إنه لا يقول شيئاً .

إنه مثلاً عندما ذهب إلى المدينة المنورة في إحدى رحلاته أهم بعدد النخيل وأنواعها . وكتب أن أنواعها ١٩٣ نوعاً .. وعندما ذهب إلى ميناء طرابلس وهي خاتمة هذه الرحلة أهم جداً بأنواع الزوارق والسفن .. وعرف أن أنواعها عشرون نوعاً : الماعونة والغليون . والزريرة والغياطة .. والقيامه . والشخورة .. والفلكة .. والقارب والبرمة وغيرها ..

والكن النابلسي صاحب الفكرة .. أو له غاية محددة .. وضعها أمامه : وهو أن يلتقي بالناس الطيبين يتناقشون في أمور الدين ، ويستمع إلى قضاياهم وفتاواهم . ويقول وينقل وهو في كثير من الأحيان صاحب الرأى السديد .. هذا رأيه ..

سافر إلى دمشق . وبات ليلة .. وبعد يومين سافر إلى جبل لبنان ..
وكانت الطرق وعرة - لم يصغها لنا كيف كانت وعرة . وفي صيدا أقام
أسبوعاً وصافر إلى جبيل . ثم إلى طرابلس وأقام فيها أسبوعين ..

وصعد الجبال . وحيط الوديان . وكانت وسيلته هي البغلة . وقد تعبت
البغلة من الصعود والهبوط وقال فيها شعراً .

ولكنه يبدو أنه رجل ظريف . وأنه يحق وراء هذا الإطار اللدني رجلاً
رقباً ذواقاً . ولكنه يستحي أن يفضح نفسه . فقال : والافى الغزل :

حواجب الغيد جل الله باربها والعشق أحلامنا بالشوق باربها
باجاذب القوس إن مكنتك باربها خل التعب عنك واعط القوس باربها
ويقول أيضاً :

إن المحب إذا بكأ فاعقروه زاد ولوعه
كالشمع يبكى في الهوى حتى تسيل دموعه

ويقول :

ايان هاج الهوى بين المنازل والربوع
الناس نضحك فرحه والشمع يبكى بالدموع

وبما كان هذا اللطف ما في الرحلة كلها من شعر . وبعد ذلك ينتقل من
مدينة إلى مدينة . وهو في الحقيقة ينتقل من مناقشة إلى مناقشة . أو من مشكلة
إلى مشكلة . مثلاً : مشكلة هل الصلاة في الصحراء ثوابها أكبر من الصلاة
في البيت ؟

هل الصلاة في الحديقة أكثر ثواباً من الصلاة في البيت ؟ مناقشات
وأحاديث نبوية صحيحة أو مكثوبة .. والنابلسي عادة هو صاحب الرأي
الذي له معنى في النهاية .

وفي ذلك الوقت قرأ كتابا اسمه « نجمة الدهر في عجائب البر والبحر » من تأليف شمس الدين الدمشقي . والكتاب يتحدث عن أشياء غريبة وعجيبة ينقلها كما هي . والله أعلم . فثلا من أين جاءت الجبال والرمال ، جاءت من الرياح « المحفونة » في الأرض المنموجة نحتها . فالرياح ترفع أرضا وتخفض أرضا . بل حدث أن زلزالا وقع فتقل أكثر من ٣٠٠ شجرة زيتون كانت في أعلى الجبل إلى بطن الوادي وكأنها غرست في هذا المكان . لا في مكان آخر ، فلا الأشجار تقويت ولا الأرض تكسرت ، بل أن الرياح التي تخرج من بطن الأرض حملت أحد الأديرة كاملا بما فيه من رهبان وحيوانات وأدوات . « وتحرر بذلك محضر شرعي بإمضاء السلطان الملك الناصر » . بل أكثر من ذلك أن قرية كاملة بكل بيوتها وأهلها ونباتها وحيواناتها انتقلت من أعلى الجبل إلى بطن الوادي . فلم يشعر بذلك أحد من الناس .

وعندما أقام النابلسي في دمشق لاحظ أن المناكب لا تبني بيوتها في أركان المساجد أبدا .. ولا المصافير تعشش في المساجد مطلقا .. حتى الحيات لا تلدغ الإنسان ما دام في مدينة دمشق .

وقرأ النابلسي في كتاب « نجمة الدهر في عجائب البر والبحر » أن في البحر الأبيض أمما كما لها رأس أصلع ولها لحية وأنها حمراء اللون . وأن هناك أمما كما تمسك سيفا قصيرا في يدها .

ويسأل النابلسي عن أصل كلمة « كردي » ومن أين جاءت فيقال له أن ملكا كان له في كتفه دملان .. أو عرفان ناقران . وكانا على شكل ثعبان . ولا يشفيهما إلا دم الإنسان . ولذلك كان هذا الملك يذبح كل يوم رجلا . فلما عرف الناس ذلك « كردوا » من الجبلان — أي هربوا من الجبلان . ومن هنا جاءت كلمة « الكردي » .. وهذا هو أصل الأكراد !

وإذا استورد النابلسي ، وكثيرا ما يفعل ذلك ، يقول : لم أرجع إلى ما نحن فيه ..

ويبدو أن محاولات كثيرة بذلت لإقناعه بأن يركب البحر . ولكنه
رفض . خائف . وفي ذلك يقول :

لن تركب البحر الخضم مهابة بجلال خالفه فنه تفسرق
نخشى به غرقا ونخشى أسره بركبنا هو العار الأزرق

ولكنهم بعد ذلك أقنعوه فركب البحر في ميناء طرابلس وشارك في صيد
الأسماك . وأعجب بها . وهو معجب عموما بكل طعام لذية . ويمكن أنه
يصلى العشاء ، ويتناول العشاء وينام نوما هينًا حتى طلوع الشمس كل
ليلة وكل صباح — منهي الراحة .

ولكن يبدو أن هذه الراحة كانت في بعض القصور التي فرل بها . أما
البيوت الأخرى التي يملكها الناس الطيبون من المريدين والمحبين فكانت
نوعا من العذاب . ولكن النابلسي احتمله .. مثلا :

براغيث كأفبال قصار راعتنا بالخرطوم الطوال
لنا أكلت جميعا من رؤوس إلى الأقدام حتى للتعال
وحى نوما أكلته أيضا فأصبحنا كأمثال الخيال

وبعد بتوجه من البراغيث فيقول :

براغيث كأمثال الخسود بأجسام صفار القد سود
وقعنا في محالهما فعالت بنا ونوابث مثل الأسود ؟

وبعد ذلك ذهب إلى بيروت . ومات في بيروت حتى الصباح . وبعد
صلاة الظهر راح يتفرج على ما فيها من مساجد وحمامات . ففيها مسجد اسمه
ابن الحمراء . وفي هذا المسجد يقام الذكر والناس يتلون الأوراد ويحفظون
القرآن .. ويقول إن الجامع الكبير في بيروت كان أصله كنيسة .

ومن بيروت يتجه إلى طرابلس وهي الغاية من هذه الرحلة كلها .
فالطريق به بساين . والبساتين بها رياحين . والصدور منشرح . والقلب
متفتح . والشيوخ في غاية السرور . وهناك نهر اسمه نهر الكلب . ويقال إن
هناك تمثالا للكلب . وكان الكلب إذا رأى سفينة قادمة للعبو عوى مرة
واحدة .. وإذا رأى اثنتين عوى مرتين . وهكذا يقبض الناس ملاقاته المعو ..
أنه صغارة إنذار أو شبكة إدار ومن هنا كان اسم النهر .

ويعلق على ذلك بقوله : وهذا من العجائب والله أعلم بالصواب .

وفي طرابلس لقبه الحاكم والناس جميعا بالترحاب . وكشفوا له عن
نقومهم : قضاياهم وألغازهم الشرعية والفقهية . وهو يعرضها في رحلته .
ولا أعرف كيف استطاع أن يحلها . مثلا إذا كان هناك رجل قد تزوج ثلاثا
فقال لكل واحدة منهن على حدة . إذا طلقك فالأخريتان طالقان ؟ ثم طلق
الأولى مرة واحدة ، فما حكم الشرع في الزوجتين الأخريتين ؟ إنها فريدة
صعبة جدا ولكنه استطاع أن يحلها وأن يستحق التكريم من كل الناس .
ولكنني أعترف بأنني لم أفهم الحل !

معضلة أخرى من طرابلس أيضا :

قال رجل لزوجته وهو على فراش الموت : إن دخلتها هذه الدار فأتينا
طالقان فدخلت الإثنتان معا . ومات الزوج فما حكم الشرع في الميراث وفي
الطلاق بعد موت الرجل ؟

واستطاع النابلسي أن يجد الحل .

ولا أجد حرجا في أن أقول إنني لم أفهمه أيضا . ولكن الناس في مدينة
طرابلس في شهر سبتمبر سنة ١٧٠٦ (١١١٣ هجرية) قد أعجبوا به
وحمدوا الله أن جعل من بين عباده أناسا قادرين على معرفة الحق من الباطل
مهما اتوى الباطل وتحول إلى عقده في خبط حرير لا يمكن أن نراها العين

المجردة .. ولكن البابلي استطاع أن يرى العقدة وأن يحلها وأن يريح الناس ،
وبعد ذلك تناول طعامه الشهي والفاكهة ونام حتى الصباح ..

ومن القضايا الصعبة التي أفتى فيها أكبر علماء ذلك العصر : هل التدخين
حرام أم حلال ؟

وكان جواب الرجل : إذا كان الذي يدخن يشعر منه بتعب في صدره
فهو حرام . وإذا لم يشعر بشيء من ذلك فهو حلال — أي أن الذي يحرمه
الدين هو الشيء الضار . والذي يحلله هو الشيء النافع . وهذا الرأي صلاح
ذو حدين أيضا . ولكن الناس استراحوا إليه وتمايلوا ونصائحوا وتعاثوا .
وكما لا بد أن يشكروا الله على ما أولاهم من فضل وعلم ..

« لم جئت إلى منزلنا الرحيب والمكان الحصبب — حتى أسفر الصباح
ونادى مؤذن الفلاح » — وهي عبارة يتكرر معناها كل صباح .

ثم هذه القضية : ما هي الضرورة أن يكون للعمامة طرف يتبدل على
القفا .. هذا الطرف اسمه « العذبة » .. وله في ذلك رأى . ويرى هو أنه
حسن ولطيف .

ما حكم الشرع إذا قال رجل أن أملاكى موقوفة على جميع ولدى
ومات .. فهل ترثه بناته ؟

والجواب أن كلمة : الولد تنطبق على الذكر والأنثى . لأن الولد من
الولادة . ومعنى ذلك أن كل أولاده ذكورا وإناثا ، لا بد أن يرثوه — معقول !

وفي بعليك رأى الأحجار الضخمة والأعمدة الفخمة ، واستطاع أن
يعرف عددها . وانتهى عند ذلك . ولم يعرف ما الذي فعله العلماء في القرن
العشرين عندما قالوا أن هذه الأحجار لا يمكن أن تكون قد قطعت من جبال
لبنان . وإنما لا بد أن تكون قد جاءت من أسوان .. وأن هذه الحجارة قد
حملت من أسوان إلى بعليك بطريق البحر .. وأن ذلك قد حدث من عشرات

الألوف من السنين . فقد كانت هناك كثافات أكثر غفلا وذكاء قد أقامت على هذه الأرض بعض الوقت - ولأسباب لا نعرفها نحن الآن - عادت إلى أماكنها من كواكب أخرى مستخدمة سفن فضاء هائلة - ربما كان القمر إحدى هذه السفن (*) ...

وهذه نظرية سوفيتية حديثة جدا .

وفي نهاية كتاب « النخبة النابلسية في الرحلة الطرابلسية » يقول المؤلف :
« وقد وافق الفراغ من تكملة هذه الرحلة المباركة إن شاء الله تعالى عشية الأهار الأسعد ثاني عشر من ذي القعدة الحرام سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف على يد نائضه الفقير إلى رحمة مولاه : إسماعيل النابلسي غفر له ولوالديه وللمسلمين آمين » .

وأعجبني من النابلسي تشجيعه للناس على السفر وعلى الانتقال من مكان إلى مكان وفي ذلك يقول :

سافر إذا حاولت قدرا سار الهلال : فصار قدرا
والماء يكسبه ما جصري طيبا ويحيث ما استقرا

.. أحسنت يا أستاذ نابلسي !

(*) راجع كتاب (الدين مبعثوا من السماء) .

إلى العِمر ..

مسيرًا على الأقدام !

إنها مجرد غلطة . فقد كان في نيته أن يسافر إلى داخل الولايات المتحدة . ولكنه وجد نفسه يحجز تذكريتين إلى مدينة جوهانسبرج في جنوب أفريقيا . أما زوجته فترى أن هذه أجمل هدية — غير مقصودة — قدمها زوجها في عيد ميلادها وضحك الاثنان .

وبدأ يجمع معلومات عن أفريقيا التي سوف يسافر إليها . ويُنْهَـز هذه الفرصة لكي يعرف هذه القارة السوداء التي لم تعد سوداء .

وكان لا بد أن يبدأ رحلته من لندن ذهاباً وإياباً . وأمسكت زوجته أحد القواميس ، ونجته كلمة أفريقيا وجدت سطوراً تقول : إنها تسع خمسة أقاليم كالذي يتير لها .. وبلجيكا تملك منها مستعمرات أكبر منها ٨٨ مرة .. وبريطانيا تملك مستعمرات أكبر منها ٣٠ مرة .. والبرتغال أكبر منها ٢٣ مرة .. وفرنسا أكبر منها ٢٠ مرة .. إنها ثاني قارة على الأرض من حيث الضخامة . فآسيا هي الأولى طبعاً .. والصحراء الأفريقية أكبر مساحة من الولايات المتحدة ، وإذا قورنت القبول الأوروبية بدول مثل غانا ونيجيريا والكونغو ونزانيا ، فإنها تعتبر مجموعة من الأقزام ..

ثم أُنْقِلَت القاموس ، ومضت تقول لزوجها الرحالة ويلارد برايس : أما الباقي فقد حفظته قبل ذلك .. فالنيل أطول نهر في العالم . وشلالات فكتوريا أكبر من شلالات نياجرا على حدود أمريكا وكندا .. وغناة السويس ضعف قناة بنما .

ولكن الزوج كان مهموما .. فإن هذه الرحلة منجدها الزوجة متعة ولا شك . أما هو فحرف يوثق عنها كتبنا لا بد أن يكتب . أمي لابد أن يتقد ويصور كل ما يراه ويسمعه .. أنه مثل الناقد الرياضي في مباريات كرة القدم لا يستمع باللعبة وإنما يحسبه ويكتبه . ويسجله . إنه مثل التلميذ في السنوات الأولى في كلية الطب يحضغ الطعام ويتابعه من الفم إلى البعوم إلى المرئ إلى المعدة .. ويتابعه بعد ذلك في أمعائه .. إنه بذلك لا يجد متعة في الطعام . وأكثر من ذلك أن يتوهم أمراضا لا وجود لها ..

ولما وجدت الزوجة أن زوجها بدأ يرتدى ملابس الرجل الرحالة المهموم قالت : أعود إلى القاموس : وأفريقيا هي لوطن الأصلي للقبيل وهو أكبر حيوان في العالم ، والموطن الأصلي للزرافة . والكركدن الأبيض . والأسد ملك الغابة .. والجاموس الثرى وهو أكثر حيوانات الغابة شراسة . وفي أفريقيا أكبر أنواع الزواحف : السحاح الذي عبده القراعنة . وقد حدثنا هير ودوت عنه .

هذا المؤرخ هير ودوت - كلامي أنا - قد شوه سمعتنا كما لم يفعل أي زائر إغريق إلى مصر . فقد كتب أنه لم يستطع أن ينام في مدينة حلف بسبب بكاء التماسيح طوال الليل ، ومنذ ذلك اليوم والعالم كله يتصور حتى أماننا هذه أن التماسيح ما تزال تلعب في النيل . بل إن الرئيس جمال عبد الناصر قد سأله أحد الزعماء السوفييت إن كان النيل ما يزال مليئا بالتماسيح ..

ولو قال أي مصري مهاجر في أمريكا وأستراليا أو كتبنا أنه عتقنا حياء إلى القاهرة يزور أهله : لم أتم تلك الليلة - من الفرحه طبعاً - لوجد من يقول له : بسبب بكاء التماسيح !

منه لله هذا المؤرخ الأغريق هير ودوت !

وتعود الزوجة إلى القاموس في محاولة بائسة للتخفيف عن الزوج المهموم :

وبعض القبائل الأفريقية تعبد نوعا من الثعابين اسمه : الأصله .. وفي أفريقيا أعظم أنواع القوربلا والشبانزي .. وهذه الحيوانات موجودة في أفريقيا وحدها وبكثرة .

وحتى لا يبدو الزوج وبلارد برابرس أنه تعيس بسبب هذه الغلظة فقد أفتع نفسه وحاول أن يكون لطيفا مع الزوجة ، وقال لها : ان العلماء كانوا يعتقدون أن أسبا هي الموطن الأصلي للإنسان الأول ، ولكنى أعتقد أن الإنسان الأول كان هنا في أفريقيا .

وبهذه العبارة بدأ المدخول في « جو » الرحلة التي سجلها وبلارد برابرس في كتاب عنوانه « أفريقيا .. ذلك اللامعقول » وقد جعل ثلث الكتاب صوفاً ، وبعد جاء الأديب الأمريكى آرثر ميلر فكتب رحلته المشهورة « في روسيا » وجعل ثلث الكتاب بقلمه والباقي كله من تصوير زوجته ، وقبلهما الكاتب الفرنسى أندريه مورو ألف كتابا في أربعين صفحة .. أما بقية الكتاب وتبلغ ٢٥٠ صفحة فهي مجموعة من الصور الرائعة ، الكتاب عنوانه « باريس بالليل » وهو تحفة أدبية وفنية معا .

يبدأ الرحالة كتابه بأن بلغت عين القارئ وعقله إلى عبارات حادة جافة كتبها العالم الكبير داروين في كتابه « أصل الأنواع » ، يقول داروين وأرجو أن تقرأ بعناية جداً هذه الكلمات التي أنقلها بدقة : في كل منطقة كبيرة من العالم نجد أن الثدييات التي ما تزال باقية . كانت لها صلة وثيقة بالأنواع المنقرضة في نفس المنطقة .

ويقول داروين بعد ذلك : ولهذا السبب ربما كانت أفريقيا قد عاشت فيها قروء منقرضة كانت لها صلة وثيقة بالقوربلا والشبانزي ، وهاتان الثدييتان من القروء أقرب شبيها بالإنسان ، فلعل أجدادنا قد عاشوا في القارة الأفريقية لا في قارة أخرى ..

ثم هذه العبارة لداروين : ولكن يجب ألا ننزل إلى الخطأ ونقول إن أجدادنا كانوا مطابقين أو متشابهين تماما لأي فرد من القروء الحية .

هذه العبارة الأخيرة لم يذكرها أحد في المائة سنة الماضية ، ولكن العلماء يذكرون العبارات السابقة فقط ، ويحاولون أن يربطوا بين الإنسان والقرود . ويحاولون أيضا أن يبحثوا عن المرحلة التي تحول فيها القرود إلى إنسان - هذه المرحلة المفقودة . ولذلك فالعلماء يبحثون أذخر بحثا عن هذه المرحلة المفقودة بين الإنسان والقرود ، ومن الغريب أنهم عثروا على شيء من ذلك في أفريقيا في السنوات ١٩٢٥ و ١٩٣٦ وأخيرا في ١٩٥٩ وجدوا ما يمكن أن يوصف بأنه الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرود في تنزانيا . ولذلك فعدد كبير من العلماء يرى أن آدم عليه السلام نزل من السماء وهبط إلى تنزانيا وليس فوق جبل آدم في جزيرة سيلان (*) .

وأفريقيا كانت مهدا لأكبر وأول حضارة عرفها الإنسان : في مصر . وفي مصر أيضا الأهرام واحدة من عجائب الدنيا السبع . وإذا كان في أفريقيا الآن ثلاثة آلاف لغة . فالعلماء يتوقعون في المستقبل أن تتحد هذه اللغات وتصبح ثلاثا فقط ، ولم يحدث في تاريخ البشرية أن هبت الشعوب إلى الاستقلال والحرية بهذه الكثرة والقوة . كما حدث في أفريقيا ..

أما الصورة التي تخيلها الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو أن سكان أفريقيا هم « هؤلاء البدائيون النبلاء السعداء » - فهي صورة جميلة ، فلبسوا سعداء إلى هذه الدرجة ، في أفريقيا فقر وجهل ومرض وخرافات ، وما تزال فيها قبائل ترى العفاريات تحت كل شجرة .

ولابد أن العالم كله قد شعر بالعار يوم ٥ يناير سنة ١٩٥٩ عندما نقلت صحيفة « نيويورك تيمس » الأمريكية أن ثورة نشبت في الكونغو . بصراحة : لم يكن في وزارة الخارجية الأمريكية شخص واحد يعرف شيئا عن هذه المستعمرة البلجيكية ، ولم يستطع أكثر الناس علما أن يتصور أن الكونغو سوف تكون جمهورية مستقلة بعد ١٨ شهرا ..

(*) راجع كتاب « حول العالم في ٢٠٠ يوم » .

وبدأت الرحلة من لندن ..

وحلقت الطائرة فوق جبل طارق بن زياد ، وهنا الجبل قد نسب إلى القائد العربي الذي حمل الحضارة إلى أوروبا التي خمدت أنفاسها تحت الجهل ، وكان الأغريق يرون أن عند هذا الجبل ينهى العالم .. وق الطائرة استمع إلى حوار بين رجل وابنه الصغير . قال الابن : وسرى عددا من آكلة لحوم البشر في بلاد المغرب .

فقال الأب : انهم ليسوا متوحشين ، لقد كانوا مصدر الحضارة الأوروبية . وهنا تدخلت الأم بغضب قائلة : لا تحاول بليلة أفكار الطفل يا عزيزي .

وكان الأب على صواب ..

وهبطت الطائرة في مراکش .. ثم ارتفعت وهبطت على الساحل الغربي في مدينة دكاكر ركب سيارة إلى أطراف المدينة .. النساء عاريات .. نصف عاريات . ومن الغريب أن الصدور ليست بارزة رغم أن الفتيات صغيرات . ونساء : قبل له إن الفتاة تعمل باستمرار على أن يبلو صدرها متوهجا لنوم الآخرين أنها حملت وأرضعت كثيرا . أي أنها امرأة خصبة .. فالرجل لا يجب أن يتزوج امرأة لا تنجب له الأطفال ..

ومن هذه المنطقة في بلاد السنغال كان يجرى شحن الزنوج إلى أمريكا أيام تجارة الرقيق ..

غلطة أخرى ارتكبها الرحالة ويلارد برايس .. فقد شكوا من صداع شديد وتناول قرصين من الأسبرين ولكن الصداع لم يذهب فعاد يتناول قرصين من الحبوب المنومة وكانت زوجته تعرف أن الصداع إذا ما أصاب زوجها فسوف يشكو من الأرق أباما وبذلك نفس الرحلة كلها .. وانتهزت الزوجة فرصة أن زوجها قد نام قليلا وأخرجت حقنة مخدرة وأنفذتها

في فراعه .. وثام الزوج .. وهبطت الطائرة ولا يزال الزوج نائما وحملوه على نقالة إلى أحد المستشفيات . وظل الزوج نائما ، ونساءه لوا : إن كان الزوج قد جاء إلى أفريقيا قبل ذلك . فقالت الزوجة : هذه أول مرة ..

ولما سألت عن السبب قبل دينا لدغته ذبابة نسي نسي التي يظهر مفعولها المرضي بعد ست سنوات .

ولما فكتش الزوجة في جيوب زوجها اكتشفت أنه - على سبيل الخطأ - ابتلع أكثر من عشرة أقراص منومة .. وحملوه وهو نصف نائم بعد أيام من الصعود والمهبوط إلى شلالات فكتوريا لعله يصحو . وبدأ يفيق عندما قالوا له أن أمريكا مجنونة طلب من حكومته شراء هذه الشلالات ، ولما ضحك ، أدركت الزوجة أن زوجها قد أخذ يفيق ، وأفاق ..

نحن هنا في قلب القارة الأفريقية .. أعظم غابة على سطح الأرض ، والفرق بين الغابة وبين حديقة الحيوانات أن الإنسان في الحديقة حر طليق ولكنه في الغابة لا بد أن يعيش في أقفاص أو في سيارات أو في حراسة مشددة ولذلك فالأفضل أن يشاهد هذه الغابة العظيمة من الجو ، وركب طائرة ذات محركين وراحت تملو وتهبط وتصل في هبوطها إلى مستوى القيلة والزرافات أما القيلة فلا نهز كأن شيئا لا يتحرك فوقها أما الزرافات فكانت أسرع الجميع ..

وتراحم الركاب على أصوات الحيوانات يلتقون الصور في معادة وجنون ولكن شخصا واحدا كان يبحث على القرى - ومعه حق - إنه الطيار نفسه فهو يدخن دون أن ينتظر إلى شيء حوله أو نحوه فقد رأى ذلك أنوف المرات ، إنه محروم من نعمة الدهشة أو لعله قد ذاق طعمها مرة أو أصبحت ذكرى !

والقطيات في كل مكان تطلب إلى الزائر ألا يخرج وحده في الليل .. أو بعد الغروب بصفة خاصة ، والسبب معروف طبعا .

أما صحراء كلها رى فيها أعجب أنواع البشر وفيها هؤلاء الأقزام - البوشيان -
إنهم يمشون كأنهم مكسحون ولكن إذا جروا فهم كالرياح .. ويرون بالعين
المجردة ما لا يراه التلسكوب . وهم في حالة هياج جنسى دائم .. حتى اثنتين
من العمر ، وهذا من نواعى فخرهم . ولذلك فصفاهم وأسافهم مأخوذة
من هذه الحالة الجنسية الغريبة .

أما طريقهم في صيد الأسود فجموعة منهم يأتون إلى الأسد بمنزلة صغيرة
ويطفقونها أمامه ، فإذا هجم عليها أطلقوا عليه سهاماً شديدة السم وبعد ذلك
يستخدمون نفس الأسد في صيد حيوانات أخرى .

أما أساليبهم في الغزل والزواج فهي غريبة من ذلك أيضاً . فهم يصنعون
سهاماً صغيرة جداً ويغمرونها بالعطر فإذا رأوا الفتاة أطلقوا السهم على ثوبها ،
وطبعاً سوف تنتظر الفتاة يكن خجل مفتعل إلى مصدر السهم . فإن أعجيباً
صاحب السهم ، أثبت السهم في مكانه ومعنى ذلك أنها وافقت على الزواج
منه وإذا أخرجت السهم وكسرتة فعنى ذلك أنها رفضته زوجها ولا تنطلق
السهم عادة إلا إذا كان الرجل أو الشاب عرّة تماماً .

وفي الليل جاءت ذبابة ووقعت على ذراع الرحالة برايس . ونفضها
أحد الزنوج . الذبابة اسمها : نسي نسي . وهى تقتل الكثير من الحيوانات
ومن المواطنين وذلك بأن يجعلهم ينامون حتى الموت . أو يموتون أثناء
النوم .. وهى لا تصيب الرجل الأبيض .

ومن حين إلى حين يكتب الرحالة برايس مذكراته . وفي إحدى الليالى
اكتشفت الزوجة أن زوجها يعلى إلى جوار السرير ويقول : يارب خلصنى
من الرحلة السوداء في القارة الأكثر سواداً .

إذن لقد تعب الرجل ..

وهو معذور ، فالتيل يخوف ، والذهاب مرهق ، وهو حريص على أن يدخل

الغابة ، وأن يرى عن قرب وأن يسمع ، وأن يسجل بالصورة وبالقلم ،
وفى أحد الفنادق الصغيرة أشاروا عليه بأن يختار حارسا يجلس تحت نافذته
طوال الليل ، وفى الليل جاء الحارس : رشيق خفيف ، ومعه بندقية وكثير
من الطلقات ، ولم يكذب أن الزوجان حتى لفزا من السرير ، لقد سمعا صوت
أسد جريح .. ثم صوت نمر .. وإذا صحت درايتهما بالأصوات التي استمعا
إليها مسجلة على اسطوانات ، فإن هذا الصوت الأخير صوت ثعبان وهو
ينهر طائرا كبيرا .. وفجأة ساد الصمت .. واقترب الاثنان من النافذة
ووجدوا الحارس فى مكانه خادئا ، وفتحوا النافذة وسالاه عن هذه الأصوات
ولم يفهما منه أى شئ وفى الصباح عرفا أن الحارس هو مصدر هذه الأصوات :
إنه يخيف الحيوانات المفترسة حتى لا تقترب ..

يقول الرحالة برايس : انه ليس أحسن من الصدقة السعيدة بالنسبة
لأى مسافر ..

أما الصدقة السعيدة فإنه قد وجد طائرة يملكها أحد الأمريكان ..
هذه الطائرة أقسمت زوجة هذا الأمريكى ألا تكون مع زوجها وحدها فى
مكان واحد .. أبدا .. لا غرفة النوم .. طبعاً ولا السرير .. ولا الطائرة ..
بعض علماء النفس يشخصون مرضها بأنه « جنون صاحبات الملايين » أى
أن المطلوب هو أن يكون هناك آخرون وقام الرحالة وزوجته بدور حاجز
الصوت ، أو مانع الصواعق بين المليونير صاحب الطائرة والمليونيرة زوجته .

وهي صدقة سعيدة لأن الزوجة أقسمت برحمة أمها فى ذلك اليوم
بأنذات ألا تنفرد بزوجها وألا يفعل هو ذلك ، وفى نفس اليوم أقسم الرحالة
ألا يسافر فى سيارة وحده هو وزوجته وسط الغابة حتى لو مات فى تنجانيقا ..

والغلظة الثالثة التي ارتكبها الرحالة هو أنه لم يسأل صاحب الطائرة
أين يذهبان . وإنما فرح بوجود طائرة . وفرح بالاستمتاع المفاجئ بما

يستمتع به أصحاب الملايين الذين يفضلون الزوجة المتعبة على الطلاق السعيد
لأن الطلاق معناه أن تنال الزوجة المليونيرة نصف ملايين الزوج !

وانتهجت الطائرة إلى جزيرة زنجبار على الشاطئ الشرقى لأفريقيا وانفتحت
باب الطائرة وكأنه انفتح على أحد معامل المطور في باريس . فهذه الجزيرة
الصغيرة معناها مدينة القرنفل ، وهذا واضح من الرائحة . ومن النسيم
الذى يلف القنابات الجحليات اللآلئ ارتدين السارى الممتدى . وعلى الرغم
من أن الجزيرة ملاصقة لقارة أفريقيا ، فإن أكثر أهلها من الهنود . أما العرب
فيمكن تمييزهم . فهم الذين يضعون صورة جمال عبد الناصر في داخل
المحلات أو على أبوابها . وهذه الجزيرة تصدر ٨٠٪ من قرنفل العالم كله
الذى يستخدم في المطور وفي منع تسوس الأسنان وتسكين الألم .. وقبل
اختراع الإنسان للتلاجة كانت أوروبا تحفظ اللحوم في القرنفل والقرفة .
وهذه الجنة الصغيرة ، ككل جنة لا تخلو من الحيات .. فالحلاف شديد بين
الأفارقة والهنود والعرب .. وهذا هو التسوس الوحيد الذى لا يستطيع القرنفل
أن يقضى عليه .

وعندما عاد الرحالة برايس إلى تنجانيقا أعجبه أنواع غريبة من الحيات .
بعضها يصل إلى ثلاثين قدما . مثل ثعبان الأصلة . وهو غير سام .
ويمكن تربيته في البيت . وهو نادر - لا يلدغ .. والخدمة الوحيدة
التي يؤدها لأهل البيت هو أن يأكل الديدان والتمران والبطور . وفي حالة
الغضب - وهي نادرة - لا يلدغ أحدا وإنما فقط يلطف حوله ويعصره -
وإذا كان من الصعب عليك أن تفهم هذه الصورة فإذهب إلى أى محل عصير
فصص وتحيل نفسك عودا من القصب !

وهناك نوع آخر من الثعابين انتفائه .. هذه الثعابين تستند إلى مؤخرتها
وترفع جسمها ورأسها إلى ما يقرب من رأس الإنسان . وهي قادرة على أن
تطلق من فمها قذيفة إلى العين . وهي لا تحظى أبدا . هذه القذيفة الدقيقة

عبارة عن سم مركز يصيب العين بالعمى .. والباقي معروف — في الليل أو النهار وكل الثعابين تهتدي بالأشعة الحمراء .. وكل الثعابين لا ترى .. وإنما هناك حول العين توجد خلايا ضوئية .. فتأثر بالأشعة تحت الحمراء وتوجه الثعبان إلى حيث يريد — هذه معلوماتي أنا ..

وفي بحيرة فكتوريا وجد عدداً كبيراً من حيوان السيد قنطرة .. عيونها جاحظة تحت الماء .. وهذا الحيوان قادر على أن ينجني تحت الماء أربع دقائق ثم يطفو .. هذا الحيوان لا يصيب أحداً بضرب إلا إذا — وعشرات من كلمة « إلا » — أي إلا إذا عاكسته .. إلا إذا عاكست صفاره .. إلا إذا لمست غريبه .. إلا إذا سلطت عليه الأصواء .. إلا إذا ضربته بأي شيء .. وهو حيوان يحب المداعبة فقد حدث أن طارده سيدة أمريكية شقراء .. فهربت منه فوق إحدى الأشجار فزق فستانها وقيصر نومها .. إلى آخره — وعندما عاد إلى الماء وجلوا السيدة بلا جروح .. انه كان يداعبها فقط وعندما ذهبت أنا إلى هذه المنطقة سمعنا هذه النادرة وكانت توافقنا سيئة أمريكية أطبقت عينيها وشفتيها وانطوت على نفسها .. لا تريد أن ترى أو تسمع أو تراقب أو تسمعنا .. وسألنا إن كان السيد قنطرة بالذات موجودا وإن كان ما يزال يحب المداعبة وقبل لنا إنه مات وكان موته حرمانا لنا من رؤية فتاة أمريكية جميلة ..

لم يبق من رحلة الصديق العزيز ويلارد برايس سوى أن يذهب إلى جبال « دوتزوري » التي وصفها نثرشل بأنها قطعة من الجنة : النباتات والحيوانات والصعود والمهبوط .. وهذه الجبال لها خمس قمم : هذه القمم مغطاة بالجليد .. وتحت الجليد ستائر كثيفة من السحب .. وقبل السحب توجد حديقة نباتات .. وألوان وأحجام ومساحات من الأشجار الغريبة العجيبة وفي هذه المنطقة نمتي أمين باشا في أواخر القرن التاسع أن يدفن هنا ولكن العرب استطاعوا أن يحرقوه من هذا الحلم .. قتلوه قبل أن يصل إلى السفح .. وأمين

باشا هو طبيب ألماني كان مرافقا لغوردون باشا واسمه إدوارد اشتنر
ثم اختار له اسما تركيا . وكان عميلا . وكان معاديا لأهل البلاد .. ولما
عرفوا حقيقته قتلوه على باب الخنة ..

هذا الجبل روزوري له اسم آخر هو « جبال القمر » وربما اختاروا
له هذا الاسم لأنه غريب عجيب .. كأنه من كوكب آخر .. أو
لأن أهل البلاد يرون أن القمر يظهر منه ويختفي فيه بسبب السحب الكثيفة .
أو أنه ينام ويصحو فيه .. ولو عرف أهل اسكتلندا الذين يتفاءلون بنبات
الحلججان كم يوجد من هذا النبات بهذه المنطقة لجعلوا حياتهم هنا .. إن هذه
الجبال طولها ستون ميلا وعرضها ثلاثون .. وعشرات الأتوف من الأفندة
مزروعة بهذا النبات الجميل .

وكان من نصائح أهل هذه المنطقة أن الذي يصعد جبال القمر على قدميه
يطول عمره ولكن من أدركنا أن هذه الحرافقة حقيقية . وتلفت الرحالة برايس
إلى زوجته وهزت كتفها أنها لا تستطيع طبعاً أن تصعد هذه الأتوف من
الأقدام .. ولكن أهل هذه البلاد يعرفون هذه الحقيقة ولذلك وجفوا لها
حلاً : أن يتخلى الرحالة برايس حذاءه ويعطيه لأحد الشبان المشهورين بصعود
الجبال .. ويرتدى الشاب هذا الحذاء ويصعد به ألفاً وألفين .. وثلاثة
آلاف .. ثم يعود إليه .. وبعد ذلك عليه أن يرتدى حذاءه إن كان يصلح
وسوف يعيش عمراً أطول من حذائه .. أما الحذاء فقد تمزق تماماً ولكن
الرحالة برايس احتفظ بحذائه في صندوق زجاجي لعله يعيش أطول من
حذائه - ومن النادر أن يحدث ذلك لأي أحد . فأعمارنا أقصر من حياة
أحذائنا !

واحد ...

لا يريد أن ينسى نفسه

هذا الرجل يجب أن يعرفك بنفسه . . فهذه عادة عنده كلما التقى بإنسان غريب . لأنه من الضروري أن يرتبط بالإنسان بعلاقة ما . . حسب . . كره لا مبالاة . . المهم ألا يكون مجهولا لدى أحد من الناس .

مسافر كثيراً في أمريكا وفي الشرق الأقصى وفي إسرائيل وفي بلاده هو :
المهجر التي تركها وهو دون العاشرة . ثم سافر إلى لندن ليصبح صحفياً بريطانيا .
وكاتباً طريفاً يحب قراءته للجميع ولا يرضون عنه . . وليس سبب ذلك
كرم الصحافة عند الإنجليز . . ولكنهم يرون أن الكاتب الساخر مثل كثير من
الحيوانات أو الطيور التي لها مخالب أو أنياب . فهي بطبعها لا بد أن تجرح
وليس من السهل تغيير طباع الكتاب والحيوانات .

وليس نادراً أن يظهر من الإنجليز إناس مثل برنارد شو وأوسكار وايلد
وبيربوم . . وهذا الرجل جورج مكش . . والكلمة الأخيرة يفضل أن ينطقها
الناس وعندهم زكام أي : جورج بكش . . فهو على صلة مستمرة بالبكش
والضحك من الناس وعليهم . وهو حريص على احترام الناس له . ولكن
ليس من السهل أن يحترمك كثيراً من تقوم له بدور البهلوان . أي أنه إنسان
محبوب فقط حاول بكل قوته أن يكون محترماً ولكنه لم يفلح . . والمحاولة
التي يبذلها ليكون محترماً تعادل نفس المحاولة التي يبذلها الكاتب المحترم
ليكون محبوباً . كلاهما يبذل أقصى ما في وسعه ولا يفوز إلا بالقليل جداً
من ما في وسع الناس . ولكنه لم ييأس رغم أن الناس قد يشتموا تماماً .

والكاتب المهجري الأصل الإنجليزي الجنسية جورج مكش له رحلة

مشهورة اسمها ، الشرق شرق ، وهو في هذه الرحلة يزور اليابان ولا يزور جزيرة فورموزا ويرى الهند ونيبالاند وهونج كونج والفلبين والملايو وركيا . . أما سبب الزيارة فهو أنه كان عضوا في مؤتمر القلم الدولي الذي انعقد في طوكيو .

وجورج مكش يدخل في موضوعه مباشرة فيقول لك أن قارة آسيا كبيرة واسعة . متعددة الألوان والأجناس والأديان واللغات . ولكن يظهر أن القاعدة في هذه القارة : يجب أن تحب قارتك وأن تكره جارتك !

وهذه قاعدة لا تخطئ في كل هذه القارة . فن النادر أن نجد دولتين متجاورتين متعابتين . .

وبضحك مكش من مثل هذه الكلمات : الروح الآسيوية . . الوعي الآسيوي . . الضمير الآسيوي . . والرجل الآسيوي . .

وهي كلمات لا معنى لها . . لأنه لا يوجد أي تشابه بين راعي الأغنام في طشفند وصاحب البار في بيروت وكلاهما آسيوي . . أو بين قاطع الطريق الفلبيني وبين صاحب شركة تاتا الهندية . . كما أنه يصعب أن نفرق بين السوري والتركي والإيراني . . وليست بينهم جميعا أي شبه بالصيد الأنثونييسي وهم جميعا آسيويون . .

وبعد ذلك تحيى تعبيرات : الشرق الأقصى والأوسط والأدنى . . وهي كلمات ليس لها أي معنى عند الرجل الآسيوي . . ففي أوروبا يقولون عن اليابان إنها الشرق الأقصى . . ولكن كيف يقول الرجل الياباني عن نفسه : نحن هنا نعيش في الشرق الأقصى . .

إن كلمات : الأقصى والأوسط والأدنى . . هي كلمات تعتمد على

وجهة النظر الأوروبية . . في حين أن الشرق الأقصى بالنسبة للرجل الياباني هو الولايات المتحدة .

ثم إن اليابان تعتبر من وجهة نظر سكان استراليا : الشمال الأقصى . . واستراليا من وجهة نظر الرجل الصيني تعتبر الجنوب الأقصى .

ولا أعرف من الذى قال إن الانسان يستطيع أن يولف عن آسيا كتابا في ثلاثة أيام أو في ثلاثة أعوام - وهو على حق . فمن السهل أن تقول كل شئ - وبسرعة . ومن الصعب أن تقول كل شئ وعلى مهل . فكل ما تستطيعه هو أن تنقل ما يفعله طفل نمدد على شاطئ البحر : أن يرى البحر بالطلوب وأن يرى صورته وأن يرفع رجله . . وأن يتلف حوله يمينا وشمالا ويتفرد بنفسه في كوخ ويقول شيئا على ورق أثناء انتظاره لاحدى عابرات المحيط .

ويعاود الكاتب المجرى جورج مكش أن يفسر لنا من أين جاءت روح السخرية هذه . يقول إنه ولد في ظروف جعلته يشكك في كثير مما يسمع من الناس . مثلا : في الحرب العالمية الأولى انضمت القرية التي ولد فيها إلى يوغوسلافيا وبعد ذلك أعيدت إلى المجر . في المرة الأولى كان يكره المجر التي فرطت في شعبها . وفي المرة الثانية كان يحب يوغوسلافيا التي لم تشأ أن تحتصب أرضا لاستحقاقها وبعد ذلك سمع وهو طفل أن الشاب اليوغسلافي الذي أطلق الرصاص على الأمير النمساوي فادى ذلك إلى اشتعال الحرب الأولى ؛ كان مجرما لأنه أدى إلى خراب العالم . وفي المرة الثانية اعتبره بطلا لأنه أدى إلى تساقط حكومات فاسدة وعروش ظالمة . وكان عليه منذ البداية أن يختار لنفسه موقفا خاصا . وجاء اختباره : أن يسخر من الجميع . فلا شئ بين الناس أو عندهم ألا يبعث على الضحك ولكن اناس لا يدركون ذلك .

فعندما ذهب إلى اليابان لأول مرة لقيه شاب في المطار . في يده ورقة

وفلم وسأله عن انطباعه عن هذه البلاد وقال : رائعة . وكتب الشاب ذلك . ولكن مكش سأل أحد أصدقائه : كيف يمكن أن يسألني انسان عن بلاده بهذه السرعة مع أنني لم أزل المطار . وقال صاحبه : ولا يهتك . . إنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلت .

وكان رد مكش : ولكنه سألني بالإنجليزية . . .

وقال صاحبه : الأسئلة بالإنجليزية فقط هي التي يعرفها . .

وكانت هذه أول نكتة صادفت مكش في اليابان . فالتشاب يعرف الأسئلة ولا يفهم الأجوبة . . ولكنه سوف ينشر على لسان مكش : أن اليابان قد أعجبت وأن شعبها عظيم . وأنه صانع المعجزات . وأن اليابان أكبر دوله صناعية في آسيا . وأكبر منافسة لأمريكا وألمانيا وأنها قادرة على التفوق على الجميع . وأنها لم تهزم في أية حرب دخلتها إلا سنة ١٩٤٥ فقط . عندما ضربها الأمريكيون بالقنابل الذرية . وعندما أقام مكش في اليابان بعض الوقت جاءه شاب ياباني يسأله عن رأيه في اليابان . كان رده : الشعب عظيم والبلاد جميلة . ولكن يتقصصهم شيء من المرح . .

وأخرج الشاب ورقة من جيبه وكتب عليها : إذن لابد من زيادة الاهتمام بالمرح . .

وبعد ذلك يمكن أن يقال عن اليابان إنهم شعب قادر على التقليد . وليس التقليد سهلاً . فإلهم أن يختار الانسان ما الذي يجب أن يقلده وكيف يضيف إليه ، وكثيراً ما جاء التقليد أروع من الأصل - هذه القاعدة تنطبق على ما يفعله اليابانيون في كل شيء . . .

ولكى يصبح الرجل الياباني قادراً على الإبداع يجب أن يكون قادراً على التركيز . أن الواحد منهم يستمع إلى محاضرة أربع ساعات دون أن يتحرك له جنن لكي يخرج منها شيء " ما . وقد يكون هذا الشيء " ناقها جداً . ولكن الياباني هو الوحيد على هذه الأرض القادر على أن يجعل الثقافة جوهرية ويتركز وطول نفس .

وليس الانسان محتاجا إلى قوة ملاحظة ليدرك أن الرجل الياباني مهذب جداً . لاشك في هذا . فأنت دائماً - أو مطالب أيضاً - أمام إختناعات على اثنين وعلى الشمال . . ولا تعرف ماهو السبب الحقيقي فالمشاي ينحني وراكب العربى ينحني . والاختناعات درجات . من السجود إلى الاعتناء . وهم قادرون على توزيع هذه الدرجات على مدى الاحترام والامتنان بين الناس . . وإذا أخطأت في مراعاة النسب فأنت مادة للضحك . .

وفي اليابان لا يفهمون كثيراً ما تفكره بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى . ولكنك أمام أناس على استعداد لأن يقدموك فأنت تطلب العظم المشوى فيجى ' السمك . ورفض السمك فينحني الجرسون ويأتى لك بالشاي . ورفض الشاي فيأتى لك بشاي الطعام . وإذا ذهبت بك العصية إلى أقصى درجة وألقيت بها من نافذة فإنه يهبط إلى الشارع ويأتى بها مرة أخرى ومعها صاحب المحل والحساب والاعتناء عميقة !

فما الذى تستطيع أن تفعله في اليابان ؟

لا تفعل أى شئ : نخرج وبسط نفسك وليس المهم أن يفهمك الناس . وإنما حاول أنت أن تفهمهم . مع ملاحظة أن الناس مهذبون جداً . وأن بلادهم غنية ونشطة ويمكنها أن تعيش من غيرك . ولكن لو عرف وزير السياحة الياباني شخصيا أنك غير راض عن بلاده لجاء لوداعك في المطار واعتذر لك هو وجميع أفراد أسرته . . ولدعالك إلى فندجان شاي في أقرب مطعم على حسابك .

وإذا أنت حاولت أن تسمع نكتة من أحد اليابانيين فيجب أن تتحمل أنت النتائج وحدك . . هذه النكتة مثلا : يقول أحد اليابانيين أنه كان يقيم في بيت وشيت النار في البيت . أكلت كل شئ . وأحرقته والده وانتقل إلى بيت آخر وأحرق البيت كله وأكلت النار والده . وانتهت النكتة !

والذى لا يمكن وصفه عادة هو أن الذى يروى النكتة يضحك طول

الوقت على الصدفة العجيبة كيف أن الثارتختار أباه في المرة الأولى وتختار أمه في المرة الثانية . . ومن الواجب أن نجاهله ونضحك على خبيثته . .

نصيحة : إذا أردت أن تكون يابانيا فكن رجلا . ولا تكن امرأة . إن اليابان هو مجتمع الرجال . والمرأة هي المسؤلة عن ذلك . فالمرأة اليابانية مخلصه جدا لزوجها وهي تعلم أنه يلعب مع قتيات الجيشا . . وهي نظرية قديمة . فقد كان ذلك هيا مضي أيام لم تكن عند المرأة فرصة لكي تلعب . ولكن بشكافو" فرص العمل والعب . أصبحت المرأة اليابانية أوربية كالرجل تماما . وأصبح اللعب من نصيب الجميع . .

ونسبة الانتحار في اليابان عالية جدا . وعندما قال جورج مكش لأحد اليابانيين أن نسبة الانتحار في السويد أعلى : حزن الياباني على ذلك . فقد كان يفضل أن تكون اليابان أعلى في كل شيء .

وعندما سافر جورج مكش إلى الملايو لم يعجبه من هذه البلاد التي أحبها الأدب الإنجليزي سومرست موم . . لا كيف يعيش الناس ولكن كيف يموتون . فقبحا بيوت اسمها بيوت الانتظار . نجد فيها الناس العواجز وقد انعزلوا عن الحياة ينتظرون السنوات القليلة الباقية حتى إذا جاءهم الموت كان هينا . إنهم ينتظرونه على المقاعد وفي الحدائق الصغيرة . . والناس في هذه البلاد يرون أن الموت - ولعلهم متأثرون بالفلسفة الصينية . فرصة للمرح ، وليس مناسبة للهم والغم . فهم يرتدون الملابس البيضاء ويعزفون الموسيقى . وحكمتهم أن السماء قد ضحككت عليهم بالحياة وبالموت . فلماذا لا يشاركون في هذه للثكنة ا

وإذا أردت أن تعرف كيف يمكن أن يكون الانسان بعيد النظر وفي نفس الوقت متبوا في عصره فإليك هذه القصة :

في سنة ١٨٨٨ اقترح مدير حدائق جزيرة سنغافورة أن ينقل أشجار

المطاط من أمريكا الجنوبية ويزرعها في الملايو . وبذلك يمكن الاستغناء عن أمريكا الجنوبية . وضحك الناس . ولكن في سنة ١٩١٩ عندما مات هذا الرجل كانت أشجار المطاط هي مصدر الثروة الحقيقية لهذه البلاد . . إن هذا الرجل قد غير وجه التاريخ .

ومن المناسب هنا أن نذكر عبارة للفيلسوف برتراند رسل . . يقول الفيلسوف : إن جزيرة كورسيكا التي ولد فيها نابليون إذا لم تكن قد ضمت إلى فرنسا وإذا لم يكن نابليون فرنسي الجنسية لتغير وجه التاريخ كله . .

أما مدينة بانكوك عاصمة سيام أو تايلاند كما تسمى الآن . فهي غريبة عجيبة مسحورة . لا نعرف بالضبط إذا كانت متحضرة أو متخلفة . ولكن فيها جميع عناصر الحضارة والتخلف معا . والناس هنا يضحكون على القاضي وعلى المليون . وهي الدولة الوحيدة في كل آسيا التي لم يستمرها الرجل الأبيض . ولقد حاول اليابانيون عندما احتلوا أن يضيفوا إليها الشيء الكثير من الأرض المجاورة ولكن بقي أهل هذه البلاد يضحكون . وحكمتهم أن المنتصر لن يأخذ من المهزوم شيئا إنه يريق دمه . ويبقى الناس كما هم . . نموذجاً للاستخفاف أو البلاهة . ولكن الناس يضحكون على كل حال . . وفي هذه البلاد يناديك كل إنسان باسمك الصغير . لدرجة أن أكثر الأصدقاء لا يعرفون بقية اسمك . . ومن النادر أن يقبل إنسان ذلك . أو حتى يجد مبررا لهذا السلوك الغريب .

والبلاد غنية والشعب فقير . ولكنهم يوكفون لك : أن الأرض في الحقول والسمك في البحر . ولا شيء من ذلك في البيت - وهي حقيقة . ولكنهم يضحكون لذلك . .

ومن الممكن أن يكون الرجل زوجة واحدة وعدد من العشيقات ومن الممكن أن توجد النساء جميعا في بيت واحد . إل أن يتمكن الزوج من البحث عن شقة مناسبة . وقد يكذب الزوج على زوجته فيقول لها : إنه

كان عند عشيقته في الليلة الماضية مع أنه في الحقيقة لم يكن عندها . وإنما كان يلعب القمار — وهذه كبرى الخطايا عندهم !

* * *

وأهم ما في رحلات جورج مكش أنه ينهز هذه الفرصة ليدور حول نفسه يغف أمام المرأة ويصف لك بطل هذه الرحلات : رجل . أكيد رجل . زوج وعنده أولاد . لاشك في ذلك . ووسائل التأكد من ذلك سهلة ومعروفة ورأسه مستدير كان المفروض أن يكون ككرة تندحرج على الأرض لولا أن الله شاء أن يجعلها تخص شخصا واحدا وأن تستقر على كتفيه بدلا من أن تلوح بين أقدام الآخرين . عيناه ضيقتان . ولو خلق الله عينيه أوسع من ذلك قليلا لكان من الضروري — إنها مسألة فتية — أن يكون رأسه أكبر إذن فليس في الإمكان أبدع مما كان . فها عدا شفتيه هما نحيفتان ، متاكلتان وليس السبب في ذلك أية صفة وراثية ، وإنما هو كثير أما جلس يأكل في نفسه . وأقرب ما يأكله هو شفته . إذن فشفته قد أكلتهما على مراحل ولا بد أن الشفتين قد استقرتا على مكان من المصراع الأعور . . وهذا اللعنان في العينين معروف . تجده كثيرا عند سمارقة البورصة . . إنه ذكاء انتهازي ولكنه لم يعط الفرصة المناسبة لكي يظهر . ولذلك فهو الذي ينبع لنفسه هذه الفرصة كلما سافر إلى بلد . إنه يساوم على جمعة هذا البلد : هل تريد بلدا حسن السمعة أو سيء السمعة . ثم لا يجد أحدا يساومه . . وتكون النتيجة أنه هو وحده الذي يختار أن يجعله سيء السمعة !

أما إن رأسه أصبح فقد اختلفت الآراء في ذلك . إناس يقولون : رجولة مفرطة . . ونظريات تقول : إنها وراثة . . وكل هذه النظريات صحيحة ولكنها جميعا لا تنطبق عليه . لأنه أصيب بمرض جلدي وهو صغير . . وظل يهرش رأسه حتى سقط شعره . . وليست كتابته إلا نوعا من هرش جلد أناس وشعوب لعل شعورها ومشاعرها أن تنساقط عليه . . أو ضده . .

لأنها في جميع الحالات ضده .. فهم يستمعون به ويحبونه ، ويمكن الاحترام
مسألة أخرى .

بقي سؤال واحد نادا يشتري الناس كل كتبه - ملايين المرات ؟
والجواب - وهذا رأيه أيضا - أن الناس يحبون الذي يهرشهم ويضعحكهم
مهما كانت الآلة الحادة التي يستخدمها !

وفي الليل ...
هرب آدم من هواء
إلى الجنة !

الرياح تعصف بكل شيء خارج البيت الصغير . . . وأصوات النوافذ والأبواب تضارب . . . والصغافير تنفذ من فتحات في الجدران وبين أوراق الأشجار ونباح الكلاب وعواء القطط . . . وأصوات أخرى لعلها أفكار الناس أو همومهم . . . أو لعلها أصداً مثل هذا الحوار الغريب بين رجل وزوجته . . . الزوجة قد ارتدت قبض النوم . . . ووضعت فوقه روبا ولا تستطيع أن تفتح عينها . . . والرجل قد ارتدى ملابسه كاملة . وفي يده زحاجة خمر لم يبق فيها شيء . . . وفي استطاعته -- وكثيراً ما فعل -- أن يجعلها سلاحاً قاتلاً لهذه الزوجة إذا عارضته . . . أو اعترضته . . .

قالت له : إلى أين . . .

هو : إلى الشارع . . .

-- وفي هذه الساعة . . .

— إن الشارع مفتوح ليلاً ونهاراً .

— وبعد الشارع ؟

— إلى شارع آخر . . .

— وفي النهاية . . .

— إلى أي بيت لا أجدك فيه . . .

— و استطاعتك ألا تجدني في هذا البيت . . . ابن أنت . وأنا سوف

أخرج . . .

— ليس هذا . .

— إذن ماذا . .

— أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . وأرحم نفسي من الإجابات التي تحرق أحشائي . . هل فهمت الآن . .

— إلى أين . .

— قلت لك . .

— ليس عندي ما نقوله أكثر من ذلك .

— عندي . .

— ماذا . . ؟

— أريد أن أقبل الأطفال . .

ودخل . . وكشف النطاء عن أطفاله الثلاثة . . وقبلهم واحدا واحدا . . ثم عند الباب تردد وقبل زوجته . .

وقالت الزوجة : إلى اللقاء . .

وقال الزوج : وداعا إلى غير لقاء . .

ثم عاد الزوج ليقول لها : هذا قراري الأخير . . لا أصلح لأى عمل آخر . . هذه هي حياتي . . وقد دفنتها بيدي هنا . . لكى أعثر عليها هناك . . وقالت الزوجة : أين . .

قال : هناك . . فى أى مكان آخر . . كلمة هناك معناها . . أى مكان ليس هنا 1

وانطلق إلى الشارع يغنى نحنا نشازا ضمن موسيقى انشطاء فى شوارع باريس

ولكنه لا يدري ما الذى صنمه ، ولا ما الذى فعلته زوجته أو أولاده . .
كل ما يعرفه أنه قرر أن يترك فرنسا . . أن يترك العمل في أحد البنوك ،
لأنه لا يصلح لمهملات الضرب والطرح . . إنه يصلح لشيء واحد هو أن :
يرسم فقط !

هذا هو الفنان الفرنسى بول جوجان . . أبوه صغرى وأمه من ييرو
بأمريكا الجنوبية . . بدأ حياته بحارا وبعد ذلك اشتغل في البورصة . . ثم عمل
في إحدى البنوك . . وفي منتصف إحدى الليالي ففز من السرير لأن صوتا
في السقف يتأديه : اهرب وتعال هناك . . ارسم . . فأنت عمقري ولكنك
لا تعرف !

ولم يكن بول جوجان هذا كاثيا . ولا صناعته الكتابة . ولكن كتابه
الذى أصدره ابنه اميل في سنة ١٩٢٣ أى بعد وفاته بعشرين عاما يؤكد لنا أن
الأب كاتب وناقد موهوب أيضا ، والكتاب اسمه « مذكراتي الشخصية »
وخلد انتهى بول جوجان من كتابتها في السنة التى مات فيها . .

يقول جوجان : ولدت هاربا . . لا أعتقد أنني من أصل إنسانى . .
لا بد أن بين أجدادى عددا كبيرا من الطيور المهاجرة . . فأنا لا أقوى على
البقاء كثيرا في مكان واحد . . لا أعرف ماذا يحدث . . إن المكان نفسه
يرفضنى . . ينكرنى . . يستنكرنى !

هرب بول جوجان إلى جزيرة نائية في المحيط الهادى . . جزر تاهيتى . .
ثم جزر المركيز . . عاش فيها . . وهرب منها . . ثم عاد إليها ومات فيها -
أى أحبها حتى الموت !

يقول في بداية كتابه هذا : لا أعرف الكتابة : ولكن أحب أن أكتب
كما أرسم . . فأنا أرسم صورة القمر . . وبعد ذلك أبحث لها عن اسم . .
ويقول أيضا : أحسن شيء في هذه الدنيا إن كان فيها أى شيء حسن

أن يمسك الإنسان لسانه ، وهذا شيء صعب ، فأحياناً نجد اللسان مثل سمكة
القرش قاتلاً ساماً ، وأحياناً نجده كالسراب . وهناك أناس كثيرون إذا
أمسكت لسانهم اختفوا لأنهم يتنفسون أثناء الكلام . . وأنا واحد من هؤلاء .
لولا أن الله قد خلق لسانى فى أصابعى . . فأنا من ذوى الألسنة العشرة . .

لأنه يعرف كيف يكتب ، وكيف يقول . .

وكانه يريد أن يؤكد لنا أنه قادر على الكتابة يقول : فى يوم من الأيام
كنت الحيوانات قادرة على الصراخ بصوت هائل . . أما اليوم فلم تعد قادرة
على ذلك ، وكفى تمنيت أن أكون حيواناً قوياً طبعاً . . أما اليوم فلم أعد أتمنى
ذلك . . إن الحيوانات أصبحت تعرف القراءة والكتابة . . كما ترى !

ويقول أيضاً : كم أنا مدين لمجتمع . . مدين بالكثير . . وكفى يدين لى
هذا المجتمع . . يدين بالكثير جداً ، ففى يدفع ؟ إنه لن يفعل !

ومثل هذه التفاهات والملاحظات كثيرة جداً فى كتابه هذا وفى روايته
الوحيدة التى اسمها : نوا . . نوا . . وهو فى الحقيقة يكتب كما يرسم . .
بقعة من هنا . . وبقعة من هناك . . موضوع من هنا . . ومشرحة من هناك . .
قصة من جزر تاهيتى . . وفضيحة من الدانمرك التى لا يحبها . . وهو لا يعتبر
عن الفوضى فى كتابه . . هذه هى طبيعة الأشياء . . وهذا هو الفرق بين
الحقيقة والغاية . . إنه يفضل أن يكون كتابه غابة من الأشجار والحيوانات
والصبيحات والعطوف . . فهو إنسان بدائى أو يريد أن يكون كذلك .
وكان كذلك وهرب من أجل ذلك . . وعاش ومات على النحو الذى أراد . .
بل إنه عندما مات اختار لنفسه المكان الذى يموت فيه . . اختار البحيرة
الحمرية والأشجار الزرقاء . . وعظام الذئاب . . وريش النعام . . ثم جعل
دخوله إلى القبر مع ضوء القمر . . إنه هو الذى رسم هذه اللوحة . .
ووقع عليها بخمسة كلة . .

كانت رحلته عادية إلى هذه الجزر النائية في المحيط الهادئ . . فقد عرف البحر قبل ذلك كثيراً وهو طفل ، وهو يقدس الأمواج والمواصف ، وكثيراً ما فكر في أن يرمي بنفسه في أحضان الموج . . أو الموت . . مبهوراً بالألوان الزرقاء السوداء الخضراء الهوجاء ولكن زملاءه كانوا يربطونه بالخبال . . وفي إحدى اللبالي تعالت أصوات البحارة : إن واحداً من الفرنسيين قد سقط في المحيط . . وفوجئ الجميع بأن شاباً في لون النيل قد ألقى بنفسه في المحيط وراءه . . ثم صبه وأنقذه . . هذا الشاب زنجي . . هذا الشاب لم يفكر في حياته . . وإنما فكر في انقاذ حياة إنسان . . وتصادف أنه إنسان أبيض . هنا اهتزت مبادئ جوجان . . وأحس أن هناك قبا أخلاقية يعرفها السود ولا يعرفها البيض ، مهما كثرت كتبهم ورواياتهم عن التفضيلة وملكوت السماء .

وعندما رست السفينة في جزيرة تاهيتي . . أحس جوجان بخيبة أمل . . إن الجزيرة هادئة ضيقة بالألوان . . كل شيء فيها كما خلقه الله . . أي كما هو منذ خلقه الله . . ولكن لا يعيب هذه الجزر إلا الفرنسيون الذين استعمروها وإلا ثلاثة من الفرنسيين : الحاكم والقسيس والرجل الذي يبيع اللبخوان وطوايع البريد ، ولما قرر جوجان أن يشتري قطعة أرض قالوا له :
— تريد أن تشتري أرضاً ؟ . .

قال : نعم . .

قالوا : إذن يجب أن تذهب إلى القسيس . .

قال : وأين هو ؟

قالوا : يجب أن تنتظره حتى يعود . .

— من أين . .

— من فرنسا . .

-- ومتى يعود . .

. في الغمام القادم . .

لا أرض يشترها أحد أو يبيعها إلا إذا وافق القسيس على ذلك ،
والقسيس لا يوافق إلا إذا تأكد من رؤية راغبى الشراء عشرات المرات
في الكنيسة . . وجوجان لا يذهب إلى الكنيسة . فلن يشتري أرضا ، ولن
يحد من بيعها له . .

وقرر أن يبنى لنفسه كوخا . .

واختار جبلا صغيرا مشرفا على إحدى الغابات . وأقام لنفسه كوخا
وجعل باب الكوخ مفتوحا ، فليس هناك ما يخاف عليه . . ولا أحد يعرف
السرقه بعد . . وعرف بعد ذلك أن أشياء كثيرة تدخل من الباب المفتوح :
الطور والطيور وبنات تاهيتي . .

ولم يسأل فتاة واحدة عن سبب مجيئها . . ولا هي قالت . . وهو يقارن
دائما بين ما فعله فتاة تاهيتي وفتاة باريس . . فالمرأة في تاهيتي تقول :
لا أعرف إن كنت أحب هذا الرجل فأنا لم أعاقبه بعد . .

ولكن الفتاة الفرنسية تقول : لقد اعتدت أن أحبه ، ولكن بعد أن عاقبته
كثيرا لم أعد أحبه . .

إن المرأة في تاهيتي نموذج نادر بين النساء . .

كل شيء فيها وحولها ومعها جميل . . الله خلقها كذلك . . أى أنها
ما تزال كما خلقها الله . .

وأمام المرأة في تاهيتي يقول ذلك الرجل الهارب من زوجته :

أن يعرف الإنسان كيف يعطى . هذا رائع . . أن يعرف الإنسان
كيف يأخذ هذا أروع . . ويقول : إذا كان أبى حمارا ، فلا ذنب لى ،
أن أبى هى التى اختارت لنا ذلك . .

وفي إحدى الليال طلب إلى إحدى فتيات تاهيتي أن تغف بينه وبين

الشمس عند الغروب . . ولما صرخ من نشوة الألوان لم تخف الفتاة . .
ولنما راحت تضحك . . فإن صوت إنسان لا يخيف فتاة اعتادت على صوت
الوحوش . .

وانحنى جوجان عند قدميها القذرتين وساقبها اللامعتين وراح يصرخ
ويقول : مولاي . . ألقى . . فقد تعلمت أن هناك ثلاثة أنواع من الحب :
الحب المحتوى . . والحب الجسدى . . والحب الينوى . . الأول هو :
الأخلاقى . . والثانى هو : السفاقة . . والثالث هو : البخل . . وأنت صورة
من كرم الله !

وجعل الكوخ بغير باب . . فالباب الذى يعنى " منه الريح من يقفله ،
لا يسريج . . ودخلت مع الريح فتاة جميلة . . أنقل لك صورتها : ذهبية
البشرة . . صفراء ذهبية . . شعرها أسود . . عيناها سوداوان . . الإنسان
بيضاء . . الكتفان ناعمتان مستديرتان . . والعنق مصبوب من رخام . .
ونهداها مستديران . . وهذه النظرة فى عينيها لا تدعو إلى شئ . . إنها مائدة
مدودة . . إنها دعوات بلا بطاقات . . أما ماقاها فأجمل ما خلق الله فى هذه
المنطقة من العالم . . ويقارن جوجان بين ساقى الأوربيات وساقى فتيات جزر
تاھيتى والمركيز . . وكل شئ " بخدغه من حساب بنات أوروبا يضيفه إلى
حساب بنات هذه الجزر مع الفوائد الضرورية إنه لم يفس وظيفته للأصلية
فى أحد بتوك باريس . .

أما رائحة الفتاة فصارخة بكل عطور الغابة . . وفى شعرها تعلقت الورود .
وفى أنظافرها وبين أصابعها . . وفى نهديها . . وفى جسمها العارى وضعت
عطورا وألصقت أوراق الشجر . . وخلع جوجان ملابسه . . وفى الليل طلب
إليها أن تسجبه . . قرر أن يمضى مغمض العينين . . فى أنفه وفى أذنيه
وفى جسمه كله ألوف العيون وألوف الصور . . ومحبته الفتاة . . عاريا . .
أعمى . . ونزلت الجبل . . وتسلمت بين الأشجار . . وهو يتخيل نفسه

هو ميروس الشاعر الأعشى العظيم . . وكل المعاني تنصب في أذنيه . . وبعد ساعة من السير في الغابات توقفت الفتاة فجأة ، وسألت . . وقالت شيئاً لم يفهمه ، وفتح عينيه ليجد نفسه أمام بيت القسيس الذي عاد فجأة من باريس وتغير إليه القسيس . . وبسرعة خلع رداءه وغطاه وطلب إليه أن يحتشم وأن يفعل ما يليق بشرف فرنسا . . وقرر القسيس أن يهديه قطعة أرض شرط أن يجعل لها سوراً عائلاً حتى لا يراه أحد إذا قرر أن يمضى عارياً . .

وتزوج جوجان هذه الفتاة . . وأنجب منها أطفالاً . . أما اللغة التي يفهمها فإشارات . . فإن الفتاة إذا أرادت أن تتكلم فصوصها خفيضة من نقيق الضفادع وموج المحيط . . أما هذا الذي يقوله الله في جسمها فكل الألوان والموازين والمقاييس . . هو البلاغة نفسها . يقول جوجان : إذا أردت أن تبحث عن دليل على عظمة الله وعلى أنه هو الجمال فتعال هنا . ألف دليل . . في ألف جسم . . في كل لحظة آمنت بألف مليون مرة كل يوم . .

ولكن في هذه الجزيرة النائية يعود جوجان يتجوال إلى لياني باريس . . وإلى أصدقائه من الفنانين العظام مثل فان جوخ ثم يتذكر الأوبرا والمهرج . . يتذكر مسرحية « عدو الشعب » للكاتب النرويجي ابنسن . . يقول أن بطله المسرحية تحولت في لحظة واحدة إلى كتلة من النار يدوب لها الجليد وبعد ذلك قررت أن تعيش في وادي الذئاب . .

ويقول جوجان : إنني أعرف عدواً آخر للشعب . . هذا العدو لم تمس وراءه زوجته . . ولكنها استطاعت أن ترى أولاده على أن ينكروهم . . علمت أولادها كيف يقولون يا ماما . . بعشرين طريقة . . ولم تعلمهم أن يقولوا بابابا ولو مرة واحدة . . جعلت حرف « الميم » واحدة من أسنانهم . . أما حرف « الباء » فقد جعلته شيئاً يسقط من بين أسنانهم . . جعلت زوجها عدواً لشعبه . . عدواً لأبنائه أو جعلت أبنائه أعداءه . . آه . . آه . . ليس أسهل من إسقاط امرأة ، ولكن . . آه . . ما أصعب أن يرفعها إنسان !

وعلى الرغم من أنه حاول أن يكون بذاتيا . . يعيش
كما هم ، مخالفا بذلك كل المدارس التقنية المعاصرة ، فإنه كان يحن إلى الحياة
في أوروبا . . . وعلى الرغم من هذه الحياة النادرة ، فإنه كان يحن إلى الفرع . .
إلى الرعب . . كان يصطنعه كان يخيف الناس وكان يستدرج
الناس إلى أن يخفوه أيضا وكان يقول : أن الخوف يبعث على الخوف . . .

ويتذكر كيف أنه هر وزوجته في إحدى الليالي . . كان كل منهما يقرأ قصص
للكتاب الأمريكي ادجار آلان بو القصة على ما يذكر . . كان اسمها ، القطة
السوداء وكان ذلك في الشتاء . . واحتاجا إلى مزيد من الفحم يضعانه
في المدفأة ، ونزلت الزوجة تبحث عن الفحم عندما اصطدمت بقطعة سوداء
فصرخ الاثنان في وقت واحد وعندما مدت الجاروف لتأمله بالفحم
تدحرجت جمجمة إنسان . . فصرخت الزوجة وعندما نزل هو ليلتذنها
وبترك قصته ، الهيكل العظمي ، التي كان يقلب فيها وأمسك الجاروف
من يدها وسحب الفحم تدحرج هيكل عظمي كامل لقد كانا
يسكنان في بيت صديق قنان كان يرسم الجماجم البشرية !

ويقول جوجان في « مذكراته الشخصية » آه . . . آه ياسيدي أريد
أن أحب ولا أستطيع أريد ألا أحب ولا أستطيع لأنني أحمل في
دائلي هذا العذاب المستمر

ويقول أيضا : أن تعرف كيف تعطي ليس معناه أن تعرف كيف تأخذ
لأن الذي يعرف كيف يعطي هو الذي يعرف كيف يأخذ وهنا كل شيء
حولك بعطيك ولكن هذه الطبيعة لم تتعلم بعد كيف تعطيك بحساب
إنها تفيض عليك إنها تفرقك إنها تخدرك إنها تفقدك وعيك . . .
عقلك ولذلك فأنا على يقين من أنني لن أخرج منها عاقلا لن أخرج
منها إنها أروع وأعظم وأخلد مؤامرة على عقل النافه

يقول أيضا : إذا قال لى إنسان يجب أن تفعل كذا وكذا : فلانى أرفض.
وإذا قالت لى طبيعتى يجب أن تفعل كذا وكذا . فلانى أسلم .

ورسم جوجان لوحات كثيرة . . ويبحث بها لى باريس . . واشترك بها
فى المعارض الدولية . . ولم يكسب إلا التخليل . . وأروع لوحاته هى التى
أتى بها من النافذة . . وكذلك فعل صديقه الفنان افينون فان جوخ . .

وهرب من جزر تاهيتى لى باريس . . ثم عاد إلى هذه الجزر . . وهرب
منها إلى جزر المركيز . . ثم هرب منها . . واختفى شهوراً فى إحدى الغابات . .
حبس نفسه فى أحد الكهوف . . ثم غطى جسمه بالوشم . . وراح يرسم . .
راح يرسم قرشاته فى عين الشمس . . فى قلب الجحيم ويرسم وهجا من
الألوان وسعيراً من العطور . . لقد كانت لوحاته صرخات مكتومة دامية
من أقصى الشرق إلى الغرب تنبه إلى أن الحياة ما تزال بخيرها هنا . . فى هذه
الأماكن النائية من العالم . . النجيدة عن أكاذيب الحضارة الغربية . . لم يعبأ
كثيراً بما يقوله الناس إنه يرسم .

يقول : الفن للفن . . ولم لا ؟

الفن للحياة ؟ . . ولم لا ؟

الفن للذة ؟ . . ولم لا ؟

لا يهم أبداً مادام هناك فن . .

وكان جوجان يعلم مقدماً ما سوف يقوله عنه المؤرخون والكتاب ورجال
الأخلاق والسياسة والدبلوماسية : إن الفنان يجد كثيراً من يقوله له : هذا هو
الجنون . . ثم بعد ذلك يبرقونه — أقصد يمزقون الفنان ويحطمونه — ولهذا
فلانى أوفر عليهم هذا العناء لقد مزقت نفسي وحطمتها . .

ويقول جوجان وكأنه يريد أن يفسر لنا سر هذه الرحلة الغربية :
ما الذى أحتاج إليه . . أو يحتاج إليه أى إنسان . . أن يعرف نفسه . . كثيرون
يرون وجوههم فى الماء . . كثيرون يرونها فى بحيرات من الدم . . وأنا أريد

أن أتمسح بوجداني على كل ورقة . . وأن أخوض في كل عطر . . وأن أرى
نفسى عند كل غريزة . . لقد كنت فريسة للطبيعة . . وفي نفس الوقت
افترسها . . عرفت نفسى . . والذي عرفته دونحتى . . فهذه هي الطريقة :
لكى نعرف بوعى يجب أن تفقد الوعي .

وفي نهاية مذكراته يقول : كثيرون يعرفون كيف يكتبون ، وقبلون
يعرفون فن الكتابة ، ولكن من حق أى إنسان أن يحاول ، ولا أجد أى حياء
أو حجب في أن أكتب وأن أرمم ، هذا حق وليس من حق أى ناقد أن
يمنعني مهما كانت عباراتي غريبة . .

وقال جوجان ما أراد ورسم ما شاء . . ولكن كان على أولاده من بعده
أن يتسروا على هذه القضيحة العائلية كيف أن والدهم هجر أمهم في الليل
وهرب منها إلى آخر الدنيا . .

الابن دافع عن أمه . . وقال إن والده عندما تزوج في سنة ١٨٧٣ كان
قد رسم لها لوحة تؤكد هيامه بها . .
أما الأديب الكبير سومرست موم فقد أعجبته القضيحة فصورها في
روايته المشهورة « القصر وست بنسات » . .

وعاد أولاده يدافعون عن أمهم . . وينيراون من جنون الأب . .
وكذلك فعل ابن اوسكار وايلد وأخت الفيلسوف الألماني نيتشه وزوجة
الأديب الإنجليزي د . هـ . لورانس ، وزوجة تولستوى . .

حاول أولاده وأحفاده أيضا أن يدافعوا عن سمعة رجل كان موظفا
عاديا منسيا ، ثم أصبح فنانا يعرفه كل الناس . .

أو لعله أول آدم يهرب من حواء إلى الجنة ، لا من الجنة . . . وحده
وليس معها ، وإنما مصحوبا بجنونه وعفريته ! . .

تحت القنابل
في الوصل ..
على شواطئ جبراهم

اعتادت أن تكون طعاما لعبون كثيرة .. وحدقا لأضواء باهرة من عدسات التصوير .. وأن يراها الناس ولا ترى أحدا .. وأن تمشي في رشاقة على جسر خشبي تتثنى بيننا وشمالا .. ثم تدور .. وينظر الناس إلى ساقها وصدرها .. وكل يحبط في فستانها .. إنها عارضة أزياء .

وقبل يوم العرض تمشي على هذا الطريق الخشبي وحدها مرة بعد مرة .. وتتمازج الصرخات تؤكد أنها لم تحسن عرض الفستان أو المايوه .. وأن ذراعها لم تكونا في حركة موسيقية مع ساقها .. وأنه يحسن بها أن تنقص ولو نصف كيلو .. ومعنى ذلك أنها لن تظهر في العرض القادم لفساتين شائيل إحدى ملكات الأزياء في فرنسا .. ومن السهل على أي إنسان أن ينقص وزنه نصف كيلو في أي يوم .. ولكن عندما يكون الإنسان في وزن هذه الفتاة وطولها .. لم يبق إلا أن يقطعوا نساءها ونهديها وشفتيها .. فليس في جسمها إلا جلد وعظم !

وفي إحدى المرات - وكانت هذه نقعة التحول - كانت تعرض أحدث فساتين الشتاء .. وكان الفستان لعروس . ولسبب لا نعرفه الآن تعرت ووقعت وهناك قاعدة عند ملكات الأناقة إذا تعرت واحدة - فلأنها تشاءم . ولذلك يجب أن تعزل عارضة الأزياء هذا العمل فوراً وإلا كانت تحسا على الجميع ! وبعد عرض الفستان اعتزلت عارضة الأزياء ه ميشيل رى ه العمل في مؤسسة شاتيل ..

وقررت أن تمشي على جسر خشبي آخر . وعلى جانبيه أنوار باهرة

وعيون إنسانية وعيون الكثر وية .. وكل شيء يهر وينتل .. وإذا سقطت فإن
ألف الأيدي سوف تمسك إليها .. ووجودها بين هؤلاء جميعا لن يكون مصدرا
للعناسة ، وإنما سوف تسعد الجميع ..

قررت أن نذهب إلى فينتام مراسلة مجلة د لونفيل أوبسير فاتور ،
ثم وكالة الأنباء الفرنسية ، وكان ذلك في سنة ١٩٦٤ ، وميشيل فتاة مغامرة
فقد اشتركت في سباق السيارات قبل ذلك وكادت أن تموت ، ولكنها في آخر
لحظة أنقذتها إحدى الأشجار . وأيقنت منذ تلك اللحظة أن هذه الشجرة
ليست إلا إصبعاً من أصابع العناية الإلهية .. إذن فالسواء قد ادخرها لمهمة
أخرى ، فلا أخوف عليها من شيء .. وعاشت في فينتام ستة شهور .. وسافرت
بعد ذلك إلى كوبا وغابلت كاسترو .. وقبل ذلك سافرت إلى بوليفيا وقابلت
جيفارا قبل مصرعه .

وأهم من ذلك أنها وقعت أسيرة لقوات فينتام الشمالية . أما مغامراتها
المتعة المثيرة فقد روتها في كتاب لها بعنوان « على شاطئ الجحيم » ..

والرحلة بدأت طبعاً بأن ذهبت إلى سايجون عاصمة فينتام الجنوبية .
القوات الأمريكية في كل مكان .. والبضائع الأمريكية على الأرصفة ،
هذا واضح .. وسايجون هي قلب العالم الذي يتراف بالأشجار وكل العيون تنح
إلى هنا ، وكل العيون قد أوجعها النظر إلى هنا أيضاً ..

الجندي الأمريكي يقول : بعد ستة أشهر سوف ينتهي كل شيء ..

التاجر الأمريكي : يجب ألا ينتهي أي شيء ..

أهل فينتام يقولون : نحن نعلم على كل حال ..

هنا في مطار سايجون ضوضاء لا نظير لها في الدنيا .. طائرات تملو
وتهبط ، ودخان ، دثير ، صفير ، صراخ ، ضباب ، حباب ، رطوبة ،
نار ، عرق ، وأرق ..

التعومة تجدها فقط في وجوه وحركات المضيفات الأرضيات : قد ارتدين الأزرق التركوازي والبنطلونات البيضاء : حركاتهن رقيقة .. ابتسامتهن ناعمة : أما الأمريكان فهم في كل مكان قد وضعوا أيديهم على مسدساتهم يعضفون اللبان الأبيض الذي لا ينهي . ولذلك كأن الأفراد نفرزه ! . وعيونهم المتشككة على كل الهابطين من الطائرات .. وهذه النظرات التي لم يختلف أثرها حتى بعد أن هبطت ميشيل رى في الشارع ..

أول ما فعلته طبعاً هو أن تبحث عن غرفة . وجدوا لها غرفة بخمسة أسرة : ولا تعرف إذا كانت ستشغلها وحدها أو ستجأ بضيوف آخرين . على كل حال أمضت الليلة بصعوبة . فلا هدوء .. الطائرات نهز كل شيء وطلقات المدافع أو القنابل هي الطعام اليومي لكل الناس هنا ..

والأمريكان يعتقدون مؤثراً صحفياً في الساعة الخامسة مساء . الصحفيون يسرونه جنون الساعة الخامسة . يثقفون المعلومات والإجابات عن كل سؤال وأمامهم جميعاً يجدون خريطة عليها علامات زرقاء للأهداف التي أصابها البحرية . وعلامات سوداء لأهداف القوات الجوية .. ورجال البحرية والطيران لا يعرفون من هذه البلاد التي يضربونها بالقنابل سوى هذه العلامات . يضغطون على الزر ويرعضفون اللبان ويضحكون ويصيحون الأهداف ويعودون .

الشيء الذي يلفت العين في ساجون من أول لحظة هو وجود عدد كبير جداً من الأطفال .. أين أمهاتهم . لماذا تركتهم ؟ لا إجابة عن هذا السؤال فهي حالة حرب . وقد يكون الأب قد مات . والأم أيضاً . وقد يكون الإبن لقيطاً . هذه الأسئلة لا قيمة لها . ومن الأفضل أن ينزعها الإنسان . وقد ابتلعت ميشيل مع هذه الأسئلة الكثير من المشاعد الموثلة .

ولم تضحك لمن قال لها : نصوري أيام الاستعمار الفرنسي لهذه البلاد

كانت النساء أصبح ، وأجسل : كانت هن جهود وأرداف . أما الآن فإن
الجهود الصناعية والأرداف الصناعية معروضة في الأسواق . لعل الفتاة
الفينلاندية تعجب الجندى الأمريكى ..

أما الفتيات فجميلات : في غاية الرشاقة ، وهن غاليات الثمن . إن
جلوس فتاة جميلة مع جندى أمريكى لشرب الشاي يكلفه الكثير : لا يهيم
الشاي ، إنه مثل الشميانبا ، فائق واحد .

وفي الشارع نجد من يقول لك : عندى أخنى درجة أولى ..

أو من يقول : أخنى في العشرين من عمرها ممتازة في كل شيء !

الكمبيوترات في كل مكان ، وفتيات فينلانج من كل مقاس ولون وسعر .
والبارات لا تغلق أبوابها ليلا أو نهارا والأضواء الحمراء تدعو كل أمريكى
لكي يحرق حظه .. سيجد الفتاة التي تعجبه ..

والناس في فينلانج يلعبون القمار : حتى آخر فرش مـ والعملة هناك
بالفرش أيضا : حتى رئيس الدولة يقضى ساعات من نهاره في مشاهدة
مصارعة الديوك .. وهو يحتفظ لنفسه بحظيرة للدواجن ويبنى بنفسه أيضا
صنفرة أصابع الديوك وجعلها حادة .. وكذلك مناقيرها حتى إذا اشتبكت
مع ديوك أخرى قتلها في الجولة الأولى ..

اللغة السائدة هي الإنجليزية طبعاً ولكن الوزراء لأن ثقافتهم فرنسية
يكتبون خطهم وأحاديثهم بالفرنسية : ثم تترجم لهم بعد ذلك .

وصبرت لها التعليمات بأن تستعد للذهاب إلى الجبهة . قالوا لها : لا تنسى
أنك الفتاة الوحيدة بين عشرات الألوف لم يروا امرأة من ستة شهور ..
ولا داعي لأن تستخدمى أدوات الزينة . فألعصاب لا تتحمل ذلك .. وعليها
أن ترتدى ملابس عسكرية خشنة وأن تضع ما هو ضروري فقط .. طرشة

أسنان .. مرآة والكاميرا وبعض الأوراق .. ثم ترتدى حذاء عسكريا ..
أما الخوذة فيمكن استخدامها لشرب الماء وأحيانا للاستحمام أيضا ..

وعليها ألا تفقد صبرها مهما طال انتظارها ، فلبست هي الكائن الوحيد
الذي يستحق العناية من الدرجة الأولى ، وأكدوا لها أن الاهتمام بها سوف
يكون من الدرجة الثالثة .. لأنها حالة حرب ..

ورأت أحد الجنود وقبل أن تفتح فيها قال لها : أريد أن أموت ..
لأن الموت انتقال من الجحيم إلى الجنة ..
وضحك هي ، ولم يضحك ..

وفي الليل تحدد موعد الخروج ، لا سيارات ، وإنما يجب أن تمشي
على قدميها ، في حقول الأرز ، صحراء خضراء ، أو محيط من الوحل ، لاشئ
إلا صوت الماء والضفادع والعصا صير .. ورصاص يغي من بعيد .. ومن
قريب ، وإلى جوارها سقط أحد الجنود .. وعندما حاولت أن تقترب منه
فقد يكون قد اصطدم بشئ فتشر ، سحبها الجاوبش فاثلا : لا شئ .. أنه قد
مات .

لا شئ إنه قد مات ؟ .. إنها نسبت أن الذي تخوض فيه هو ميدان
قتال ..

وفي ليلة أخرى طلبوا إليها أن تذهب إلى أحد المواقع وسوف ترى
شيئا جميلا : وفي الساعة الواحدة اصطفت الجنود ، وتقدمت فتبات يحملن
باقات الورد ، وامتد شريط أبيض ، وجاء صف من الضباط واقتربت القنيتات
ولففن الورد حول أعناق الشبان .. لقد عادوا منتصرين من غاراتهم
على العدو .. أما عادة الورد هذه فقد نقلها الأمريكيان من جزر هاواي
إلى هذه البلاد .. أما هؤلاء الشبان المنتصرون فهم لا يعرفون بالضبط ما الذي

فعلوه ، أن أمامهم خريطة ، ونحت أصحابهم زواجر .. وفي لحظات ينهي كل شيء ويعودون للورود .. عشرات المرات من كل يوم ١ ..

ولكن واحداً منهم لا يدري ما الذي فعلته القنابل ، ولا أن إنساناً مثله مات .. وقبل أن يموت شعر بشيء من الفزع .. ولعله سأل : ولماذا الموت ؟ ولكن الذي قتلوه لا يتساءلون : ولماذا القتل ؟

ودعيت إلى السفر في إحدى حاملات الطائرات ، كورال سي ، إنها مطار متحرك .. ملئ بالوحوش الحديدية الصارخة المخيفة .. وزنها ٦٣ ألف طن وطولها ٩٧٣ قدماً .. أي ثلاثة ملاعب كرة قدم .. بها ألفان من الموتورات الكهربائية وبها ٢٥٠٠ غرفة .. وتستطيع أن تبخر من ماء البحر مليون لتر في اليوم .. وأن تقدم ١٤ ألف فنجان قهوة في وقت واحد ، وعشرة آلاف وجبة .. وقوة محركاتها تعادل قوة ١٤٠ قاطرة كهربائية .. وتحت سقفها زواحف من الحديد الثقاث السام .. عدها ٧٥ طائرة :قاذفات قنابل ومقاتلات واستطلاع .. وكل عشرين دقيقة ينطلق عدد من الطائرات .. وبعد ربع ساعة تعود الطائرات وينتج طياروها إلى غرفة العمليات مباشرة لرؤية مسار الطائرة في صعودها وهبوطها وإصابها للأهداف على شاشة التلفزيون .. وبعد ذلك شقيق وزفير وصفير .. وزفرقة .. وجلجلة .. وصخب ورعد .. وبرق .. والناس يمضغون اللبان كأن شيئاً لم يحدث لا هنا ولا هناك .

وبعد ذلك كان لابد أن تنجبه ميشيل رى إلى الهدف الذي جاءت من أجله . لقد عرفت الأمريكان وانهرت بعددهم ونظامهم . وكيف غيروا معالم قيفنام ، وروعتها آلات الدمار الضخمة الضخمة ، إنها تريد أن تذهب إلى الجبهة على مشيوليتها هي وعلى حسابها ، وذهبت تبحث عن سيارة تستأجرها ، رفضت كل محلات السيارات ، لأن شركات التأمين ترفض التأمين على أية سيارة تدمرها الحرب : القنابل أو الألغام ، وأخيراً عثرت

على سيارة صغيرة ، وجعلت لهذه السيارة صفائح من الصلب لا ينفذ منها الرصاص وجعلت ذلك تحت مقعدها ، أما في مقدمة السيارة فقد وضعت خمسة جوانات من الرمل . وهي لا تخاف لأنها فرنسية ، وليست أمريكية ، وبقية الشمالية ترى أن فرنسا دولة صديقة ويكنى أن تقول لأى جندي من فيتنام الشمالية : إنها صديقة فرنسية ، وجواز سفرها يؤكد ذلك بوضوح تام . وحاول زملاؤها الصحفيون أن يقولوا لها : كان غيرك أشطر .. أفعدى .. أفعدى ..

ولكنها أصرت ، وأمامها طريق طوله ١٨٠ كيلو متراً ، وبعده تجد نفسها وجهاً لوجه أمام قوات فيتنام الشمالية ، وعليها بعد ذلك أن تحرس من الألغام فهناك نوعان من الألغام : ألغام تنفجر باللمس المباشر : كأن ندوسها السيارة أو تصطدم بها .. وهناك ألغام تنفجر لاسلكياً . وهذه الألغام لا تنطلق عادة إلا على الأهداف العسكرية وليس المعقول أن يظفروها على سيارة صغيرة بها سيدة ترتدي ملابس عسكرية بسيطة .. ثم إنها ضعيفة .

لقد اعتادت على القنابل . ولكن الشيء الذي لا تستطيع أن تعتاد عليه ليلاً أو نهاراً هو : هؤلاء الأطفال .. صغار .. إن أمهاتهم قد تركتهم ، فلا وقت للرعاية أو الحضانة . إن الأمهات يحملن السلاح ويتركن الأطفال .. وكلما تقدمت نحو خط ١٧ أى الخط الفاصل بين فيتنام الشمالية والجنوبية - زاد عدد الأطفال ..

وأصبح عدد القوات الأمريكية قليلاً ..

إن الأمريكان يظهرون نهاراً ويختفون ليلاً .. وعند إحدى نقاط الحدود قال لها الأمريكان : الآن .. أنت فرنسية .. وعليك حماية نفسك .. ومضت في الطريق ، وقابلت أحد الأمريكان ، راسرقتها ، وعرف منها أنها منجحة إلى الجانب الآخر .. وأشار الأمريكي إلى براميل مصنوعة

من الخبرزان وعرفت منه أن هذه البراميل قد أعدت للأسرى الأمريكان ،
إذا وقع الواحد أسيراً فقلوه في هذه البراميل من قرية إلى قرية . وفي كل قرية
يحاطونه ويدبونه ويحكمون عليه بالإعدام ثم يعفون عنه .. ويتقلونه إلى
قرية أخرى يعرف فيها بأنه مجرم وأنه سفاح وأنه مصاص دماء البشر .
وإنه عدو للحياة ويحكمون عليه بالإعدام . ويصدر العفو عنه ، ويدخلونه
هو والبرميل إلى قرية أخرى .. وهكذا .

وهزت كتفها قائلة : هذا يخص الجنود الأمريكان.. أما أنا فامرأة فرنسية
صحفية .

وقابلت فتيات في الطريق : كثيرات يعرفن الفرنسية . جلست إليهن :
قالت واحدة : آتني أن أكون مضيفة .

وها قالت لها ميشيل رى : ولكن في العاصمة فتيات يعملن مضيفات
لهن فتيات الليل ويكسبن أكثر !

وردت عليها إحدى الفتيات : بدلا من أن تستنكرى هؤلاء الفتيات
يجب أن تفهمي لماذا حدث ما حدث .. إن لي أختا من فتيات الليل وأنا
فخورة بها .. لأنها تنفق على أسرة من تسعة من الأطفال .. وأبى مات ..
وأبى أيضا .. فهل عندك حل آخر لإطعام الجميع ؟

وصمعت من فتاة أخرى أنه في المناطق الجبلية لابد أن تكون الفتاة عذراء
عند الزواج وإذا اكتشف العريس غير ذلك . فعلى الأسرة أن تدفع له
تعويضا من الجواميس ..

ونزلت في بيت . أحد البيوت على الطريق . وآداب الضيافة تقتضي
منها أن تترك باب غرفتها مفتوحا وإلا كان معنى ذلك أنها لا تأمن أهل البيت
على نفسها أو متاعها ، ولم تنم طبعاً ..

وما يزال الأطفال يملأون الطرقات ويطاردون السيارة الصغيرة ..

وانفجرت إحدى عجلات السيارة وتطوع اثنان من الطلبة لمساعدتها ..
وهما يعرفان القليل من الفرنسية ، وأول شيء قالته لهما : ياو .. شيء .. فآب ..
أى صحيفة فرنسية - وابتهج الشابان ، وهز كل منهما رأسه ودار بينهما
حديث طويل ، وأكد لهما أنه لا خوف بعد ذلك ما دامت صحيفة فرنسية ..
وركب الاثنان إلى جوارها ..

وبعد لحظات قفز من حقول الأرز جندي من قوات فينهام الشمالية
وصرخ : بسرعة .. انزلوا .. بسرعة ..

وحاول الشابان فتح الباب فلم يفلحا . فساعدتهما . وأخرجت جواز
السفر الفرنسي ، وقدمها أحد الشابين إلى الجندي وهو يرتجف .

ولكن الجندي مد سلاحه حتى التصق السونكي بملابسها ولحمها -
أفصد عظمها - ونزلوا جميعا : وأخرج الجندي حبلًا من جيده ولف
ذراعها وراعها : أما الجندي فشككه رهيب يرتدى بيجاما سوداء وينطلقون
مقفوفا حول ساقيه ، وعلى وسطه حزام مليء بالفتائل البدوية . ولا بد أن
هذين الشابين قد أصيبا برعب لأنهما يركبان السيارة مع إنسان أوروبي .
وهذا واضح من الخوف الشديد على ملاحظتهما ..

وتكاثر الجنود .. من هنا وهناك ودار الكلام بينهم ، ولا بد أنهم حاثرون
ما الذي يصنعونه بغتة فرنسية إنها مشكلة . لو كانت أمريكية لكان أمرها .
ولكنها فرنسية وصحفية : وأخيرا فكوا الحبل : وربطوا ذراعها اليمنى بذراع
واحد من الشبان وطلبوا إليها أن تفود سيارتها على مهل .. وساروا وراعها ..
ولم نستطع أن نرى عيني أي جندي . ولا واحد من الجنود حاول أن
ينظر إلى عينيها أو إلى ابتسامتها وقد حاولت بصورة عصبية أن تؤكد لهم
أنها هادئة وأنها لم تخف ، ولا تتوقع منهم أي أذى . ولكن أحدا لم يلتفت
إليها ..

ولكن أحد الطالبين تشجع وقال لها : اهدئي .. اهدئي .. اصبري !
وأشاروا إليها أن تتجه إلى طريق جانبي ضيق .. فتركزت الطريق الواسع
المرصوف . وبدأت سيارتها تخوض في حقول الأرز . وفي الحقول قنوات
صغيرة ، عليها ألواح خشبية : إنها الآن لا شك أسيرة . ومنذ هذه اللحظة
لا تعرف لها مستقبلا ، كل شيء راح فجأة ، إنها الآن في الجانب الآخر :
في المعسكر الآخر ..

ومن السيارة رأت فتاة صغيرة تمص عودا من القصب . قدمت يدها
إليها تداعبها وظنت الفتاة أنها تريد عقلة من عود القصب فأعطتها واحدة ..
وضحك الجنود .. أخيرا شعرت هي بشيء من الأمان وضحكت . لقد
انقرجت الأزمة الحادة بين الجميع ..

وأشاروا إليها أن تزلز فالدنيا ليل ، ووقفت السيارة أمام أحد الأكواخ ..
الكوخ به سريران وكلاهما مصنوع من الخشب ، والخدات خشب أيضا ،
وطلبوا إليها أن تنقل أمتعتها إلى أحد السريرين وجلست على السرير ، والعيون
كلها تتجه إلى خدائها العسكري المثين .. وعلى السرير الآخر نامت ثلاث
سيدات .. وبين السريرين عدد كبير من الأطفال ، والحركة لا تتوقف ..
سألها أحد الجنود : كوكا .. بيرة ..

ونظرت بما يدل على إن كان هذا صحيحا : فأكدوا لها أن الذي
استولوا عليه من الأطعمة الأمريكية كثير جدا .

وطبعا ففشوا حقائبها كبيرا ، ولكنها تخاف من الأوراق الأخرى التي
تدل على أنها مراسلة أمريكية : وابتلعت هذه الورقة . وأوراقا أخرى .
ولو ضبطوها لتغيرت المعاملة فورا ، وكان مصيرها أقسى وأسوأ ..

ثم جاء الطالبان وتمنيا لها حظا سعيدا وودعاها قائلين : هذه هي الحرب
وهذا هو حال الدنيا .. وكان عليها أن تواصل السير .. إلى أين ؟ إنها لا تعرف

وأخيراً ظهر مدرس الشيوعية وكان يتكلم الفرنسية، وكان يرتدى الملابس السوداء ، وبضع على كتفه جوالاً صغيراً وصافحها بشدة وحرارة ، وقال لها : أناى حاجة إلى أن أتناقش معك فى مكان آخر ..

ثم جاءت سيدة وجلست إلى حوارها واقتربت منها أكثر ، وهزتها بقوة ، وشدته على يديها وبجراحة هناها أو هكذا يبدو أنها تفعل ذلك ، وتأثرت ميشيل رى من هذه الحفاوة وهذه الرقة ..

ورأت شأها فى غاية الرشاقة والقوة والجمال ، إنه جندى ، لم تستطع أن ترفع عينها عنه ، وراح يلعب الأطفال ، لأنهم بشر حقيقيون يصحكون ويلعبون وقبل أن يذهبوا إلى القتال .. أو وهم فى ميدان القتال .

أما طعام الإفطار فقل الغذاء والعشاء : مثل وأرز ، وليس أمامهما أن تختار .

وطلب إليها أستاذ الشيوعية أن تنزل إلى أحد الخنادق قبل أن تقع أية غارة جوية ، واخبطاً عبارة عن فتحة فى الأرض ، لها سلم ، والإنسان ينزل واقفاً راقعاً نراعيه إلى أعلى .. وبعد ذلك يمضى حافى الظهر ، ثم يجلس .. أما هوية هذا الخبط فمن طريق عصى من الخيزران مفتوحة يسلخ منها الهواء .. وبعد لحظات اقتربت الطائرات واندفعت المصواريخ والقنابل .. نار .. جهنم لا يمكن أن توصف .. وبسرعة تسلك الناس جميعاً إلى مخاىء تحت الأرض . ساعة .. ساعتين .. خمس ساعات .. عشر ساعات ..

وكان مدرس الشيوعية يلمسها برقبته وهى تكاد تختنق .. وبعد ذلك خرجت من الخبط واقفة .. إلى الهواء العلقى .. ولاحظت أن ملايحه قد اختفت ، إنه الآن يرتدى الملابس البيضاء .. الآن فقط عرفت لماذا كان يتنفس بصوت مسموع .. إنه كان يغير ملايحه العسكرية ويرتدى ملابس الفلاحين ، حتى لا يقع فى الأسر .

وعندما خرجت من اغنيا وجدت النساء والأطفال على سطح الأرض .
كان شيئا لم يقع .. لا موتى ولا جرحى .. وإنما تحولت حقول الأرز إلى
مغارات بسبب الصواريخ والفخايل .. وقدموا لها طعاما آخر من الأرز
والسمك ..

وجاء شاب وراح يروى لمدرس الشيوعية كيف أنه نجى من ٢٠٠ غارة
قبل ذلك . فقالت ميشيل رى لمدرس الشيوعية : كيف تصدق مثل هذا
القشر ؟ فكان رده : يجب أن تكون عند الناس أحلام .. لعله نجى من عشرين
غارة من خمسين غارة . لماذا لا يكون عنده أمل في أن ينجو من مائة أو من
مائتين ؟

لم طلب منها مدرس الشيوعية أن تغنى .. وراحت تغنى بأعلى صوتها
على الأقل لأنها على سطح الأرض . لم تمت . ونشم هواء صحيا ..

وقال لها مدرس الشيوعية سوف نصعدن إلى الجبل هذه الليلة . الجبل
أكثر أمانا . ويجب أن يتأكدوا من شخصيتك . وإذا ذهبت إلى العاصمة
فسوف تجدن أختي هناك أنها مدرسة للغة الروسية . ولما سألتها ولماذا
تذهب إلى العاصمة ..

فأجاب : إن الناس جميعا يعلمون أنك قررت السفر إلى العاصمة مشيا
على الأقدام .

أي ١٨٠ كيلو مترا مشيا على الأقدام ولذلك كان الجميع يهتفونها على
شجاعتها . الرجال والنساء . مع أنها لم تقرر شيئا من ذلك . ولكن لا بد أن
الشابين قد ترجعا عباراتها خطأ ١

وقرر أحد الضباط أن تغير ملابسها وأن ترتدى ملابس نساء فيضام .
وجاء للترزى وفصل لها الملابس . وتغيرت ملابسها . ووضعت القبعة

القيصرية التي تشبه القمع . ولكنها احتفظت بالحذاء الأمريكي .. وحاولت
أن تدفع ثمن هذه الملابس ولكنهم قالوا : إنها هدية لك !

وكان عليها أن تصعد الجبل . الجميع يفعلون ذلك . وقيل أن يتركها
مدرس الشبيبة أعطاه بعض القينات : ب ١٢ واتروين للعينين
ومورفين للتخدير وكانت تحفظ في جيبها وأربع حبوب ضد الملاريا ..
واحدة كل أسبوع ..

سألت : متى يطلقون سراحي

قيل لها : لا أعرف

سألت : أنا لا أفهم لماذا أنا أسيرة ؟

قيل لها : يا سيدتي سوف تسأل بعض الراهبات الفرنسيات عنك .
وسوف تقول لمن إنك في الحفظ والصون .. لا تنظري إلى ملابسنا وحالنا
يا سيدتي .. نحن فقراء ولكن عندنا كبرياء ..

ومدت يدها إلى جيبها وأخرجت رواية أسماها « الجزيرة » من تأليف
روبير ميرل . تقول الرواية في إحدى صفحاتها : لا تفكر في غدك . ارض
بيومك . تخلص من مخاوفك . فالخوف هو هذا المرض الذي أصيب به
الرجل الأبيض . وهذا الخوف هو ذلك الذي جعل الرجل الأبيض يصاب
بمرض أكثر خطورة اسمه : المستقبل .. نحن أحياء .. وهذا يكفي وحده !

وقبلت الصفحة .. وضمت الكتاب إلى صدرها وهي تقول : لا داعي
لتفكير في الغد .. فاليوم كالغد . فأنا أعيش في حاضر بلا مستقبل ! وليكن
ما يكون !

مضت أيام .. عشرون يوما .. تحشى في حقول الأرض وتختفي من الغارات

الأمريكية وتنفس من خيزرانة مثقوبة وتخرج من العين لتجد الوجوه
المشرقة للجميع : انهم انتصروا على الأمريكان لم يمت أحد .

وأخيرا جاءها أحد الضباط وقال لها : عندي لك خبر هام . سوف
نطلق سراحك !

لم تعرف هل تبكى . هل تشكره ؟ تشكره على ماذا ؟ على الأمر ؟
على الخوف ؟ على العين ؟ على الخاف ؟ .. إنها الحرب . وطلب إليها أن
تكتب وثيقة تقول فيها : إن الأمريكان يقتلون النساء والأطفال .

ورفضت . ولكنهم لم يعارضوا .

ثم أعدوا لها طعاما من الأرز والدجاج والموز . وأما محتويات حقائبها
جسعا فقد أصيدت لها . وتأكدوا من أن شيئا لم يضيع . واعترفت بذلك ..
وبكت .

واحتذروا أنهم لم يستطيعوا أن يعيشوا بها إلى إحدى المدن في طائرة ..
ولذلك ليس أمامهم إلا أن يضعوها على إحدى العربات .. وهى منذ هذه
اللحظة لا خوف عليها ..

وعند إحدى النقاط تركوها .. وكان عليها أن تمشى على قدميها . وفجأة
اعترضها أحد الأمريكان .. وبكت .. وعرفت أنها انتقلت إلى الضفة
الأخرى من النهر ..

وفي إحدى المسكرات التقى حولها جنود المخابرات الأمريكان يسألونها
عن كل شيء . والذي أدهشهم أن جنود فيتنام الشمالية لم يسألوها عن أى شيء
ولا طلبوا إليها أن تذكر اسم ضابط واحد أو موقع واحد .. أو عدد الطائرات
لا شيء .. ولم يصدق ضابط المخابرات الأمريكان ما قالت ميشيل رى .

وبعد أن عرضوا عليها عددا من الخرائط وأسماء المدن والفقرى والمواقع

والحنادق. والنجاني . أكثرت لهم أمها في طين دائم ونحت الأرض بسبب الغارات
الأمريكية ..

ونقدم منها أحد كبار الضباط ليسألها :

— أأخبر سيوال يا آنسة ..

— نعمصل .

... هل اعتدى عليك واحد من هؤلاء الوحوش ؟

— وفبحكت وهي تقول : كانوا في غاية الرقة .. ولم أر أحدا في حياتي

في مثل وحشيتك هذه !

ثم خلعت قميصها وقمصها وحذاءها وراحت تنشي بين صباط المخابرات
لقد تذكرت أنها عارضة أزياء !

الذين ينطحون السحاب
وهيوانات أخرى ... !

مهما عرفت عن أمريكا فعلمياتك قليلة عنها . لأن هناك أكثر من أمريكا .. أمريكا التي يعرفها الأمريكان . وأمريكا التي يعرفها العالم عن أمريكا .. وأمريكا البيض . وأمريكا السود .. وفلولايات المتحدة ضد بعضها البعض .. ثم إنك في أمريكا لا تجد إنسانا « أمريكيا » كل واحد من أصل إنجليزي أو ألماني أو إيطالي أو سويدي أو إيرلندي .. والزواج من أصل أفريقي . والهنود الحمر من أصل هندي أو مغولي . لا أخذ في الولايات المتحدة الأمريكية يجرؤ على القول بأنه أمريكي — فيها عدا الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية أخيرا جدا منذ أيام مثلا .

وملاحظات كثيرة مثل هذه جعلت أحد الناشرين الأمريكيين يطلب إلى الكاتب الطريف جورج مكش — أنطفاها جورج مكش بناء على رغبته وللدلالة على طبيعته أن يكتب هذه الملاحظات ووعدته . ولكن الناشر الأمريكي أصر على أن يستعير المؤلف بعض أساليب الأمريكان الغربية في كل شيء . فطلب إليه أن يدخل الغرفة المكيفة الهواء المجاورة ويمسك القلم ولا يدق الجرس إلا بعد أن يكون قد فرغ من الكتابة في جلسة واحدة أو يوم واحد ، أما القلوس فقبل ذلك بساعات ، وسأله إن كان يريد شيئا قبل أن يكتب وكان رد الكاتب الإنجليزي جورج مكش . المجري الأصل : أن أموت بين أهل وأسرتي ، وأن يعلقوا على قبري هذه العبارة ، لا أحب أن أعيش على الطريقة الأمريكية وأفضل أن أموت على الطريقة اليابانية فأضع القلم في فمّي وأصرخ مرة واحدة وينتهي كل شيء ..

وجلس جورج مكش رغم ذلك يؤلف كتابه الساخر بعنوان « كيف
تنطح السحاب - الولايات المتحدة بعد ارنيادها وإعادة اكتشافها وتفسيرها »
وهي محاولة لتنطح الذين ينطحون السحاب ، والكواكب الأخرى ..
أما من هو الأمريكي أو « الجديع » الأمريكي فهو أى إنسان يرندى
بدلة مكوية تماما ، قلابنطلون له حد مثل حد الموسى وكفلك الجاكيت ،
وله كرافته وقبص نظيف وسيجار ضخم يتناسب تناسباً طردياً مع المكانة
الاجتماعية لك ولايد من وجود قبعة ، بشرط ألا يخلعها الإنسان عندما يدخل
أى مكان عام - فقط فى الأسانسيرات ، وكذلك التدخين ممنوع فى المصاعد
الكهربية ، وكن فى استطاعتك أن تخرق عين أى إنسان آخر دون أن تعتذر .
ولذا اعتفرت اعتبروك من الأمريكان المحدد ..

ولذا ارتدبت ملاسك ، فعلبك أن تكملها فى الطريق ، عليك أن تجرى
إلى سيارتك ، وبسيارتك تراحم الناس .. وانفعل جداً عند إشارات
المرور ، ويجب أن يكون دخان السيجار دليلاً على حالتك العصبية ، ولا تسأل
نفسك إلى أين أنت ذاهب ، فكل الذين حولك يتدفعون دون أن يكون
هناك سبب واضح ، اندفع ، انطلق دون سبب واضح ، فكل شئ
هنا يتم بسرعة ، الغذاء يقدمونه لك فى دقيقة والعشاء فى نصف دقيقة ..
ولايد أن إنتاج الأطفال فى أقل من ذلك - أقرأ فى المجلات النسائية باب
شكوى اللاقى تزوجن حديثاً !

وبعد أيام فى أمريكا يعتاد الإنسان على أشياء كثيرة غريبة فكل الشوارع
واسعة ومستقيمة على عكس إنجلترا : كل الشوارع منحنية مكسورة
وقصيرة .. وهناك عمارات أكثر من مائة دور ، وكل ما يقدم لك من طعام
ضخم فاللدجاجة يقدمونها لك ولا تصدق أنها دجاجة ، لايد أنها أوزة أو
ققص دجاج ..

وفى استطاعتك أن تندمش : ولكن من الأفضل أن تضحك فكل الناس

يفضحكون بسبب ومن غير سبب . ان التعليقات الصحيحة تقول : أن الضحك صفة ، ولذلك فهم حريصون على أن يكونوا في صحة جيدة ، وإلا كان ذلك إهانة لأمريكا ، كيف يكون الإنسان أمريكياً ومريضاً ، ان المرض من أهم صفات الشعوب الأخرى .

ذهب فنان أوروبي إلى أحد رؤساء مجالس الشركات ورسم له لوحة ، وسأله رئيس مجلس الإدارة : كم تريد فيها ؟ فقال الفنان بكل حسن نية وتواضع : ٢٠٠ دولار .

وهز رئيس مجلس الإدارة رأسه : ولكن إذا أردت منها ٥٠٠ نسخة فكم تأخذ ؟

ولم يفهم الفنان معنى هذا الطلب .. لأنه لا يستطيع أن يرسم ٥٠٠ مرة .. ولكن رئيس مجلس الإدارة قال له : أريد أن أعلق لوحة في كل فروع الشركة لن أعطيك أكثر من ٢٠٠ دولار على كل نسخة !

ولابد أن الفنان الأوروبي قد ذهّل من هذا الرقم الذي لا يعلم به .. ولما رأى الرجل الأمريكي دهشته قال له : إذا كنت فناناً قابلاً فوراً في عمل ٥٠٠ صورة أخرى !

وكل شيء في أمريكا تقوم به الآلات الحديثة .. أو هم يحاولون ذلك .. فأنت تضغط على زرار وتجد نفسك في حالة حب ، وزرار آخر تجد نفسك قد تزوجت ، وثالث وتكون قد أعطيت حبيبك من الزواج . وتضغط زرار وتجد نفسك قد أخذت دشا أما الكتب القديمة كلها فيمكن استحضارها بزرار .. وهكذا ..

وأنعم الناس في أمريكا هو سائق الأتوبيس لأنه يقوم بعدة أعمال : يقطع التذاكر ويعطيك الباقي ، ويففل ويفتح الأبواب ويراعي عدد الركاب وفي نفس الوقت ساعات عمله ثم أنه و الذي يسوق الأتوبيس ، ولابد أن

أمريكا في حاجة إلى من ينطلق على اختراع قديم انتهى إليه العالم كله ،
ولا عيب عليها إذا اقتبسته وهو أن يكون هناك شخص آخر إلى جانب ..
الساتن .. شخص اسمه الكساري ..

وفي أمريكا يرفعون الكلفة بينك وبينهم بسرعة ، ولا يهم من أنت ،
فإذا كنت مثل البرث (إينشتين) العالم الألماني صاحب نظرية النسبية فإن
المذيع سوف يقدمك للجمهور هذا : معنا الليلة الجذع الشهير جدا البرث
إينشتين : هالو البرث .. إنها فرصة سعيدة جدا أن نراك .. أريد أن أوجه
لك بعض الأسئلة .. أولا قل لي يا ألي ما هذه النسبية ؟ لا تزعج يا برقي ..
لا تحجل ..

ولا أحد يتدهش لما يقوله المذيع فلأنهم يفعلون ذلك مع أي إنسان آخر
أصغر أو أكبر من هذا العالم الكبير .. وإذا علم أحد سكان العمارة أن
زوجتك مريضة ، ورأى من واجبه أن يسألك عنها ، وقابلك في أي مكان :
قلته يقول لك : هالو .. مستر .. كيف حال السيدة ؟ ..

فإذا ظهر عليك الحرج بسبب هذه الحرية الغربية - الوقاحة أيضا
خصوصا أن علاقتك به لا تعطيه هذا الحق - فإنه يظن أنك حزين جدا على
ما أصاب زوجتك ولذلك يبادر بقوله : ولا يهمك .. كل شيء يمتشي في
طريقه الطبيعي .. في العام الماضي ماتت زوجتي .. وأنا الآن أعيش حياتي
العادية .. كن طبيعيا ..

والأمريكان لا يحبون الخمس .. أنهم يتكلمون بصوت مرتفع ، ولذلك
إذا سألت إنسان عن شيء فإنه يقول لك : أضرب .. شوت .. كأنه يطلب
أن تطلق عيارا ناريا .. أو تشوط كرة في مرمى مفتوح .. ولا يحبون مثل
هذه العبارة : أظن ذلك .. لعل ذلك .. ربما .. لا أدري يمكن .. إن هذه
المبارات تضايقهم ويفضلون عليها عبارات أخرى أكثر وضوحا وصراحة
عبارات قاطعة مثل : زبالة .. قرف .. كلام فارغ ..

والأمريكان لم علاقة غريبة بالأشياء التي يستخدمونها ، أو بالعالم المادى فالرجل الإنجليزي يقول لك بمنشى العصر : سيارتى هذه عمرها عشر سنوات ، وقد قطعت مائة ألف كيلو متر ، ولكن الأمريكى يغير السيارة كل سنة ، وأحيانا مرتين فى السنة وينسى ماركة السيارة القديمة : وإذا أمطرت السماء فإنه يدخل أى محل ويشترى لنفسه بالطور واقيا من المطر بدولار .. فإذا توقفت الأمطار ألقى بالبالطو فى أى صندوق زبالة وكذلك الشعبية إذا اشترىها : وإذا باع بيته فإنه لا يفكر فى أن يأخذ معه بعض أثاث البيت ، انه يتركه كله ، وفى الصحف تجد إعلانات تقول : من أراد أن يحصل على بيانو ماركة كذا ، فليذهب إلى بيت رقم كذا شارع كذا .. انهم لا يشغلون أنفسهم كثيرا بهذه الأشياء القديمة .. والذي يفعلونه فى أثاث البيوت ، يفعلونه أيضا فى المدن .. فهم يتنول مدينة بالقرب من أحد مناجم الذهب .. فإذا انتهى العمل من المنجم هجروا المدينة كلها .. فليست عندهم هذه التقاليد الأوروبية أو الآسيوية أو الأفريقية القديمة التى تربط الإنسان بالماضى أو بالحنين إليه فيقول : هذه الساعة تركها لنا جدى العظيم .. أو هذه الحزمة هى آخر خلفات المرحوم والذى .. وهذه السكين هى التى اشترتها جنتى لأول مرة .. إلى آخر هذه السخافات التى لا يقرها الأمريكان قالغاليد عندهم هو ترك القديم والبحث عن شئ جديد أو الحرب من أشباح الماضى أيا كان هذا الماضى .

وفى أمريكا كل إنسان يريد أن يضحك أو على الأصح أن يمزح ، وهم يحبون ذلك بسهولة : فقد يقول الشاب مثلا : أمس جلست أنا وصديقى نضحك معا ساعات .. دون أن يكون هناك أى سبب لذلك ..

وإذا كان لدى السائح الأوروبى رغبة فى العذاب أو التسليية فعليه أن يركب القطارات تحت الأرض .. لا ينفع معها أى علم أو أية تجربة .. وإذا شئت أن تفضى حياتها كلها تبحث عن شارع أو محطة فإن هذا يمكن أن

يتحقق لك بسهولة وسوف تجد نفسك في أى مكان إلا المكان الذى تريده .
وقد فصل إلى بيتك عن طريق الخطأ ومن الغريب أنهم يعرفون التفرقة بين
الأرقام والحروف التى لا نهاية لها فى كل محطات المرور .

والمجتمع الأمريكى خليط من كل الأعناس ، وهم يكون لبعضهم البعض
أنواعا من التعالى . فالخطلون يتعالون على الزنوج ، والزنوج يتعالون على المختلطين
السمر والذين من أصل مويدي يتعالون على الألمان ، والألمان يتعالون على أبناء
أوروبا الوسطى . وأبناء أوروبا الوسطى يحتقرون الإيطاليين ، والإيطاليون
يحتقرون الألمان والأرمن والإيرانيين . والألمان والإيطاليون معا يحتقرون
أبناء أوروبا الوسطى .. والجميع يحتقرون اليهود ، واليهود يتعالون على
كل الناس ، والأمريكان يكرهون أهل نيويورك ، وأهل نيويورك يكرهون
أهل الغرب ، وأهل الشمال يكرهون أهل الجنوب . والمهاجرون يحتقرون
اللاجئين إلى أمريكا من كل مكان فى العالم .. والملاجنون يحتقرون الذين
وصلوا أخيرا .. والذى وطئت قدمه أمريكا يحتقر الذى يجرى بعده بدقة
واحدة .. وهكذا تجد العلاقات التى تربط بين كل سكان أمريكا : أنهم
جميعا ينظرون إلى بعضهم البعض من فوق .. وإلى العالم كله كذلك ! .

ونختار أنت أين هو الإنسان وأين هو الحيوان .. ثم من هو الأمريكى ؟

أما المحلات التجارية فى أمريكا فهى من عجائب الدنيا ، فإنك تجد فى
كل محل ما تريد ، ويجب ألا تندهش ، فإذا أردت سجاير فاذهب إلى البقال ،
وإذا أردت أن تسمع حذاءك فاذهب إلى الحلاق ، وإذا أردت شراء راديو
فاذهب إلى المكتبة وإذا أردت حقيبة فاشرها من الأجزاخانة ، وإذا أردت
أن تبعث برقية لأحد فلا تذهب إلى مكتب البريد لأن مكاتب التلغراف
قطاع خاص .

ومن الأشياء المضحكة حقاً صفحة الوفيات فى الصحف الأمريكية ..
إعلانات غريبة لشركات دفن الموتى ..

فهناك مثلا : جنازة تجعلك مسترخيا مدى الحياة .. جنازة لن تضيق بها جنازة مريحة .. جنازة تعد أسرتك شهورا بعد ذلك .. جنازة لا تدسى لن تشكل أكثر من ١٥٠ دولار .. قبر تحت أشجار جوز الهند .. تعال عندنا ونحن ندفنك أفضل !

ومن العجيب أن الأمريكيان يذهبون إلى هذه الشركات ويختارون قطعة الأرض ونوع الأشجار ، ويبحث الحائزون ويقيس أجسامهم ، ويعرض عليهم أنواع القماش ، وكذلك الأغاني والرائيل التي تذاع أثناء الجنازة أو أثناء الدفن .. ويخرج الناس من شركات الدفن وهم سعداء مستظرون ذلك اليوم العظيم ..

ولا شك أن الحائز هو الرجل الوحيد في العالم الذي له مستقبل .. والذي ينظر إلى كل إنسان على أنه زبون حتمًا ، اليوم أو غدا .

ولابد أن الذي يزعم في أمريكا هو محطات الإذاعة والتليفزيون ، فلا أحد يعرف ما هذا الذي يقال ، ولا كيف وإلى من يقال ، إن هذه المحطات كلها تحطم الأعصاب وتحول المستمع إلى قطع من العجينة تأخذ الأشكال التي تريدها الشركات التي تعلن عن السلع . الحجة مثلا ، وعلى أساس هذه الإعلانات يمكن معرفة الثقافة الأمريكية كلها ، فالهدف التقافي من وراء هذه الإعلانات هو أن يشعر المواطن مزيدا من الحب أكثر مما يحتاج وحرية الكلام معناها حرية كل شركة في أن تعلن عن السلعة التي تريد ، وأن تنزل بمستواها إلى مستوى الجماهير ، فهذا هو النزول إلى مستوى الجماهير ، أما الأخبار فجائنا ولكن الإعلانات مقدسة .. مقدسة .. ملايين مقدسة ..

وإذا سافرت بين الولايات المختلفة في أمريكا فإنك ستجد خلافات صارخة في تطبيق القوانين .. أو في القوانين الولايات نفسها .

فى ولاية متسونا ممنوع نشر الملابس الداخلية لرجال والنساء على جبل واحد .

وفى أنديانا ممنوع أن يهدد الحلاق الأطفال الصغار بقطع آذانهم .. وفى ميسورى ممنوع على رجال المطافئ أن يمشوا فى الشارع بملابسهم الداخلية .
مهما كانت الأسباب ، وممنوع أن يركب الإنسان القرام ورائحته ثوم ..
وفى نفس الوقت من الممكن أن نجد الإعلانات تمتدح إحدى جزر المحيط الهادى لأنهم يأكلون الثوم .. ومن الغريب أنهم يأكلونه على شكل عصير ..
وهذا ما تفعله إحدى الشركات الأمريكية . وهذا الثوم هو العامل الأول فى جمال البشرة وقوة الإنسان .. وفى النجاح فى العمل . لأن الإنسان إذا أكل الثوم قلن يقرب منه أحد . وهى فرصة عظيمة لكى يعمل أو يفكر أو يتنحى ..

أما حكاهم أمريكا فهم أعجب الكائنات على الأرض .. على الأرض الأمريكية أو غيرها ..

يقول جورج مكش فى مقال إذاعى :

حضرت أكثر من مؤتمر سياسى .. أو حزبى .. وظهر المرشح .. ولم يقل أى شئ .. ولكن قدموه على أنه أحسن لاعب تنس .. أو كاد يفرق مرتين فى اليابان .. وفى المرة الثالثة تعلق بلوح خشبى .. وكان انقوح مغطى بالزيت .. ولكنه كان حريصا على ألا تنسخ ملابسه .. كأنه كان يفكر فى زوجته المريضة وفى نفس الوقت فى خادمتها الزنجية .. وكأنه كان يعلم بالاضط أن يوم الفرق قد صادف يوم أجازتها الأسبوعية .. انه إلى هذه الدرجة حاضرا الديدة .. انه يفكر فى كل شئ .. فكيف لا يكون مرشحهم لرياسة الجمهورية ..

ومن مؤامرات المرشح لاشئ :

زوجته وأولاده وسيجاره وسيارته وكلابه وعيوله والكنيسة التي يتردد عليها .. وجيرانه أيضا إذا كان جيرانه سعداء : فهو قادر على إسعاد الملايين غيرهم من جيرانه الذين يعدون عنه ألوفا وعشرات الألوف من الأميال لأنها مقبرة غريبة عند المرشحين الأمريكان في فترة الحملات الانتخابية .

وعلى الرغم من أن الأمريكان ينادون للرحمة والسلام في كل مكان ، فإنهم لا يفعلون ذلك مع الزوج : ولا رحمة ولا إحساس بأهم مواظون من أى درجة ، ولكن بين الحين والحين تظهر خادمة زنجية في صور المرشح أو يظهر المرشح وهو يهدى لابنته صورة للمثل الزنجي سيلفى بوسيه .. مثلا .

ولكن الزوجة مهمة جدا .. خصوصا ملابسها وإناقته وإيسامتها العريضة ووقوفها إلى جواره أمام الناس طول الوقت .. ولا يهم بعد ذلك رأيها في الزوج أو في البيت أو في كل هؤلاء الناس ، وقد يعرف الناس الكثير عن النعاسة الزوجية للمرشح ، ولكن يرون أن هذا شيء طبيعي : أن يكون سعيدا في الصور ، تعبسا في الحقيقة فهو إنسان طبيعي واقعي ، ومن أجل ذلك فهو خبير من يمثلهم .

• • •

وبعد ساعات فرغ الكاتب الإنجليزي المجري الأصل جورج مكش من كتابه عن « كيف تنتطح السحاب » وأعطى الكتاب الناشر الأمريكي وعينه على الشيك ذي الأربعة الأرقام .. وهو يقدم له خطابا يقول فيه : لى رغبة أخيرة قبل أن أموت .. أن ينشر هذا الكتاب بعد وفاته ..

وكانت نبوءة فقد صدر الكتاب في نفس الأسبوع .. بعد وفاة الناشر الأمريكي ..

إذا لم يخف البرغوث ماك ..
فأنا مسموم !

إن الإنسان فقد القدرة على أن يرى أبعد ، وبسمع أرق ، وبشم أحق ،
ولذلك فسوف يموت دون أن يدري ذلك - عبارة قالها الطبيب الإنسان
أشقيس القاتل بجائزة نوبل ..

إن الإنسان يدق الآن باب جهنم بعنف وبعد لحظات يصحو الموت
ليحصل الجميع - قالها العالم الكبير أينشتاين عندما اخترعت القنبلة الذرية .
إن إنسانا ما قد جاء إلى هذا البيت ولم يحتل على مكتبي فأطلق رصاصة
على كلبي : انه إنسان في غاية القسوة لقد أراد أن يوجعني مرتين .. مرة
على فقد هذا الحيوان المسكين الأمين ، ومرة على ما وصل إليه حال الإنسان ..
انه يقتل مجرد القتل - قالها الكاتبة الأمريكية راشيل كارسون التي فازت
بعشر جوائز دولية عن كتابها « الربيع الصامت » الذي وصفت فيه أعجب
رحلة للموت .. أو لسم الأبيض الشفاف الذي ينتقل من أى شيء .. من الماء
والهواء والفراسخ إلى خلايا الإنسان والحيوان والنبات ومن الإنسان إلى
الماء والهواء والتراب إلى النبات والحيوان ثم إلى الإنسان .. إن الجميع
يحملون السموم للجميع .. انها أقصى معركة صممت عرفها الإنسان والحيوان
والنبات في التاريخ .. فتحن نموت أما الفاعل الحقيق فهو الإنسان ..
ولتبدأ الرحلة ، رحلة السم ، والحزن معا .. أو رحلة السموم الحزينة :
أو الأحزان السامة .

كان ياما كان قرية صغيرة جميلة .. الشوارع واسعة والأشجار خضراء
وارقة ، الأزهار كثيرة بأسمعة .. وكانت الفراشات حائرات .. كالأوراق

تأثرت من الشجرة ، أو كأوراق التصفت بالشجر . وكانت العصافير تلاحق شعاعات الشمس .. وعليها وفي ضوئها تلتقط الحبوب والديدان .. وكانت القنوات في لون الذهب .. وكانت الأسماك تسبح تحت الماء في رشاقة تأكل الأعشاب .. أو لا تأكل شيئاً : إنها فرحة الحياة .. أو هي الحياة .. وفي الوديان الخضراء قطعان الأغنام .. ان مجرد النظر إلى وجوهها وصوفها يوكد أنها في صحة جيدة .. أما ذلك الطفل الذي جلس على قطعة من الحجر يأكل السندوتش : فهو صورة لكل ما أنعم الله على الإنسان : العقل والصحة والحرص عليهما . أما هذه الأجراس التي نسمعها من بعيد فهي لأبقار استأثرت باللحم واللبن .. وفجأة ..

وفجأة : ولسب غير واضح تماماً ، تغير لون السماء .. على أثر ضوءها من طائفة عابرة .. وشئ أبيض كأن مليون إنسان يدخنون سيجارة واحدة ويثوثونها في وقت واحد .. أنها بحايه بيضاء .. مرت .. عبرت .. استغرقت المكان وأغرفته .. ففساقت الطيور .. ودبت الأزهار .. وتراخت الأغنام .. ورفعت الأبقار رؤوسها عن الأعشاب .. أما الأسماك فلم تقاوم فقط الماء .. وإنما طفت على وجهه .. ان الأسماك قد أغرقها الماء .. حتى الطفل الصغير أحمرت عيناه ودمعنا .. وراح يعطس ويسعل وبعد ساعات مائت الأغنام والأبقار أيضا .. أما الزهور فدبت وسقطت .. ولسب غير واضح لم تقنلع الأشجار جذورها ونترك وراءها فتحة في الأرض كقبرة .. كقم فاغر على استعداد لدفن كل شئ وظهر عدد كبير من الأطباء في القرية وسيارات الإسعاف !

ان هذه القرية الجميلة لا وجود لها .. ولكن هذا الذي حدث ، يحدث كل يوم .. وسوف يحدث غدا وبعد غد ..

ماذا جرى ؟ لا شئ .. ان الإنسان قام بتلويث الهواء .. وتلويث الماء .. وتلويث التربة .. ويمكن أن تستخدم كلمة نسميم ، إذا لم تكن

هذه الكلمة واضحة .. ان هذا الذى حدث هو نتيجة طبيعية للصناعة .. فالمصانع تترك مخلفاتها فى الأنهار والبحار : وتطلق فى الهواء سموها السوداء .. أما السموم البيضاء التى نجى من بعيد فهى مخلفات الانفجارات النووية فى كل مكان .. مثلاً مادة « سترونتيوم ٩٠ » التى تطلق مع الانفجارات النووية تبقى فى الهواء وتسقط على الأرض وتبقى هناك لتصل إلى النباتات إلى الحيوانات ومن ألبان الحيوانات إلى الإنسان .. أو من النباتات إلى ثمارها إلى الإنسان .. إلى جسم الأم إلى طفلها .. إلى القمح إلى الأرز إلى الإنسان .. إلى عظام الإنسان وكل خلاياه .. إلى غدده وإلى اضطراب وظائف هذه الغدد .. حدث هذا بصورة مباشرة ولا يزال يحدث فى مدينتى نجاصاكي وهيروشىما فى اليابان — رأيت ذلك بعينى أنا كاتب هذه السطور ..

وقبل القنابل النووية عرفنا رحلة السموم هذه ، فى الحرب العالمية الثانية استخدم العلماء مادة الددث (اختصار للكلمات : ديكلورو — ديفينيل — تريكلورو — ايثين) فى رش ملابس الجنود واللاجئين والمهاجرين وأسرى الحرب للقضاء على القمل والبراغيث وكانت نتائجها باهرة .. ولكن فائدة الددث قد اعتدى إليها عالم سويسرى اسمه باول هيلر سنة ١٩٣٩ واستحق على هذا الاختراع جائزة نوبل ، فقد استخدمت هذه المادة فى القضاء على الحشرات ناقلة الميكروبات ، وهذه المادة اكتشفها عالم كيميائى ألماني قبل ذلك سنة ١٨٧٤ .

وبعد أن عرفنا أسرفنا فى استخدامه من أجل القضاء على أعداء الإنسان .. وأعداء الإنسانية بملايين الملايين : هذه الحشرات لا يمكن حصرها ويبدو أنه لا يمكن القضاء عليها ، ولو كان داروين على قيد الحياة لشعر بشئ من السعادة والعار فى نفس الوقت ، فعبارته التى تقول : ان البقاء للأصلح صحيحة ، وكان يقصد بها الإنسان الذى استطاع رغم كل ظروف البيئة القاسية أن يرفع ظهره ورأسه وأن يجعله غظه فى أعلى مكان

من جسمه وحياته . ولكن صراع الإنسان مع البيئة ومحاولة السيطرة المستمرة عليها يبدو أن الإنسان ليس هو السيد .. فالحشرات أقوى منه وأبقى منه ، والبغايا لها ، فكما أن الحشرات كانت أسبق على ظهر الأرض .. فسوف تبقى بعد انقراض الإنسان ، أن حربا عنيفة يشنها الإنسان على الحشرات ، ولكنها تنتصر دائما ، ان هذه الحشرات نحاول أن نجعل الإنسان نوعا من الديناصور : قويا هائلا وفي نفس الوقت عاجزا لينقرض بعد ذلك !

وهذه الحشرات تصارع الإنسان في مجالين : تأكل طعامه .. أو تحمل تحمل إليه الميكروبات ، وهو يحارب في المجالين ، فعندما يقتلها الإنسان يقتل نفسه أيضا ، فهو يضع لها السم لكي تموت .. ولكنه يضع السم في الطعام الذي تعيش عليه الحشرات ويعيش هو عليه .. يضع السم في القمح والأرز والفاكهة والماء والهواء .. هذا هو طعام الحشرات وطعامه أيضا وكل المبيدات الحشرية التي يستخدمها لقتل الحشرات في الدرجة الأولى ، وتقتله وهو في الدرجة الثانية .. ثم أن هذه الحشرات بعد ذلك تنكيف وتصبح قادرة على أن تعيش رغم هذه السموم ..

ولم تعد هذه المبيدات الحشرية التي يستخدمها مجرد سموم لأنها تعتمد في الدرجة الأولى على الزرنيخ والزنك والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن ولكنها تتدخل في وظائف الجسم الإنسان .. فتجعله ضعيف المقاومة أو تخنق أنفاسه أو تغير جنسه . أو تبطل عقله .. انها تقتل الإنسان بأشكال جديدة . ولكنها لم تقتل الحشرات ، فالحشرات تقاوم وتنكيف وتعاود الاستعداد لقتل الإنسان .. وعليه هو أن يفكر في سم جديد وهو الزرنيخ كان المادة المفضلة في قتل الملوك والأمراء من قديم العصور ، لأنه بلا طعم ، فإذا وضع في طعام أو شراب لم يدرك الضحية أن شيئا غريبا قد سقط في طعامه .. وقد شاهدنا ذلك كثيرا في الأفلام .. عندما كان السم يخرج من الخوام ومن الأفاعي ومن علب صغيرة تحفظها الزوجة أو العشيقة في

صيدها .. وبعد لحظات نرى أثر السم الذى لا علاج له .. ان أسرة يورجيا الإيطالية قد استهلكت نصف سموم إيطاليا ليقضى بعضهم على بعض - وربما كانت الرائحة الكريهة التى تشمها لأنابيب البوتاجاز مقصودة لكى ينبه الناس أن هناك تسربا للغاز فلا يشمل أحد عود كبريت وإلا اشتعل البيت !

وفى سنة ١٩٤٣ استخدمت قوات الحلفاء مادة الددث فى إيطاليا للقوبة من التيفوس والمالاريا - أى ضد الذباب والبعوض ، ومات الذباب والبعوض وأنتقد مئآت الألوف من الناس ، ولكن بعد ستة واحدة بالضبط عاد ذباب البيت أقوى ما يكون ونشط البعوض بصورة مذهلة : كأن هذا المبيدات فيتامينات لتقوية الحشرات ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ أين ذهبت هذه السموم ؟

الجواب : أن عالم الحشرات هو عالم المستحيل ، فمن الممكن أن يحدث أى شئ ، من الممكن أن تودى السموم إلى تقوية الحشرات ، ومن الممكن أن تعطى أسلحة جديدة غير متوقعة لمهاجمة الإنسان من جديد . فكأن الإنسان يساعدها على نفسه ! وكأن أحسن وسيلة للهجوم على الحشرات هو بسلم لها ، وأن يترك لها نفسه وجسده وما يملكه بلا حراسة .. وعليها أن تأخذ ما تريد وتترك ما تشاء - وهذا كرم منها ، لأن الحياة لا تريد الإنسان ، لأنه الأضعف ، وتريد الحشرات لأنها الأقوى والأبقى ؟ !

وفى سنة ١٩٥٠ رشت إحدى قرى مصر بالددث ، فنقص عدد الوفيات إلى النصف ، وبعد ستة تماما عاد الذباب والبعوض وارتفعت الوفيات ، ماذا حدث ؟ أنها نفس القصة الحزينة .. ونفس الرحلة القصيرة على جناحي ذبابة أو بعوضة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات !

وفى سنة ١٧٨٧ ذهب الكابتن آرثر فيليب إلى أستراليا ومعه بعض أشجار الصبار ليجمع منها سياجا لمدينته حتى لا تدخل الحيوانات وحتى لا تهرب الأغنام ، وفى سنة ١٩٢٥ لوحظ أن شجيرات الصبار التى أتى بها الكابتن

فيليب قد أصبحت تغطى ٢٥ مليون فدان في اميراليا الآن .. وليس نوعا واحدا من الصبار ولكن أكثر من ٢٨ نوعا ، كيف ؟ أسأل شجيرات الصبار !

ان في العالم كله الآن ما يقرب من ٢٠٠ ألف نوع من النيات .. والصبار واحد منها ؟

وفي سنة ١٩٥٩ استخدم الأمريكان المبيد الحشرى المعروف باسم الألدرين أخطر المبيدات جميعا - في القضاء على الخنافس اليابانية : وقضى المبيد على كثير منها ، ونوارى أكثر الخنافس في البيوت وفي بطن الأرض وفي الأشجار .. وماتت كل الطيور الصديقة والمعادية للإنسان وكذلك الكلاب والقطط . وبعد سنة عادت الخنافس بعد أن تغير لونها ، وزاد عددها ، انها توارت لتستمد في صمت وتعاود الهجوم على الإنسان دون أن تعطيه وقتا كافيا للتفكير في سلاح جديد ..

وفي سنة ١٩٤٤ استوردت أمريكا من فرنسا عددا من الخنافس للقضاء على بعض الأعشاب المتطفلة في الحقل هذه الخنافس تأكل هذه الأعشاب أو تقضى عليها وقضت على هذه الأعشاب وراحت أمريكا تصدر ملايين الخنافس إلى بلاد أخرى .. ولكن الخنافس نفسها ضارة ، أصبحت ضارة ، ولذلك كان من الضروري البحث عن حشرات أخرى تفرز مادة سامة على هذه الأعشاب لتقتل الخنافس .. وماتت الخنافس وبقيت الأعشاب ..

انها القصة القديمة . انها قصة الدب الذى يقتل ذبابة على وجه سيده .. انه يحجر واحد يصيبه الإنثين ويمشى حسن النية !

ان العالم يجب أن يشعر بالضائكة أمام هذا الذى يراه .. اننا لا نعرف بالضبط ما هذه الحياة .. ما حياة الذبابة والبعوضة .. اننا أمام معجزات وألغاز حرونا فيها ، ان العالم يجب أن يكون متواضعا : هذه ضرورة لأن الذى

يعرفه قليل ، لأن يده أقصر من ذراعه .. وأن عقله أقصر من أصابعه ..
والكون واسع ملي* بالمجهول ..

اننا ننظر إلى العالم من خلال نافذة ضيقة .. ولكن إذا بعدنا عن النافذة
فالذى نراه من خلالها قليل صغير ضئيل .. وكلما اقتربنا من النافذة كان
بحال الرؤية أوسع وأكبر فتحن نرى الدنيا من خلال نافذة صغيرة أسبها
الخلية الحية .. خلية الإنسان والحشرات والنباتات .. من هذه الفتحة
الضيقة جدا نرى قدرة الله ، تبارك الله ، وجل جلاله ، ولا نعرف ما هذا
الذى نستخدمه ، وخد من .. ضد الحشرات أو ضدنا .. اننا نشبه القيل
الذى يعيش على ملايين من الفناجين ونطلب إليه ألا يكسرها .. كيف ؟!
هذا ما ننصوّر اننا نفعله : أن تقتل الحشرات ولا تقتل الطيور .. أن تقتل
الطيور ولا تقتل الزهور ..

اننا الآن نعيش في عالم غريب .. كل من يأكل ورقة أو يشم زهرة أو
يقضم ثمرة ، يموت ..

نحن في عصر إذا لدغ يرغوث كلبا ، فإن اليرغوث يموت لأن الكلب
مسموم .

نحن في عصر نجد النحلة تحمل رحيق السم وأكبر الموت وتضعها
بمنتهى الصبر والمثابرة في خليتها ..

اننا في عصر إذا حامت فيه الفراشة فوق الزهور غابتها تموت ، لأن
أنفاس الزهرة تقتلها ..

ان كل الرعب والفرع الذى صورته الأساطير اليونانية هو ما نراه
حقيقة الآن .. ففى أساطير اليونان كائنات إذا نظرت إلى أى شئ صار حجرا
أى مات .. أو صار مسحوقا من الملح .. أو صار مهلكا .. كل ذلك
قد حصل ، ونحن القاتل والقتيل .. والمجرم والصحية ..

ولن نتوقف عن ابتكار أسلحة جديدة لمعاودة الحرب على ملايين الملايين من أعدائنا الصغار .. ولا هذه الملايين ستوقف عن تنظيم أطرافها الضئيلة وأجنحتها المربلة في الفضاء علينا من جديد .. إلى الأبد ..

ولى أساطير اليونانية أن الفتاة ميديا أحببت الفتي جاسون .. وكانت ميديا هذه ساحرة ، وكانت قادرة على فعل الكثير ، وانضقت مع الفتي على أن تساعد ضد أعدائه واستطاعت ، ولكنه تركها وأحب فتاة أخرى .. وهنا فقط قررت أن تقضى على الجميع .. وصنعت للعروس ثوبا من الحرير الأبيض ، وقدمته لها ، فلم يكذ الثوب يستقر على كثر العروس حتى سقط .. لقد تحولت العروس إلى كتلة من الرماد .

إن هذا الثوب الأبيض الحريري الرقيق نشره في كل مكان - باليد .. وبالطائرات .. إننا نلقيه على الحشرات فتتموت الطيور ، وتنصبه للطيور فتتموت الحشرات .. ونضعه للأشجار فتتموت الأبقار .. ويموت الإنسان ..

إن فستان ميديا الحريري الشفاف هو الذي نسجته من السحب البيضاء صب الددت وخبرها من المبيدات الإنسانية - أي التي صنعها الإنسان على أعداء الإنسان - والإنسان هو أعدى أعداء الإنسان ..

٧ رجال وبطة وقرر
يجثون عنه مصر في أفريقيا !

الناس في غاية الرقة : ولكن الأرض ليست كذلك .. الرمال ناعمة ولكنها في نفس الوقت لا مبالية ، والصحراء بحر لا مرج نه ولا أعماق .. والأهرامات أنياب ثلاثة ظهيم السحب أو تنتظر ظهور القمر لتخبئه فيتوارى بعيدا . والزورق الصغير المصنوع من القش أو من ورق البردي ملقى على الرمال .. كأنه سفينة نوح التي بناها على الأرض قبل الطوفان .

فبالى هذا المكان جاءه النبي موسى وخرج . وفي هذا المكان وضعت أمه في إحدى السلال ثم ألقت بها إلى النهر . وكانت السلة مصنوعة من ورق البردي ولقى جوار الزورق يوجد جمل يأكل بعض أوراق البردي ويرفع رأسه في نفس اللحظة التي هز أحد أبناء بورسعيد كتفيه ليقول : « أنه لا يمكن بناء زورق من هذا الورق » ثم ركب الأنوبيس عائدا إلى بلده ..

ويعرض الرحالة الترويحي ثورهايردال بروى قصة مغامرته بالزورقين روع الأول ورع الثاني في كتابه « رحلات روع » وقد نشرت صحف العالم ووكالات الأنباء والناشئة والميكروفون الكثير « عن « هذه الرحلة .. ولكن الجوانب الإنسانية الشخصية الداخلية لم ينشرها أحد .. وقد أخطأها هايردال حتى نشرها في كتابه . وهو رجل ليس مغامرا .. وإنما هو صاحب نظرية ، افتنع بها ويحاول أن يقنع الناس بها . إذ أن هو ليس صاحب رأى ووثق منه فقط ولكنه صاحب دعوة .. على مسافة قصيرة من الأنبياء 1

أما قضيته فقد اختلف حولها العلماء .

أناس يقولون أن الحضارة الأمريكية قد نمت متعزلة تماماً عن أفريقيا .
 وأناس يقولون أن هذه الحضارة إنما هي نتيجة هجرة أهل أفريقيا إليها .
 الفراعنة بصفة خاصة .. أما كيف جاء الفراعنة إلى أمريكا ، فهناك رأى
 يقول أنهم ركبوا الزوارق المصنوعة من ورق البردي وعبروا المحيط .
 بعض علماء المصريات يقولون أن الفراعنة لم يرحلوا بزوارقهم المصنوعة من
 البردي نهر النيل .. فهذا الورق يذوب في الماء .. ولذلك فهذه النظرية
 أيضاً يجب أن تذوب في الماء ومن الأفضل للرحالة الأوروبي أن يستريح .
 ولكنه لن يستريح حتى يثبت أنه على خطأ أو على صواب .. لابد من التجربة .

فمن أين جاءت حضارة أهل بيرو القدماء أهل المكسيك ؟ عندما جاء
 كريستوف كولومبس إلى أمريكا اكتشف أن هناك حضارة متقدمة . وأن
 هناك فنونا متطورة أكثر تقدماً من الفنون الأوروبية .. من أين جاءت ؟

يقول العلماء أن الإنسان الذي جاء إلى أمريكا قد انتقل إليها من سيبيريا ..
 من آسيا .. ثم عبر المضيق بين آسيا وأمريكا . وفي ظروف غير معروفة لدينا
 ظهر في أمريكا وزحف إلى الجنوب . إنسان جاهل . إنسان العصر الحجري .
 لا يعرف الزراعة . ولا استخدام المعادن . لا يعرف الزمن ولا الكتابة .
 وعن طريق الهجرة والاختلاط جاء الهنود إلى أمريكا . وهؤلاء الهنود
 مختلفون عن بعضهم البعض . أشكالهم مختلفة . لغاتهم مختلفة . ولغاتهم غير
 مكتوبة . ولكنهم جميعاً يغيرون طويلاً ..

وعندما جاء الأوروبيون إلى أمريكا لم يندهش هؤلاء الهنود الحمر .
 فهم لا يتصوروا أن هؤلاء الأوروبيين مكتشفون ولا غزاة . وإنما هم أناس
 على سفر .. جاؤا قبل ذلك ولأسباب غير معروفة اختصروا . كان لديهم
 أيضاً .. وكانت لهم ذقون طويلة .. علموهم كل فنون الحضارة : الخسوف
 وخطوط الطول والعرض . وعلموهم فن التنحيط . بل أكثر من ذلك
 علموهم لإجراء العمليات الجراحية قبل أن يعرفها الأوروبيين .

وكان لهم تفويم أدق من الذى يستخدمه الأوروبيون . حسنة الصقر ،
أو البداية عندهم ، هى سنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وهى نفس السنة التى ظهرت
فيها الأسرة الأولى المالكة فى مصر وفى العراق . وكانوا يصنعون بيوتا
من طابقين مثل أهل مصر وأهل العراق . واستخدموا الأنوال والمغازل .
بلى أنهم صنعوا أنواعا من السجاجيد أذهلت الأسبان عندما رأوها . .

ثم أنهم فى بيرو والمكسيك قد أقاموا الأهرامات المدرجة والأعمدة
الرخامية من قطعة واحدة . ورصفوا الطرق وشقوا القنوات وأقاموا الكبارى
المعلقة . وكانت لهم زوارق من البردى من طابقين . وكانوا يصحون تماثلا
لإله الشمس فوق هذه الزوارق . تماما كالقراعتة الذين يغف ملوكهم :
وهم آله الشمس : على هذه الزوارق .

ولكن إذا كانت حضارة بيرو والمكسيك مشرودة ، فلماذا لم يتعلموا
صناعة الزوارق عابرة المحيطات ؟ !

سؤال وجبه لا توجد عنه إجابة واضحة عند أحد . ولكن لماذا لا يقال
إن الذين يرفضون الزوارق المصنوعة من ورق البردى لم يجربوا هذا الورق ؟
من المؤكد أنهم يشكون فى قدرته على عبور البحر أو المحيط .

ومن عشرات المقابر والمعابد النقط الرحالة الترويجى صورة مناسبة
لزورق من البردى لقد رأى زوارق الصيد . وزوارق المسافرين . والزوارق
الملكية . والزوارق التى جلس عليها فتيات يرضعن أطفالهن . وصنع زورقا
طوله ٤٥ قدما وعرضه ١٥ قدما . أما أعواد البردى فقد لقوها على شكل
حبال ثم ضموها بعضها إلى بعض . والزورق قد تكون من عشرين لفة ، وعلى
ظهر الزورق توجد غرفة صغيرة يأوى إليها هابردال ورجاله طولها ١٢ قدما
وعرضها ٩ أقدام ..

وبدأ العمل يوم ١٨ أبريل سنة ١٩٦٩ أى فى نفس اليوم الذى بدأ

فيه هايردال رحلته المشهورة من بيرو إلى جزر البحر الهادى منذ ٢٢ عاما !

وبعد أن تم صنع الزورق حملوه إلى الطريق الصحراوى ثم إلى الإسكندرية إلى ميناء صافى بمراكش على شاطئ المحيط الأطلسى . واختار له اسم رع - إله الشمس . ويوم ١٧ مايو صوبه إلى خارج الميناء . وهذا الميناء قديم . استخدمه البربر قبل مجئ البرتغاليين إليه بألف سنة . وقد جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر . وقد تردد على هذا الميناء البحارة القبطيون . والميناء صغير ومناسب ولا توجد خارجه تلك الأمواج التى تسحب الزوارق إلى حيث يصبح الإنسان عاجزا عن السيطرة عليها . . ولكن هناك تيارا هادئا ثم هناك الرياح البخارية . وليس على الإنسان إلا أن يركب قطعة خشبية ليجد نفسه بعد أسابيع فى أمريكا !

وقبل أن يهبط رع إلى البحر صرخ أحد المصورين قائلا : ما رأيك لو غرق هذا الزورق . . انها صورة رائعة !

ولكن هايردال لم يتشامم . وإنما رأى فى ذلك نوعا من الحماس المهنى . انه مصور صحفى يريد صورة مثيرة ، وليغرق الزورق والنظرية وكل العالم !

وقيل له أيضا إن أعمود البردى تغوص عادة بعد أسبوعين ولكن لماذا ؟؟

واستقر رع على الماء كما تستقر أوزة سمينة . ولكنها طافية رغم ذلك مثل عشرات الزوارق المصنوعة من ورق البردى والتى ما تزال طافية فى بحيرات بيرو . رغم وجود الأوروبيين منذ أربعة قرون !

نظر هايردال إلى الأوزة العائمة فوجد لها متوازنة تماما . والناس قد تراحموا على الشاطئ . وكذلك الزوارق والسفن . كل شئ يصرخ ويصفر ويهلل ويدعو هؤلاء المغامرين بالتجاح . وجاء زورق لمسحب رع إلى خارج الميناء . لاشك أن الزورق قد امتص بعض الماء ! لقد تركوه فى البحر أسبوعا وزاد وزنه . ان هذا الزورق المصنوع من القش هو إحدى

المعجزات وأحد أحلام الإنسانية : أن يعمل الإنسان من أجل معرفة الحقيقة مهما كان الثمن . وأن يعامل الناس على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأديانهم .. أنها رحلة إلى الوراء .. إلى فجر التاريخ .

لأنهم سبعة من الرجال .. واحد من أقصى الشمال من الترويج والآخر من أقصى الجنوب من أفريقيا .. وواحد من أبناء الحضارة القديمة : مصرى والآخر من أبناء الحضارة الحديثة مكسيكى .. ثم واحد راسملى أمريكى وواحد شيعى روسى .. أما الرومى فهو طبيب وأسمه بورى ومن المهتمين بصحة رواد الفضاء ومشاكل انعدام الوزن . والإيطالى كارلو مورى هو مصور الرحلة . والمكسيكى أستاذ جامعى واسمه سانتياجو والإفريقى عبد الله جبرين من تشاد .. والمصرى جورج سوريال مهندس كيميائى وله بطولات فى الجودو .. وكان يسلى زملاءه بأن يكسر ستة قوالب من الطوب بضربة واحدة من يده .. وفى إحدى سافيه آثار أنياب سمك القرش .. وليس بحارا ولكنه سباح فقط . وهو بفضل أن يكون تحت سطح الماء لا فوق ظهر الزورق .. أما الأمريكى فهو الوحيد الذى يعرف الملاحه اسمه نورمان .. وهم من ديانات مختلفه . فالأمريكى يهودى والمصرى أرثوذكسى والإيطالى والمكسيكى كاثوليكان . وهارداى بروتستانتى والرومى ملحد والأفريقى مسلم . أنها تجربة إنسانية مثيرة . أسرة صغيرة من الممكن أن نتعاش . وأمكن ذلك رغم كل الصعوبات ..

وفى ميناء صافى جاء ١٦ بحارا وصحبوا الزورق إلى خارج الميناء : أما زوجة الباشا حاكم الميناء . فلم نستطع أن نتفد من ذلك الستار المنيع من المتفرجين . وأخيراً أفلحت . ولم نجد سوى ستاس قدمته هدية لهم . وكان هذا الفرقد قد اصطاده للباشا منذ أيام . ونشروا شراع الزورق . ولون الشراع أحمر كالنيلة . وعليه علامة إله الشمس رع . والمحيط يعلو ويهبط .

ولكنه هادئ . . . والصراخات تنعالي . وانسحب الرجال وتركوا الزورق
برجاله السبعة . . . يواجهون المحيط وحدهم . . . وكلمة « وحدهم » هذه
لا تفزعك . ولكن إذا وجدت نفسك تطفو على كوم قش ونخلك نيار
يستدرجك وأمامك ألوف أميال وحدهك وفي أول تجربة من نوعها ، وقف
شعر رأسك وانتقطعت أنفاسك !

وإلى جانب الرجال السبعة والسناس توجد بطة مربوطة من إحدى
ساقها . . .

وكان تور هاردرال مشغولاً جداً بالعلاقات الإنسانية بين رجاله
السبعة . أنهم لا يعرفون بعضهم البعض . لقد التقوا في ميناء صافى لأول مرة . .
والرسمي لا يعرف إلا لغته والأفريقي لا يعرف إلا العربية . . ولكنهم رغم
ذلك كانوا مثل التوائم السبعة . وكانت الشكوى من المهندس جورج سوربال
أنه « دثوة » الرحلة فهو ابن ذوات ولم يعتد أن يغسل الأطباق ولا الملابس .
ولذلك كان يتركها لغيره . وهنا يصرخ الإيطالي : ويتدخل هاردرال ليقول
له : لا تأخذ له لقد اعتاد أن يخدمه الناس . .

ثم قال لجورج سوربال : ليس من المفروض أن يخدمك واحد منا . .
أما عبد الله جبرين فلا يعرف القراءة . وقد رفض أن يعاون في أى
شئ « وقال للرجل المكسيكي : أنت أبيض وأنا أسود . . وأنا لا أحترمك . .

وغضب المكسيكي ثم قال له : أننى أمضيت سنوات من عمري في
خدمة الزوج وقد فزت بجائزة السلام البابوية من أجل ذلك !

ونصالح الإنسان ومضى الزورق بطيئاً في موج هادئ . . ولكن بقيت
مشكلة الوضوء عند عبد الله جبرين . أنه يتوضأ خمس مرات في اليوم .
ويستخدم الماء العذب الموجود في الزورق وقد نهى هاردرال إلى أنه سوف
يسبلك كل الماء . . وفي استطاعته أن يتوضأ من ماء المحيط فهو أنظف ماء

في العالم . واتجه عبد الله جبرين إلى ماء المحيط وكانت دهشته هائلة عندما
أكتشف أنه ماء مالح !

وعلى الرغم من الاختلاف الديانات على ظهر الزورق فإن الجميع قد
استرحموا صلوات عبد الله جبرين . لأنهم ينظرون إليه في دهشة وهو يركع
ويسجد مستغرقا تماما !

ويوم ١٠ يونيو فوجئ الجميع بأن المحيط في غاية القذارة . وأنه
يصعب على واحد منهم أن يمس فرشاة أسنانه في الماء . لقد تحول ماء
المحيط من أزرق إلى أخضر رمادي . إنها مخلفات الإنسان . . إنها إحدى
جرائم العصر الحديث : تلويث قنوات الملاحة . . ففي المحيط زجاجات عاتمة
وبقايا طعام وبقايا خشب وعلب . . ويقع من الزيت وكرات سوداء . .
إنه شيء لم ير له هاردا ل مثيلا في رحلته على الزورق . تكون تبيكي سنة
١٩٤٧ والتي استغرقت مائة يوم ويوما !

وكان دور عبد الله جبرين في إعداد الطعام فذبح آخر دجاجة . أما البطنة
فقد تركوها وأطلقوا عليها اسم سندباد . .

وبعد ٢٥ يوما من الرحلة كان الزورق قد قطع مسافة ١٢٤٠ ميلا .
وهذه المسافة لو قطعها الفراعنة من ميناء الاسكندرية لذهبوا إلى ما بعد جبل
طارق . . أو لو وصلوا إلى نهر الدون في روسيا . . أو إلى أبعد من ذلك غالبحر
الأيض أهدأ كثيرا من المحيط . .

أما قصة الأمواج فهي لائس . إن كل موجة تهز الزوارق . وكل رذاذ
الموج يدخل في الفرفة التي أوى إليها الجميع . . وكثيرا ما دخلت الأمواج
إلى داخل الزورق ووصل الماء إلى ركبهم . . وكثيرا ما نزل جورج سوربال
إلى ما تحت الزورق ليتأكد من سلامة الحبال — أنها مسألة حيال . إذا انقطعت
انفرط الزورق كله !

وكانت هناك بعض الحبال من البلاستيك . . وكانوا يشعرون بشئ
من الحجل لاستخدام هذه الحبال الحديثة . وكانهم يستمعوناً لى صوت
نيتون إله البحر وهو يقول : هذا غش فى اللعب . . إن القراصنة لم يستخدموا
البلاستيك !

وفى ٢٦ يونيو تجاوزوا خط طول ٤٠ غربا . . أى أنهم أصبحوا فى
النصف الأمريكى من المحيط . وانتهزوا هذه الفرصة وأقاموا حفلا . فتح
جورج سوربال زجاجة شهبانيا وقدم المشروبات من الزيتون والجبنة والمخلوطة
المصرية . . وكانت موسيقى وضحك حتى غابت الشمس فى المحيط . .
وفى أوقات الفراغ كان جورج سوربال يعلم عبد الله جبرين القراءة
والكتابة . .

وفى الليل تعالت صرخات . . وكان الموج عاليا والريح شديدة . .
وفجأة قفز الجميع : أن الأمريكى قد سقط فى الماء . وارتطم بشئ وتسليخ
تماما . وراح الدم ينزف من ساقه . . وصهوه . . ووقف الدكتور بورى
يقول : أن الموقف خطير . . هل توجد عندنا أملاح الأمونيا .

وقال الزملاء : لا . . طبعاً . . فأنت الطبيب !

وكان رده صحيح : نسبت هذه الأمونيا .

ثم عاد يقول : أن الأمونيا هى وحدها التى تعالج هذه الحموضة التى
دخلت جسمه . . الموقف خطير جداً . . أن الأمونيا لا توجد إلا فى البول . .
ولذلك يجب أن تقبلوا فورا . .

وتبولوا جميعا فى نصف جولة هند . .

ثم راح هو بذلك جسم زميله الأمريكى بالبول ساعتين . والأمريكى
يتألم . . وبعد ذلك استغرق فى نوم عميق . . صفا من نومه فى حالة هذيان .
فأعاد له بورى التبدليك مرة أخرى . .

وكانت السمك تتطير من المحيط إلى ظهر الزورق . . وكانت بعض السمك تسبح إلى جوار الزورق فتأكل السمك الجافة المعلقة على الجانبين . . والآن مضت ستة أسابيع على هولاء الرجال في طريقهم إلى أمريكا . . في نفس الطريق الذي سلكه القراصنة ناقلين حضارتهم إلى هذا العالم الجديد الذي ليس جديداً . . واتصل نور هارداي بزوجته يطلب إليها أن تدبر لهم زورقا ينشلهم فالأمواج عتيفة والرياح أعنف . . . والزورق تتطير محتوياته من كل ناحية . . والرجال يشد بعضهم بعضاً . . وبعضهم سقط في الماء ثم سحبه . .

ومع أول يوليو أصبحت الأمطار غزيرة . . وواضح أن الزورق سوف ينشطر إلى نصفين . . ولسب غير مفهوم لم يحدث له ذلك . . ولم يبق في الزورق كثير بعد أن صفت الأمواج الصناديق والعقابر والملايس الداخلية والخارجية . . حتى شراع الزورق اندفع إلى الأمام كأن حيواناً من حيوانات السيرك قد هرب منه من كرابيع المدربين . . إنهم الآن وحدهم بلا أية مساعدة وبلا أمل في ذلك . . ولكن الأمل الوحيد عندهم هو ذلك الزورق الذي طلبه نور هارداي من زوجته في إيطاليا أن تدبره له يقرب الشاطئ الأمريكي وجاء الزورق البخاري . . واتصلوا به لاسلكياً عدة مرات . . ولكنهم لا يرونه ولا يراهم . . طلب إليهم الزورق البخاري أن يطلقوا بعض الصواريخ ليحدد مكانهم . . أعلنوا أن كل الصواريخ وقتلتها مبلة وأنهم عاجزون عن إشعالها . . وطلبوا إلى الزورق البخاري أن يفعل ذلك فاعتذر القبطان لنفس السبب . . ثم طلب إليهم القبطان أن يوالوا الاتصال له ليعرف مكانهم . . أما كيف عثر عليهم هنا الزورق بعد ذلك فتلك معجزة !

واستعاروا من الزورق عوامة صغيرة وركبوها وأنفذوا كل ما بقى لهم في الزورق ر . . وركبوه وحده للموج . . يفعل به ما يشاء . . يصل إلى أمريكا أو لا يصل . . وانتهت مغامرة الزورق ر الأول . .

انتهت رحلتها ٢٧٠٠ ميل على زورق من القش . إنها نفس المسافة بين أفريقيا وكندا . .

أما ما تبقى من رح الأول فكان على مدى ٦٠٠ ميل بحرى من جزر باربادوس

ولم يأس نور هايردال وإنما أنشأ زورقا آخر واسمه "د راج الثاني" وبدأ من نفس الطريق .

وكان أكثر ثقة من ذى قبل . وكان بناء الزورق هذه المرة مختلفا . كان من ثلاث كتل من ورق البردى : واحدة إلى اليمين والثانية إلى اليسار أما الثالثة فهي التي بين الاثنتين والثلاث كتل مشدودة بعضها إلى بعض تماما .

أما عبد الله جبرين فقد قرر العودة إلى زوجاته الثلاث . . وجاء رجل يابنى بدلا منه واسمه كاما اوهارا . . أما أوراق البردى هذه المرة فقد جاءت من بيرو . والذي صنع الزورق رجل من البربر اسمه مدنى . . وفى يوم ١٨ يونيو بدأت الرحلة الثانية وبعد ثمانية أسابيع كان الزورق على مدى ٢٠٠ ميل من جزر باربادوس وأرسلت الحكومة سفينة لتحييتهم . وعلى ظهر السفينة السيدة ايفون زوجة نور هايردال .

وفى اليوم السابع والخمسين لهذه الرحلة وصلوا إلى الشاطئ الأمريكى . . لقد نجحت المغامرة أو الرحلة . . من أجل إثبات نظرية أن القراصنة قد وصلوا إلى هذه البلاد . . أو أن جماعة من البيض هم ذقون طويلة جاءوا بحملون إليها الحضارة قبل أن تعرفها أوروبا !

أقزام.. يشربون الماء في بيض النعامة

كان ذلك في إحدى ليالي الشتاء . . . الطفل يجلس على ساق والدته . .
وأمامه النار تشتعل . . النار تأكل الخشب . ويتحول الخشب إلى قطع سوداء
قصيرة ومن هذه الأخشاب يتصاعد دخان أبيض طويل عملاق . . ويحيى
رجل زنجي ويضع المزيد من الأخشاب ويغنى كأنه دخان .

ولسبب غير واضح يهرب الطفل من حضن أمه إلى غرفة ويصرخ
ويكي . . وأمه لا تفهم ماذا حدث ؟ وتحاول أن تفهم . ولكنه لا يقول
شيئاً . . وتففل الأم باب الغرفة على الطفل الصغير ، وتضع الغطاء على وجهه
وتركه ينام . . ولا تكاد الأم تدفع وراءها الباب حتى ينهض الطفل من فراشه
ويقف في ركن من أركان الحجرة ويقسم : لا بد أن أعثر عليهم . لا بد أن
أنقذهم أقسم بالله أنني سوف أفعل ذلك عندما أكبر ثم يسحب كراسة صغيرة
ويكتب فيها هذه العبارة : أنا قان دريوس عمرى ثمانى سنوات أقسمت
أننى سوف أنقذ هؤلاء الأقزام عندما أكبر . والله على ما أقول شهيد !

ولا بد أن الطفل الصغير عندما رأى النار ، ورأى فيها الأخشاب
السوداء القصيرة أدرك بإحساسه المدهش أن هذه الأخشاب القصيرة هي
هؤلاء الأقزام السود - البوشمان الذين حرص الزنوج والبيض في جنوب
أفريقيا على القضاء عليهم باستمرار . . أنهم يضعونهم على النار أو يطلقون
عليهم النار حتى لم يعد أحد يسمع عنهم شيئاً . .

وكل ما سمعه الطفل الصغير عن هؤلاء البوشمان - أو الأقزام - هو أن

أحجامهم صغيرة جداً . وأن جلاجمهم جميلة . ولكنهم وحوش . ومغفلون بسبب قصر القامة أما لون بشرتهم فهو في لون الذهب الأسود . . أو لون الشمس . . وهم صيادون فقط . لا يملكون أية قطعان ولا يزرعون الأرض . وإنما يحملون السهام والنبال والسنابر ثم ينصبون المصائد والفخاخ للحيوانات المفترسة . . ثم إن هؤلاء الأقزام ينظرون إلى السماء من حين إلى حين . . مرة إلى السحب لعل السماء تمطر ، ومرة بحثا عن ذلك العصفور الذي ينقض على أعشاش النحل . . فهم يأكلون عسل النحل . ومن الغريب أن هؤلاء الأقزام راحة خاصة إذا شملها النحل عرب ؟

وسمع الطفل أن هؤلاء الأقزام يارعون في الرسم بالألوان . وفي النقش على الحجر ولا أحد يعرف من أين يأتون بهذه الألوان الحية . . الصارخة . . فالأحمر في لون اندم ، والأصفر في لون الذهب ، والأخضر في لون الغابات والأبيض في لون أسنانهم . . من أين ؟ لا أحد يعرف بالضبط . ولكنهم إذا ما ذهبوا إلى أي مكان فإنهم يتركون آثارهم التي تدل عليهم . . على أنهم كانوا هنا . . وقالوا شيئا على جدران الكهوف ومضوا . إلى أين ؟ لا أحد يعرف ! هل رأيهم أحد ؟ كل الناس يدهون ذلك . ولكن أحد لم يقترب من هؤلاء الأقزام . ولذلك فالتقصص والنوادر والخرافات عنهم تملأ الكتب ! وهذا الطفل فان در بوست قد أحس أن أجداده من البيض الذين جاءوا إلى جنوب أفريقيا حوالي ١٦٥٢ قد أبادوا الألوف من هؤلاء الأقزام . . وهو يريد أن يكفر عن خطيئته ورثها ولا دخل له فيها !

وعندما بلغ العشرين من عمره قرر أن يذهب للبحث عن هؤلاء الأقزام . وفشلت محاولته الأولى . وحاول مرة أخرى وكاد يموت وهو يعبر صحراء كلهاري بحثا عن هؤلاء البوشمان . . فالطريق ليس صحراويا لحظ . . ولكن هناك مئات الأميال من المستنقعات والغابات . . والحرارة قاسية والرطوبة خانقة . . والوحوش ضارية والذباب مميت . . وقبل ذلك ليست لديه

معلومات كافية ولا وسائل للدفاع عن النفس ضد الوحوش والميكروبات .

وانتهت الحرب العالمية الثانية . . وانتقل إلى العمل في الجيش البريطاني في الحبشة . . ثم في الشرق الأقصى . وسقط أسيراً في أيدي اليابانيين . وانضم إلى هيئة أركان حرب اللورد مونتباتن . وعاد إلى بلاده . وعادده الحلم القديم . وأحس أنه من الواجب أن يبرر بوعدته وأن يني بقسمه . . والآل هناك قوة عتيقة غريبة في داخله تدفعه إلى البحث عن ضحايا أجداده من مئات السنين . .

ولكنه هذه المرة قرر أن يمشي خطوة خطوة وبحساب . الخطوة الأولى أنه سوف يعبر الصحراء كلها في النصف الجنوبي لأفريقيا . . ولن يستخدم السيارات وإنما سوف يستعين بالجرارات فهي أقدر على خوض الرمال . وسوف يستعين بكل الأسلحة للدفاع عن النفس وكل العقاقير الطبية . وقد عاونته الإذاعة البريطانية بعدد من أجهزة التسجيل . . فقد يصادف هذه القبائل المنقرضة ويسجل لها من بعيد . فقد يتعثر عليه أن يقترب منها .

ولاحظ إلى عدد من الأصدقاء الذين تخصصوا في عبور الصحاري والصيد في الغابات والذين يعرفون لغة البروشمان . .

أما الوقت المناسب للبحث عن هؤلاء الأقزام فهو موسم الهجرة . . موسم الأمطار . . ففي موسم الأمطار يهربون من المناطق الحارة الحارقة ويتجهون إلى حيث تزهو الأشجار وتنمو . . هذا الوقت من كل عام تهاجر الحيوانات أيضا . . وأمامها ووراءها يهاجر الأقزام . . ويمكن أن يفتنى آثار وحوش الغابة ليعرف اتجاهها . وفي هذا الاتجاه لابد أن يتوازي الأقزام .

قال له بعض الناس « الواقعيين » والذين يحسبون الأمور بدقة : لا داعي فالمسافة مهلكة والأخطار لا حدود لها .

والذين هم أكثر واقعية نصحوه بأن يعدل عن السير في الصحراء ويتجه إلى الأنهار أو إلى الغابات .

والذين يتوقعون كل الاحتمالات نصحوه بأن يقطع الصحراء ويتجه إلى الغابات . . وفي داخل الغابات يركب الزوارق ويتابع الأنهار . . وأن يكون عبورها نهرا فقط . . فهو لاء البوشمان لا يرون في الليل بوضوح . . وإنما يعيشون على ضوء الشمس وإن كانت أشعة الشمس تغطي عليهم أولا بأول . .

وبدأت الرحلة بعد ظهر أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ . . الجرامات الأربعة تزحف على الرمال . لا تحمل الكثير . . ولكنها الوسيلة الوحيدة لاجتياز الرمال . ومضى يوم ويوم . وفي اليوم الثالث وصل إلى شلالات فكتوريا . . لاجديد . . لا شيء قد لفت نظره . فهو ابن هذه البلاد . وهو يعرف أرضها وشجرها وحيواناتها . . ولكن ربما استوقفه قليلا أنه رأى قطيعا ضخما من الأفيال يجتاز نهرا ، مجاورا ، إذ أن لقد بدأت الحجرة فهو لم يخطئ في اختيار الوقت الأفضل من العام . الحرارة تسحق اللحم و الشحم . والرطوبة ستأثر كثيفة على الأنوف . والملابس كأنها تسبح من النار . والضوء يفتأ العيون . . ولكن منظر القيلة والجواميس الوحشية والزراف والطيور الجارحة وقد احتشدت جميعا في اتجاه واحد . . هو الشيء الوحيد الذي أراحه . . وأراح رجال قافلته . . لقد بدأ الموسم الذي تهرب فيه الحيوانات إلى حيث تكون خضرة الأرض وكثرة المياه . . ومعها وفي أرجلها يتوازي الأقزام . .

ونصحه خبراء الطرق بمشي مع نهري زمبيزي . ومن هناك ركبوا عشرات الزوارق الصغيرة وقد وضعوا عليها كل أمتعتهم وأسلحتهم . وأدار فان دربوست أجهزة التسجيل . . في النهر والماء والهواء الذي شنته الرطوبة وعلقته على غصون الشجر ، تردد أصوات صاخبة عارية باكية . . وهمس وهسيس وفحيح ونعيق . . كل ذلك في وقت واحد . . مئات اللغات . .

أولف الأصوات متداخلة . . وكلها تصنع سيمفونية القزع من الطيهول . .
 أما هؤلاء الذين جاءوا في زوارقهم فهم يخوضون في ملايين العازفين . .
 وعند إحدى الجزر ربطوا زوارقهم . وجاء الليل وتناثروا وناموا . . وكان
 النوم منقطعاً فلا أمان لشيء هنا . . وفي سكون الليل . . الكون القمبي . .
 سمع هو ما يشبه الطلق الناري فزعزع . . ونهض من فراشه . أو من الأرض
 التي هي فراشه . . وراح يعوى لينبه الذين حوله . . فقد رأى ظلالاً سوداء
 تقرب . . كانت قطباً من القيلة . . أما الطلق الناري الذي سمعه فلم يكن
 سوى فرع شجرة قد وطئه أقدام غيل فكان لهذا الوطء هذا الدوى . .
 وبسرعة قفز الرجال إلى النار فألقوا عليها بزيادة من الخشب والبزير . .
 فزاد طيبها وتناثرت شظاياها . . فخافت القيلة وفرت إلى أطراف الجزيرة . .
 ولو اقتربت هذه القيلة دون أن يدري بها أحد لحطمت كل ما معه من أدوات
 وحاجيات وقضت عليهم تماطلاً . .

وفي الصباح عادوا إلى الزوارق . ثم ركبوا على شاطئ النهر . وانجهوا
 إلى أحد المستنقعات . . بعد أن صبوا الزوارق على الأرض . . وحملوها
 على أكتافهم . . ووسط دقات الطبول العنيفة التي تمزق فمasha من نوع
 عجيب . . هذا القماش هو أحياناً اسمه : الضمت . . وأحياناً اسمه :
 الرطوبة . . وأحياناً تمزق : الشمر بالأمان . يقول فان دربوست في مذكراته
 هذه الطبول هي قلوب جبارة تخفق يمنون . ووجوه الذين يدقون الطبول
 لاتدل على شيء . . كأنهم اعتادوا على تشجيع أو توديع الناس إلى مقرهم
 الأخير كل يوم .

ويقول فان دربوست : لم أشعر قط أنني موف أفضل . . إنني مشدود
 إلى هؤلاء الأقزام بحيط سمري . . قوة سمرية تدفعني إليهم . . وأنتي لابد أن
 أجدهم . . أنهم هم الذين نادوني منذ طفولتي . . صدق أو لا تصدق .

الآن قد انفردوا بكل شيء . . أو على الأصح قد انفرد بهم كل شيء . .

للبعض حيوش لا عدد لها . . أزيزه . . طنبه خفيف . . إنه ينفض على كل شيء . . على أفراد القافلة . . على طعامهم وشراهم . . إنه أعلى من صوت الأبقار الوحشية والسبد قشقة . . وفي المستنقعات وجد قتوات من الطين . . هذه القتوات كغائرة تدل على أن قطيعا من السيد قشقة قد مر من هنا واخفى هناك . . والقتوات لها شكل جامد . . ومعنى ذلك أن هذا القطيع قد اعتاد أن يمر في هذه القتوات منذ وقت ضويل . . فلماذا لا يمر فيها الأقوام أيضا .

ويبدو أن هذا الاستنتاج خاطئ فقد نبه واحد من رجاله إلى أن الأقوام لا يمشون في الوحل . أنهم فصار القامة ويخافون أن يبتلعهم الطين . . أنهم يقضون الأرض الأكثر جفافا . . وهذا كلام معقول وللتك تحول رجاله إلى ناحية أخرى . . وفي الناحية الأخرى من المستنقعات عشرات من الخماسيح الجبارة تخطت في الشمس . . تفاجئ أقواها من بقايا لحوم ودهان . . ولم تهر هذه الخماسيح لصوت الزوارق . . وكان الخماسيح مرسومة على الطين . . وكان هذه الطيور تعبت بهذه اللوحات :

يقول فان در بوس في مذكراته .

أنني أعتمد على إحساسي . . على شيء في داخلي . . هذا الشيء ليس له معنى واضح . . ولكنه شيء قريب . . حاسة سادسة . . صوت الماضي . . عذاب الضمير وعلى هذا الاحساس الغريب أعتمد كثيرا . . وفجأة أحسست برغبة في أن أنظر إلى الوراء ونظرت ولمحت بين الأوراق قرما صغيراً ينظر ناحيتنا . . أنه واحد منهم . . وجهه . . رأسه . . لونه المشمشي . . لاشك في ذلك !

وروى ما شاهده لزملائه من البيض والسود في القافلة . . وضحكوا . . وامتدت بعض الأيدي إلى رأسه لعله محموم . . أو لعله يهذي . . ولكنه

كان على يقين مما أحس وما رأى . . وقال له أحد خبراء اقضاء الأثر :
لا يمكن أن يعيش الأتزام في هذه المنطقة ففيها الكثير من ذباب تسمى تسي . .
ذلك الذباب الذي يلسع ضحاياها فيظل الضحية نائماً حتى الموت !

وكانت في طريقهم جزيرة . . الجزيرة صخرية . عالية . صعدوا إلى أعلى
الجزيرة فيها كهوف كثيرة . . وعندما انعكست أشعة الشمس على مدخل
أحد الكهوف برقت ولمعت بعض الألوان . . إنها إحدى اللوحات البدائية . .
رسوم لحيوانات وطيور . . الألوان في غاية الحيوية . . أما هذه الأكف
الصغيرة على جوانب هذه الرسوم فلا بد أنها لمضاء الفنان البدائي .
وهذه الأكف الصغيرة لا بد أنها توقيعات الفنانين . حتى البدائي لا يستطيع
أن يفعل شيئاً دون أن يقول : أنا فعلت . . وهذا المضاء ليس إلا هذا
المعنى . مع أنه لا يدري ذلك . ربما قصد أن الأرواح هي التي سوف تراقب
أعماله وهجرته من مكان إلى مكان . . الأرواح ؟ نعم هذه أرواح ؟

ودارت مناقشة حول إمكان أن تكون هناك أرواح طيبة أو شريرة . .
وتعالت الأصوات وقال أحد خبراء اقضاء الأثر : نعم هنا . . وسوف
نرون !

ولم يكذب يكل هذه الجملة حتى سمعوا صراخاً من الرجل الأبيض الذي
جاء يصور الرحلة بالأفلام . إن الكاميرا لا تعمل مطلقاً . يحاول فتح العنسة
أو توسيعها أو تضيقها . . إنها لا تتحرك إطلاقاً . وتعالت صرخات الزنوج
في نفس واحد وقالوا : إنها الأرواح !

ولم يجد فان در بوست إلا وسيلة واحدة لاسترضاء الأرواح . فقد أُنذِر
أعضاء الجماعة بالألا يرفعوا أصواتهم وألا ينشاجروا . . ولكن واحداً من
الزنوج أُنذره مرة أخرى : أن هذا لا يكفي !

وامتدت يد فان در بوست إلى قلم وورقة وكتب اعتذاراً للأرواح

عن هذه القوضاء التي أفسدت جمال وجلال الكهوف . ثم وضع الورقة تحت شجرة حدودها له . .

وتحالت صرخة معبور القافلة : إن الكاميرا تتحرك . . وتحركوا جميعا وهم لا يفهمون ماذا حدث . ولا كيف حدث . .

ومن النظر إلى بقايا الطعام على الأرض . . وآثار الأقدام والأعشاب أعلن واحد من الرنوج أن الأقزام كانوا في هذه المنطقة ثم رحلوا منذ أسبوع على الأقل . . ولكنهم يعيدون من هذا المكان . . ثم رأوا آثار أقدامهم على الأرض . . الأقدام صغيرة جداً . وهم إذا ساروا فإنهم يمشون على أطراف أصابعهم . . ولذلك فأصابع القدمين غائرة في الأرض . . أما الكعب فلا أثر له !

وفجأة . . رأوا قزماً صغيراً جداً وقد لف جلد أسد حول خصره . إنه قزم في لون الشمس . تمام . وعيناه واسعتان . مضبوط . وفي يده سهم . يصيد أرنباً برياً في براحة . ثم يمسكه من أذنيه . ويتوارى به بين الأشجار . ثم يعود بسرعة إلى مكان الأرنب ويقبع الضئيل على دماثة التي سألت حتى لا يهتدي الحيوانات إلى الأرنب . . واقربوا من القزم . ولم يخف . ولم يهرب وإنما ظل واقفاً كأنه على موعد . والضوء حوله . . ووقف الرجل القزم وتحدثوا إليه إنه في غابة الرقة . ليست في نظراته أية رغبات عدوانية . لا شيء ! مما تقول الكتب وأحسن فإن دريوست أنه من الضروري أن يعرف بشيء . يقول في مذكراته : جرمون جميعاً أجدادنا . جرمون سقاجون . إن هذا الإنسان الذي يغف أمانى في غابة الرقة . إنه أرق بكثير جداً من الأوروبيين الذين التقوا على الحنود . . الألمان والفرنسيون مثلاً . . الإيطاليون والهنديون مثلاً . . لأنهم في منتهى الوحشية . . أنتم وحوش أيها البيض ؟ !

وعندما سألوهم عن بقية الأقزام قال إنه سوف يعود غداً . . وانصرف !

وكاد بعض الزنوج والبيض أن يطلقوا النار على إحدى ساقبه ليعطلوه .
أو يأخذوه رهينة لأنهم لا يضمنون صدق ما يقول . .

ولما انصرف القزم كانت العيسات تلاحقه . . وكذلك آلات التسجيل . .
وقرروا المبيت في قفس المكان . وفي الصباح جاء الرجل القزم ومعه زميل
له . . ولا يزال الهدوء والبساطة والسباحة هي طابع كل منهما . . واقتربا
الاثنان . . ومثل القزمان أين توجد بقية القبيلة . .

فأشار الاثنان إلى مكان وراء هذه الغابة . ونحرك الجميع معا . .
واختاروا الغابة . . ومن فوق أحد التلال رأوا قبيلة بأكملها . . يبلغ عددها
ثلاثين من الرجال والنساء والأطفال . والرجال قد صادوا بعض الحيوانات
والنساء يعملن على تسوية هذا اللحم الطازج والأطفال الصغار يلعبون . .
ونزل المطر من السماء . . وبسرعة اختفت الحجوم . . واختفى الجميع .
وفي لحظات عادوا يرقصون للمطر ، رقصة الشكر . وبعد ذلك . تعالت
الطبول . إنهم يصلون للشمس عند الغروب . . وقبل غروب الشمس يقليل
عادوا بفنون متجاورين . ثم يرفعون أيديهم . . ويختفون بين الأشجار
في بيوت مصنوعة من أغصان الشجر ومن الأعشاب . إن هذه البيوت
أشبه بيوت النحل . وكان كل شيء قد تم في هدوء وسلام .

لم يكن فان در بوست يريد شيئاً . فقط أن يرى هؤلاء الناس وأن ينقل
للرجل الأبيض نصيحجا لهذه المصورة الكاذبة عن أناس مثلنا لهم
حياة خاصة . . يعيشون في سلام . لا هم وحوش . ولا هم قساة ولا هم كاذبون .
يأكلون من ثمار الشجر وأعشاب الغابة وحيوانات البر والبحر وهم ضحايا
الشمس والمطر والمرض والبعوض والذباب وهم ليسوا في حاجة إلى أسلحة
الرجل الأبيض لكي يموتوا . . إنهم ينقضون من تلقاء أنفسهم !

وتلفت فان در بوست إلى الجميع وقال : الآن يجب أن نعود : انتهت
رسائلي . وتحققت أمنيئي . ووفيت بما وعدت . وأرحت ضميري !

وقبل أن يعود فان در بوست قرر أن يودع هؤلاء الأقزام . . فدعاهم . .
ووزع السكاكين على الرجال والمناديل على النساء . . والطعام على الجميع . .
وتعالت دقات الطبول لوداعه . .

وقرر هو أن يودعهم على طريقهم . . فنزع ملابسه ووقف عاريا
وارتدى جلد الأسد حول خصره . ورفع يديه إلى السماء ليصلي . . وقبل أن
يعتدل في وقفته كانت سهام الزنوج ونبالهم قد اتجهت إليه . . وبسرعة ألقى
بنفسه على الأرض رمزا للاستسلام وارتدت السهام والنبال . وسأل عن الذي
أغضبهم وآثارهم عليه فقالوا : إنهم يخافون أن يجلب النحس عليهم فقد ليس
جلد الأسد بالملووب !

من عینہا ..
خرج آخر بابہ
رولہ للقمح !

هل تؤمن بالصدقة 1 من المؤكد أنك تؤمن بها . وهل الحياة من أولها
لآخرها إلا مجموعة من الصدق ؟ اختلفت الآراء حول الإجابة عن مثل هذا
السؤال ولكن الذى يقول إن كل شيء صدقة ، يعمل وجودنا تأفها ، ويعمل
الوجود كله بلا حكمة أرادها الله . ولكننا فى مثل هذه المرحلة الصغيرة
الضئيلة من حياتنا ، لانعرف حكمة حياتنا ولا حكمة الوجود كله ولا حكمة الله
فلنأنا أصغر وأضعف من ذلك . . ولكى يكون هذا واضحا عليك أن تسأل
أقرب لحظة أو ثلمة - إن استطعت - عن سر الاختراع الانسان للصواريخ
عابرة القارات .

احتفظ بهذه المعاني فى رأسك بعض الوقت وأنت تقرأ قصة هذا الشاب
الصغير أريك نيوى (١٨ سنة) عندما كان فى العشرين من عمره كتب فى
مذكراته يقول : فى هذا اليوم غصبت مع واحد من إخوتى . وقررت
أن أترك أيرلندا وأذهب إلى فرنسا . . لا أعرف فى فرنسا ولا منها ولا عنها
أى شيء غير أن نابليون أعظم قائد فى التاريخ . . من أجل ذلك قررت
أن أهرب . .

ويقول أيضا : وفى هذا اليوم رأيت مرجريت . . صدقة . . تمنيت
أن أكلمها فى أى شيء . . أن أقول لها إننى أحبك . . واقتربت منها . .
وتصادف أن جاء أخى . . ويبدو أنه كان يعرفها . . فسلمت عليه . ورحبت
به . . وكان فى عينها نوع من الترحيب الغام به . . وفى . . ويكل الدنيا . .
وهنا قررت أن ألقى بنفسى فى الماء . . وصدقة . . وجدت أبى ومعه والدتى

في الطريق إلى الكنيسة . . ومن عيني أرى الرقبتين الجميلتين تدفق تيار من
الرحمة والحنان . . ومدت يدها . . ومددت يدي ونفسي . . وأعطيتها
كل شيء . . وأعطتني . . واحتضنتني فيها . . وعدت . .

ويقول أيضا : وفي الصباح صرحت أُمي بأنني لابد أن أكون بحارا ،
وقال أُمي : إذن تريد أن تكون رجلا ، لقد أسعدتني يا ولدي ، أنا أحب
الرجولة المبكرة ! وغالت أُمي : ولكنك لم تكمل تعليمك بعد . . بل لم تتعلم
أى شيء . . وقال أُمي : الحياة أكبر مدرسة . . وأين تعلمت أنا . . وأين تعلمت
أنت . . إنني أفضل على أُنخبه الذي يريد أن يكون زوجا وأب . . إنه إنسان
بلا طموح والفنائه التي اختارها لا تختلف كثيرا عن أمها . سوف يكون
لها عشرة من الأولاد ! .

وبعد عشرين سنة أخرى كتب أُمي يقول في مذكراته التي
عنوانها « آخر سباق للقمح في العالم وفي التاريخ » : لو كنت ذهبت إلى
الميناء وأنا في الثامنة عشرة من عمري ولم أجد هذه الفتاة مرجريت لتغير
شيء كبير في حياتي وحياة غيري . . ولكن عندما ذهبت إلى الميناء وجدت
هناك . . كانت قلقة . . أو كان قلقها نوعا من السخريه . . كأنها تريد أن
تراني . . أو لا تريد أن أراها في هذه اللحظة بالذات . . وصدفة . . جاء
قبطان طويل عريض أعرفه . . وأعرف أن له سفينة ضخمة ، قلت له :
سيدى . . أريد أن أعمل معك . . وفي هذه اللحظة نظر القبطان ناحيتي
وكانتني فأر قفز في جيبه فقال : مات من رجال كلب صغير . . يمكنك أن
تعمل معه . . هل لك أب ، فقلت : طبعاً . فكان رده وكأنه يرفض هذا الفأر
بجذائه الغليظ : ولماذا طبعاً . . أنا شخصيا لا أعرف لى أب . . وسوف
نعرف أن المحيط ليس له أب ولا أم . . ولا العواصف ولا الشمس ولا القمر .
إنها صدقة أخرى . . فقد كانت مرجريت وافقة . وتأكدت تماما أن قلقها
لم يكن إلا نوعا من الرغبة الشديدة في أن أذهب من طريقها . . أو أن أختني

في ستين داهية . . لأن الذي يضارون دائما بيني وبين أخي . . براني أفضل ويراها مصدر تعاسة له . . وكان هناك اتفاق بين كل الظروف . . فقد ظهر أبي فجأة . . لا أعرف كيف . . ويبدو أنه كان يعرف القبطان . . نحن الآن ثلاثة : القبطان وأبي وقد بدا قصيرا أكثر مما كنت أتصور . . ومرجريت وفجأة طالت قامتها أكثر مما اعتدت أن أراها . . أما أنا فأقصر وأصغر الجميع . . أي أننا أكثر من ثلاثة . . ومن الغريب أنني أقول دائما . . كنا ثلاثة مع أننا كنا أربعة . . ووافق أبي على سفرى معه . . وبسرعة انتقلت عيناى إلى مرجريت والآن عرفت كل شيء . . إنها استراحت إلى هذا القرار وفى نفس الوقت لاتصدقه . . فأنا أصغر من ذلك بكثير . . وهكذا نصورت أن هذا ما يدور فى رأسها . .

وبسرعة حدث كل شيء . .

فى ذلك الوقت من التاريخ كانت السفن الشراعية فى العالم كله قليلة . . ربما كانت عشر سفن قادرة على عبور المحيطات . . وكان يملك هذه السفن رجل من فنلندا ومهمة هذه السفن هى نقل القمح من اسراليا إلى أوروبا . ولا يمكن أن يكون صاحب هذه السفن من المروءة ، إنه تاجر يكسب ، وواضح أنه يكسب كثيرا ، والغلال لاتفسد ولا تنكسر بالسفر الطويل بين القارات . . ثم إن الغلال ليست كالفاكهة موسمية ، يجب أن تصل فى موعد محدد حتى تكون فاكهة الموسم ، وفى نفس الوقت دون أن يصيبها الحطب . . وكانت هذه السفن تدور حول رأس الرجاء الصالح - أى حول أفريقيا - أو حول رأس هورن - أى حول أمريكا الجنوبية . .

وفى القرن الماضى كانت رحلة السفينة الشراعية من اسراليا إلى إنجلترا تستغرق مائة يوم . . وبعد ذلك استطاعت سفن شراعية أكبر أن تقطع هذه المسافة فى أيام أقل ففى سنة ١٨٦٨ استغرقت رحلة السفينة الشراعية (نرومليه) ٦٣ يوما . . أما المسافة فهى ١٥ ألف ميل . .

وبعدها جاءت سفن أخرى تنقل الشاي من الصين إلى إنجلترا عبر قناة السويس التي انفتحت سنة ١٨٦٩ ، ثم جاءت سفن أخرى وقامت بنقل الصوف من أستراليا . وفيما بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٥ كانت الرحلة تستغرق ثمانين يوما ونصف اليوم من أستراليا إلى بريطانيا حول أفريقيا وتستغرق أيضا اثنين وثمانين يوما ونصف اليوم إذا مرت حول أمريكا الجنوبية .

أما رحلة هذا الشاب أريك نوبل فقد كانت في سنة ١٩٣٨ ، ففي ذلك الوقت كانت هناك سفينة ضخمة رشيقة محدودة تشبه كلاب الصيد . واسمها موشولو . وكان قبطان هذه السفينة اسمه جوستاف الرهيب . . وعندما توقفت السفينة تفرغ ما بها من شحنات القمح تقدم شاب صغير إلى القبطان وألقى أمامه ورقة وهرب . . ويقول الذين رأوا القبطان أنه مد يده وفتح الورقة وتركها تسقط على الأرض ثم داسها وأفرغ كوب البيرة في فيه واستدار يطلب المزيد ، وفي اليوم التالي جاء هذا الشاب وقال للقبطان إنه يريد أن يكون ضمن رجاله وسمع الناس القبطان يقول : تريد أن تكون كلبا بين الخنازير التي معي . لا مانع . .

وهذا يختلف تماماً عما رواه الشاب أريك في مذكراته . ولكنه على كل حال وافق على أن ينضم هذا الكلب الصغير إلى حظيره المسماة موشولو . . ووافق الأب أيضا وأعلن القبطان للأب أمام الابن أنه غير مشول عما يحدث للابن كأن يهرب في أحد الموانئ . . أما إذا أخطأ فسوف يطبق عليه القانون الفنلندي ، فصاحب السفينة فنلندي والقبطان أيضا . وإذا مات أثناء العمل فسوف يدفعون له تعويضا .

وبعد أن أفرغت السفينة حمولتها من القمح ، وبعد أن وضعوا فيها أثقالا من الحديد وبراميل بها صتوف طنا من الماء العذب ، نشرت السفينة أشرعتها الأربعة يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ في طريقها من ميناء بلفاست بإيرلندا إلى ميناء لينكولن بأستراليا . . أما الرحلة بالنسبة لهذا الشاب فقد

بدأت قبل ذلك بيوم واحد . . . أو على الأصح بساعات ، فلم يكذب الشاب الصغير بنقل إلى ظهر السفينة حتى سمع القبطان الرهيب يقول صارخا :
اصعد السارية بسرعة . . . إلى آخرها . وكانت صرخة القبطان . . . مثل
طلقة نارية موجهة إلى الشاب أريك . . . إليه هو وحده . يحنا القبطان ويده
كلها تؤكد هذا المعنى ، وقال الشاب : يجب أن أخلع حذائي . . . وقال القبطان
اخلع حذاءك واصعد . . .

أما ارتفاع الشراع فهو ١٩٨ قدما . . . وهو أعلى سارية في العالم . . .
وكان مغطى بالزيت ومبللا بالماء . . . وبدأ البحار الصغير يتسلق السارية . . .
وجاء صارخ من القبطان يقول له : إذا أصبرت إليك أمرا فيجب أن تردده
ورأى . . . اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . وردد البحار الصغير : اخلع
الحذاء واصعد إلى الآخر وصرخ القبطان : لم أقل ذلك . وتنبه الشاب وقال :
اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . . .
وتسلق حتى آخر الشراع . . .

ثم زل ، لم يكن الغرض من هذا الصعود سوى أن يدخل في طاقم
السفينة بسرعة وأن يطيع الأوامر ، وأن يتحول إلى قطعة من قطع السفينة
لا رأى له ولا إرادة . إنه فقط يتفذ أوامر العقول الكبيرة : القبطان الرهيب .
وأكد له القبطان : أن الذي تفعله هنا بالقرب من الميناء سوف تفعله
مرات أثناء العواصف التي تزيد سرعتها عن السبعين ميلا في الساعة .

وكانت الرحلة بعد ذلك شاقة ، ولكن أحدا من طاقم السفينة لا يندعش
لما يفعله المحيط بالسفينة ولا لما تفعله الرياح بالشراع . وأعمال النظافة تتم
في الساعة السادسة من كل يوم ، وكل واحد يؤدي عمله ساعات محددة بشرط
أن تكون الأحوال الجوية حسنة أما إذا ساءت : فالكل يجب أن يعملوا . . .
وبسرعة يستمد البحارة من البحر غضبهم ومن العواصف قسوتهم : ومن
الزهور جمودهم ومن الموت تهديدهم له . . .

لا أحد ، والليل خفيف وهو ما يزال شاباً صغيراً وما يزال الطريق طويلاً
وهيأ إلى ميناء كوينز تون بايرلندا .

وفي نفس الوقت كان يسمع من القبطان أن سفينة شرعية أخرى سبقها
منذ شهرين . قد أفلتت قبلها يوم ١٦ فبراير ، السفينة اسمها غابكنج . . وهي
الخاصة الوحيدة لها .

وأبحرت سفينة أخرى اسمها هامير يوم ٨ مارس إلى بعدها بأسبوع .

وسفينة ثالثة اسمها باسيت أبحرت يوم ٩ مارس .

وبعد أيام هدأت الرياح ، ولكن الجو بارد ، والمزج جبال . والقبطان
عينه في برين النجوم ، ووجهه مكفر كالسحب . وصوته كالرعد . وليس
من المتوقع ، لأي سبب أن يضحك . ائكل يؤكدون ذلك . . ثم إن واحداً
من البحارة قد أخبر أريك الصغير أن هذا القبطان كانت له زوجة هربت
مع بحار صغير وتركته ، وهذا هو سر قسوته عليك . ثم إنك تشبه هذا البحار
الذي هرب مع زوجة القبطان .

• • •

ومنذ ذلك اليوم راح أريك الصغير يغطي وجهه ، حتى لا يراه القبطان
أو حتى إذا رآه لا يستعيد ذكرياته الأثيمة : إنه شاب صغير وأفكاره صغيرة
أيضاً . ولم يناقش ما قاله هذا البحار الخمور ، فلا وقت للتفكير في أي
شيء . : فالموت على رقاب وتحت أقدام وفي جوانب وعلى شفاة الجميع !

لا شيء يراه أي إنسان غير الماء والسحاب . . والاثنان من لون واحد .
وكل شيء على مدى ألوف الأميال . . إنهم على مسافة خمسة آلاف ميل
من رأس هورن ، أقصى أمريكا الجنوبية . .

وفي أحد الأيام فرروا أنهم سعداء جداً . . لماذا . . إنهم مروا بخط

الطول ١٨٠ وعليهم بعد ذلك أن يعيشوا يوماً آخر . . فعند هذا الخط يعيش الإنسان اليوم الواحد يومين . . (أنا شخصياً مرت بهذه التجربة . . فعندما سافرت من طوكيو يوم ٧ نوفمبر وصلت إلى جزر هاواي يوم ٦ نوفمبر . . فكانني عشت يوم ٦ مرتين ، ويوم ٧ مرتين أيضاً) ولكنهم تشاممو ، فقد كان يوم عبور هذا الخط يوم جمعة . . ولو كان يوم الأحد لعاشوه مرتين !

وقال أحد البحارة الخمورين : ان هذا اليوم لن يمر في سلام ، ولما سأله قال انه يعرف ذلك ، ولما استوضحوه قال : إذا رفع الخنزير رجليه انتهى عند الذبح فهذا تذيير شويم علينا جميعاً !

وقد صدقت هذه النبوءة ، فلم يكن أسوأ من ذلك اليوم في الرحلة كلها ، وكان على البحار الصغير أن يظل يجرى من أول السفينة لآخرها يربط الحبال ويعقدها ويأتى بالخرائط للقبطان من تحت ومن فوق وطلب إليه القبطان أن يضاعف كمية الشاي الساخن الذي يشربه حتى لا ينام . . وأن يظل طوال الوقت عند قدميه . . نعم عند قدميه ، ألم يقل إنه كلب من الكلاب ؟ فعلاً إنه واحد منهم ، بل إنه أقرب الكلاب إلى القبطان . . أو أنهمهم إليه . . أو الذي لا ينساه أبداً . . بل إنه يتاديه باسمه عشرات المرات في اليوم الواحد . . ونام أريك الصغير من شدة التعب وتراجع برأسه إلى الوراء ، فاصطدم بالقبطان . . ونهض خائفاً وهو يقول : نعم يا سيدى . سوف أصعد فوراً !

وانطلق أريك يصعد السارية من جديد . . وتشاء الصدفة العجيبة أن يكون صعوده في الوقت المناسب ، فقد كان الشراع قد بدأ يتمزق ، ولكن أريك الذي لا يتدرى مصدرها استطاع أن يعيد رباط الشراع وكانت العواصف شديدة . . وظل يواجه الشراع والموت والعواصف وحده ساعتين . وهبط إلى ظهر السفينة ليجد القبطان في انتظاره ، وقد أخذه إلى غرفته وملأ جوفه بالكوكيالك ووضع عليه أغطية كثيفة ، والشاب الصغير في ذهول

ولكن عيون البحارة تؤكد له أنه حقق معجزة ، فلو لا أنه صعد في الوقت المناسب ودون أن يطلب إليه أحد ذلك ، لتخطت السفينة تماماً . واندحش أربك كبت أن القبطان لم يقل له : اصعد إلى السارية فوراً . . انه يقسم بالله أنه سمع ذلك ؛ ولكن القبطان ضحك . . وقال له : لقد أنقذت السفينة ، ولكن لا تفعل شيئاً دون أمر . . ولا تردد هذه العبارة ورائي ! وذبحوا واحداً من الخزيوين الباقين وكانت ليلة سعيدة . .

وطلعت الشمس . . وغابت . . وظهر القمر . . والجو يزداد دفئاً . انهم الآن متجهون إلى الشمال . . إلى قرب خط الاستواء . . ولون البحر يتغير من الرمادي إلى الأخضر ثم إلى الأزرق والنعيم المنعش . . ثم الحرارة الشديدة . . ولكن الجو عتدل الآن . . وفي الصباح الباكر صعد واحد من البحارة إلى قمة السفينة ورأى سفينة شراعية من بعيد وسأله القبطان أن يصف أعلامها . . ولكنه لم يستطع أن يرى الأعلام ، وصعد بحار آخر وفي يده التلسكوب ووصف أعلامها . . من الغريب أنها سفينة فاينكنج التي أبحرت قبلهم من استراليا . . وكان ذلك يوم ٩ أبريل عيد الفصح . . وأحسوا جميعاً أنه يوم عيد حقاً . . لقد خرجت هذه السفينة قبلهم بشهر . . إذ أن لقد أدركوها ، وسوف يسبقونها ، انهم يحشون أسرع .

وأعلن القبطان الرهيب أن أيام العيد قد انتهت ، وأنه يعدهم بإجازة طويلة على الشاطئ . ومن الضروري أن يصلوا إلى أيرلندا قبلها ، لا نوم بعد اليوم ، الكل على ظهر السفينة ، ولا بد أن يسبقوا هذه السفينة ولو بشهر واحد وليبتاعهم المحيط بعد ذلك ! . .

الأمطار غزيرة ، المياه قد ملأت جوف السفينة ، ولكن جوالات القمح قد تغطت بالشمع السميك . . والمهم عندهم ألا يروا هذه السفينة . . إنهم جميعاً يتجهون إلى المناطق الدافئة ، فالأحوال أحسن ، والقبطان كأنه مضبوط على أشعة الشمس ، كلما تطلت من وراء السحب ، تلال الانقسام إلى وجهه . .

وفي أول مايو بلغت حالة البأس أقصى مداها على ظهر السفينة حتى لقد ألقى البحارة بأنفسهم إلى الماء يسبحون بالقرب من السفينة وقد ربطوا أنفسهم بالحبال .. ان الموج أرحم من السفينة . أما أريك الصغير فقد ربط نفسه في أحد الأعمدة ، وقد جمعوا الأشرعة تماما ، حتى تغل السفينة أهل اندفاعا .. وتوالى الساعات كأنها السنوات .. واقتربت السماء من المحيط ، وكأن السحب والموج تريد أن تسحق السفينة تماما وهذا واضح ، ولا أمل في النجاة . ولكن القبطان كان كأنه يتفرج على تمثيلية قد رآها قبل ذلك عشرات المرات . فظهر على وجهه الكثير من الملل .. وكأنه يعلم أن الموج لا يعنى ما يفعل والرعده لا يعنى ما يقول ..

وبعد ذلك بأيام تحسنت حالة البحر ، وقرر أريك أن يبعث برسالة .. ولكن إلى من ؟ إلى أى أحد ، وأن يضع الرسالة في زجاجة وأن يلقى بالزجاجة في المحيط ، ولكن ما الذى يقوله ؟ كتب أريك في الرسالة يقول : لا أريد أن أعيش بعد اليوم ، تميت ، مع أننى ما أزال صغيرا ، ولكن الطريق الذى اخترته صعب ، ولا أعرف ما الذى دفعنى إليه ، هل حقد أننى على .. هل هى غيرة منى .. هل هى نظرة الاستخفاف فى عيني مرجريت .. هل هو الحرب من المدممة .. هل أرى أسرفت فى حسن ظنها .. فهى تتصور أننى سوف أعوضها عن أنسى .. وعن أننى الذى مات قبله .. إننى أشعر بأننى سفينة بلا شراع ولا دفة ولا بحارة ولا قبطان .. لذلك يجب أن أنسى حياتى يندى .. ولكن لن يعرف ذلك أحد ..

ثم وضع الرسالة في زجاجة وأغفل الزجاجة بإحكام وبدلا من أن يلقى بها فى المحيط ذهب إلى القبطان وطلب إليه أن يعطى هذه الزجاجة لوالده .. وأمره القبطان أن يفتحها وأن يقرأ ما كتب .. وضحك القبطان وصرعه بشدة على وجهه ، وهو يقول . إننى أرى شبابه فىك .. أعجبتنى رجولتك .. اننى طردت زوجتى من البيت لأنها قررت أن يكون ابنها إلى جوارها وليس

إلى جوارى .. أردته رجلا وأرادته امرأة .. ثم ظل يضربه بيديه ورجليه ..
وأغلق الباب عليه ..

وبعد ساعة عاد إليه : وطلب إليه أن يستحم في المحيط وأن يغير ملابسه
وأن يتناول عشاءه معه ..

وعلى مائدة العشاء جلس القبطان والبحار الصغير ، والبحارة من حولهما
يشربون ويغنون .. لقد سبغوا السفينة « فايكنج » لأنهم قطعوا ١٥ ألف
ميل في ٩٦ يوما . أما السفينة التي رأوها فقد تخلفت عنهم عشرين يوما ،
ولم يدركوا جميعا أنهم كسبوا سباق القمم الدولي .. إنه أول وآخر سباق
بين السفن الشراعية عابرة المحيطات .. أما البحارة فيقولون الفضل للقبطان
الرهيب .. أما القبطان الرهيب فيقول - الفضل للبحار الصغير .. أما البحار
الصغير فيقول - بل بسبب نظرة استخفاف من فتاة كنت أتمنى أن تحبني ! ..

١٥ ألف ميل قطرها
على ظهر مصفاة !

شاهدت القاهرة منذ سنوات « الأوبرا الزنجية » المشهورة باسم « بورجي ويس » .. وفي هذه الأوبرا نجد رجلا مكسحا يتحرك على قاعدة خشبية لها عجلات ونجرة ماعز سوداء وهو يحب بظلة الأوبرا .. وهو صادق في حبه . وهذا الصديق هو الذي يجعل لأحداث الأوبرا طعم العسل والمر معا .. فهو حب مضحك ولكن يبعث على الحزن أيضا .. وعندما عرف هذا المسكين أن حبيبته قد سافرت سأل الناس - وأين مدينة نيويورك ؟ فأشار الناس إلى الناحية اليمنى من المسرح .. أو بعضهم أشاروا إلى الناحية اليمنى : التي هي ناحية المقابر أيضا ، وسألهم : في هذا الاتجاه توجد مدينة نيويورك ؟ قالوا : نعم ..

وانجحه المحب الوطن العاجز إلى ناحية نيويورك على هذه القاعدة الخشبية ذات العجلات الأربع ليلحق بمحبوبته التي هربت مع شاب عملاق .. ولكن أحد من الناس لم يقل له إن نيويورك تبعد عن هذا المكان خيمة آلاف ميل ! وعندما انجهت به المساعز إلى نيويورك اتجه الناس إلى الباب الخارجى من المسرح ففقد نزل الستار !

شاب آخر سويسرى نهض من النوم ليقول إنه لابد أن يسافر إلى نيويورك ولم يتجمل الناس أن يضحكوا منه ، أو يضحكوا عليه . هذا الشاب ولد في سويسرا سنة ١٨٩٥ واسمه إيمى تشيقل . كانت طفولته عادية . بلا أحداث ، كمثل طفولة السويسريين .. وسافر إلى إنجلترا .. وتعلم هناك . وبعد ذلك سافر إلى الأرجنتين وأقام في مدينة بونس ايرس وكان رياضيا

في غاية القوة . ولم تكن عنده أية رغبة في المغامرة . إنه جاد في حياته ومنظم
وهادئ ونظيف — سويسرى مائة في المائة !

وفي أحد الأيام كان يقلب في أحد الكتب بعد أن تناول طعام الإفطار .
وقفت مرة واحدة وقال الخمسة كانوا يجلسون معه : اليوم ياسادة اتخذت
قرارى الكبير سوف أذهب إلى نيويورك على ظهر حصان .. وليست هذه
قضية أعرضها عليكم !

وصدق الناس هذا القرار لأنه رجل جاد .

وانتقل إلى تنفيذ القرار بسرعة . ذهب إلى السوق واشترى حصانين
ومساعدته محببة لاسبون ، في تكاليف هذه الرحلة ، في نشر أخباره وتشجيعه
ولكن هذا القرار لم يكن عملا جنوبيا أو نزعة طائشة . فهناك تصرفات
واهتمامات كثيرة تدل عليه . فهو مهتم جدا بالخيول .. وخصوصا بالخيول
الكريول وهي أجود أنواع الخيول في الأرجنتين أو في العالم . وهي قادرة
على تحمل السفر والمشى مسافات طويلة . وهذه الخيول قد أتت بها الأمبان
إلى أمريكا في القرن السادس عشر . وأهم من ذلك أن هذه الخيول لا تتأثر
بالتغيرات الجوية .

أما المسافة التي يجب أن يقطعها في الجبال والمستنقعات والغابات والوديان
والوحوش والمتوحشين فهي عشرة آلاف ميل ..

اشترى حصانين .. كلاهما قصير العنق . ولكن له كتفان قويان .
وله أرجل رشيقة . وهو يقاوم أية محاولة لربطه أو تقييده . ولكن إذا
وضع السرج عليه واللبام في فمه فإنه يصبح تكمالا لحصان . وفي غاية الاتزان .
وكانت خطته ، أيى ، أن يركب حصانا ويترك الثاني يمشى ورائه .. فلم
يركب الثاني .. وبعد ذلك يستريح الثاني ويمشى هو بعض الوقت ، إنه
يريد أن يستريحوا هم الثلاثة قبل الإمكان ..

وبدأت الرحلة . وكانت البداية أول الأمر قاسية عليه هو . فمع موسم الأمطار في الأرجنتين توجلت الطرقات وقد سار في طريق ضيقة أول الأمر . ومضوا يتخوضون بحرا من الطين . وبعد ساعة من الرحلة سقط واحد منهم ميتا . لقد رأفهم كلب صغير . واقترب من أحد الحصانين فرفسه ففضى عليه في الحال . وانزعج هيمى ، ولكن لا وقت للأحزان ولا داعي للتشاؤم ومضى في طريقه الطويل ..

وانقطع نهار طويل ثقيل أسود .. وفي الليل ذهب إلى مراكز الشرطة وربط الحصانين هناك . وأوى إلى أحد الفنادق الصغيرة . فنتق ريق طبعاً . الغرفة بها أربعة أشخاص يأكلون ويشربون ويدخنون . وإذا تعب الأزيل وأغنى قليلا أيفظنه الحشرات . وخيرا فعلت هذه الحشرات فقد سمع حركة غير عادية . ونهض ليجد أحد اللصوص يريد أن يسرق الحصانين . وكان الفندق ملاصقا لمركز الشرطة .

ومضى يوم آخر وتوقف عند أحد الفنادق . وكان عليه أن يلقى بالمراتب على أرضه وينام على الحديد . فالحديد أرحم بكثير من الحشرات .. واستأنف الرحلة متوجها إلى شمال الأرجنتين . الأرض واسعة . الوديان صعبة . الطريق مليء بالمخاطر . والأشجار الشائكة . والأمطار لا نهاية لها . وانطريق خاتق . ولم يكن يضايقه إلا انسيابات التي تتلوى كالنحابين ولو انخرقت قليلا لأطاحت به هو والحصانين إلى الموت ..

وكان عليه بعد ذلك أن يختار طريقا أخرى في بعض الوادي .. وأجلائه العواصف الثلجية إلى أن يأوى إلى أحد الحقول . وفي أحد الحقول وجد جماعة من الفلاحين يجلسون حول النار . واقترب منهم ودعوه على القور أن يجلس . وجلس . وقدموا له الطعام . فأكل وملأوا أكواب هالبرا - نوع من الشاي - وشرب . ثم أقسموا عليه أن يأكل الأسادو - نوع من اللحم الساخن الجفاف - فأكل وأكمل . وأدركه النوم فدفعه إلى إحدى

الغرف ليسرّيع ، والغرفة مليئة بالدخان . والرؤوس والسيقان متقاربة .
ونام . واستراح واستأنف رحلته من جديد ..

الطريق واسعة .. كل شيء واسع طويل عميق كثير .. شيء محل . ولكن
بين الحين والحين يجد قرية صغيرة ، ويخرج من القرية بعض الأطفال
ووراءهم بعض الكلاب .. ينبهون جميعا ثم يبعث الهتاء والانساع يأكل
الصوت والصدى معا . ويخبم على كل شيء ملل رطب ، أو رطوبة محلة !

أمامه الآن هدف واحد هو أن يصل إلى حدود بوليفيا . وبعد ذلك يدخل
في أرض بوليفيا ثم يعود مرة أخرى إلى حدود الأرجنتين .

وكلما تقدم إلى الشمال كان الناس يدعونه إلى الطعام والشراب . وكل
واحد يفتح له بيته ليقضي الليل فيه . وفي كل مكان يجد أناسا فيه .. وفي
كل مكان يجد أناسا يرفضون ويأكلون ويشربون ويشدون إلى الحظ والطرب
قال له واحد منهم — يبدو أنه شيخ قبيلة — إلى أين يا صاحبي ؟ فقال :
إلى نيويورك وعاد الرجل يقول : وهل إذا أكلت ورقصت ونمت تختفي
نيويورك ؟ فأجاب : طبعا لا .. وعاد الرجل يقول : ولماذا وجدت فتاة
جميلة مثل هذه أكثر نعومة من الحرير ، وأدق من الشمس : وتعمل بالمرأس
ما يفعله بحر من النيذ ، وهي التي نتقدم إليك فهل ترفض ؟

وتقدمت الفتاة وتعلقت بهنق ايمى ، ونزل من فوق الحصان .. وظل
ينزل حتى طلع النهار وقد وجد رأسه عند قدميه .. وكانت ليلة لم يرمثلها في
هذه الرحلة . ونهض بسرعة ولم يجد الناس .. لقد تركوه نائما .. وذعب
كل منهم إلى عمله في الغابات أو في الحقول . وجمع حصانيه واستأنف
الرحلة ..

وفي الطريق وجد أناسا طبيين . إنهم يشربون لبن الماعز من الماعز
مباشرة ، ويأكلون اللحم الجاف .. ويقدمونه له طول الطريق .. وأمامه

بعد ذلك غابات وقنوات وأرض مزروعة وكان لا بد أن يحمل معه المزيد من الماء له ولحصانين . فهو يعلم أن الطريق بعد ذلك قاس : في غاية القسوة . ولن تكون هناك أمطار .. وإذا أسقطت السماء مطرا فعليه أن يصنع قرطاسا كبيرا وينام على ظهره لينزل المطر في القرطاس ويشرب .. وبعد ذلك عليه أن يملأ فيه بالماء ويقرضه في فم كل من الحصانين .. ونام كثيرا على الأرض وملأ فيه وارثوى وكذلك الحصانان وما يزال الطريق طويلا .

وعليه بعد ذلك أن يعبر جبال الأنديز .. وقد أشار عليه بعض الناس الطيبين بأن يختار طريقا ملتويا وقد نصحه بعض الخبراء بأنه من الأفضل أن يصعد هذه الطرق على قدميه لكي يريح حصانه . واقترح عليه بعض الخبراء البدائيين أن يمضي ليلة معهم يتفرج على ما يشبه السيرك . وفي السيرك تدور معارك . وتنتهى المعركة بأن يمثل واحد منهم دور القتال والآخر دور القتل . ولكن المنظر الذى أمامه كان لقاتل حقيق وقبيل حقيق . وتساقت القتل وغرق الناس في الدماء .. وتعلقت المشائى وطاشت السكاكين .. واقرعج ابمى . ولم يستطع أن يمشى على رجليه .. فركب أحد الحصانين .. واتجه إلى جبال الأنديز .. وبين الحين والحين ينحني على الحصان ويقبله قائلا : ان ميلك عجوز . فلتكن أكثر عقلا . والأرض التى أمامه عند سفوح الأنديز ملبنة بحقوله قصب السكر وعلى الجلود لا يوجد سوى حراسة عسكرية . ورجال فيهم غلظة وقسوة .. معذرون .. إنهم لا يرون الناس سوى اللصوص والهاربين .. ولكن بالقرب من نقط الجلود توجد حفلات رقص .. ثم توجد حلقات عديدة لأناس يتفرجون على مصارعة الديوك . وتوقف لبرى .. ولكن كان عليه ألا يستلم للتعب .. فأقضى جزء في رحلته هو منطقة جبال الأنديز . فالطرق جافة . وكل طريق يشرف على هاوية . والمجارى المائية جافة أيضا والأحجار يتوالى سقوطها باستمرار من أعالي الجبال . ويجب أن يتخفف من كثير من الأشياء التى لا ضرورة لها ..

هذه هي قاعة كل من يريد أن يصعد ، أن يكون خفيفا .. إن الطرق قاسية حتى على حوافر الخيل ، لابد أن يمشى على رجله ..

ومضى يوم ويوم . وجاء ليل . ونام في حضن أحد الخيول .. وألحى بارد إلى درجة الصفر . وامتدت يده إلى إحدى الزهور البرية . وتغذت أشواكها إلى يده فتزف الدم وتورمت بسرعة . وشعر بالآلام عذبة في ذراعه . ولكنه مضى في طريقه طالعا نازلا ملتويا معتدلا متبالكا . وعند أحد المنحنيات وجد قبيلة من الهنود الحمر . ونظروا إليه بعيون نافذة ، واقترب واحد منهم ودعاه لأن يعالجه وعندما نظر إلى يده التي تورمت قال : أنصحك أن تعود إلى بونس ايرس - أى إلى بداية الرحلة .

ولكن رجلا حكيم . قال : أنا أعالجك .

وجاء الرجل بإناء يغل . ووضع فيه بعض الأعشاب . ثم بعض المساحيق المخلوطة وظل الإناء يغل حتى تحول ما فيه إلى عجينة ذهبية اللون ووضعها على اليد المتورمة وبعد ساعات ذهب الورم . ولكن درجة حرارة اليد ما تزال مرتفعة . وعاد حكيم القبيلة يقدم له أعشابا أخرى .. وبات ليلته ثم مضى في رحلته من جديد ..

واقترح عليه الهنود الحمر أن يسلك طريقا آخر . أما هذا الطريق فقد وفر عليه مئات الأميال . وهذا الطريق يمر بجبل ارتفاعه ١١ ألف قدم . وقطعه في عدة أيام ولكن الدم كان يتزف من أنفه معظم الوقت . ولكن الحصانين كانا في صحة جيدة وفي غاية اللياقة البدنية والمعنوية أيضا . وكان هو أكثر حرصا على صحة الحصانين . وانتقل إلى بوليفيا .. وديانها جميلة .. وتوقف عند أول كوخ من الطين . كان بلا تهوية . ونام بعمق . ولكنه في الصباح صفا على دق الطبول العنيف . وعلى أصوات غريبة . إنه يوم القديس سان روكه راعي الكلاب . وفي هذا اليوم بمسك كل واحد بما

عنده من الكلاب ثم يطلقها . وفي هذا اليوم تتحرر الكلاب وتلهو وتلعب كما يحلو لها . وفي هذا اليوم أيضا تنور المراكز الشموية بين الكلاب . والناس يتفرجون وقد أنشبت واحد من هذه الكلاب أسنانه بسرج حصانه . فقد ظن أن الجلد الذي يغطي الحصان هو جلد كلب أخضر . ولكن و ايحي ، أنقذ الحصان في آخر لحظة . ومن الغريب أنهم في هذه المنطقة يأخذون الكلاب إلى الكنيسة ويدخلون بها . ويحيى القسيس ويباركها ويدعو الله أن يعيد هذا اليوم على الكلاب وأصحابها بالسلام والصحة .. وبعد ذلك تخرج الكلاب إلى الشوارع فلا يكون سلام ولا صحة . وإنما موت وضوضاء ومشاكل عائلية ولا يحسمها إلا كلاب العام القادم !

والنوى الطريق ودخل الغابات وهبط إلى الوديان وتسلى الجبال .. ثم تسلل إلى الحقول .. ولا تزال القرى صغيرة قديمة كما تركها الأسبان من مئات السنين . لم يتغير شيء . الأرض صغيرة والناس ظرفاء ورغم المرح على الأجساد ، فإن الوجوه حزينة .. لعلها متعبة من كثرة المرح . تماما كما يضحك الإنسان ولا يزال يضحك حتى يسقط ميتا ، فكثيرون يموتون من الضحك !

وجاءت مناطق المناجم .. مناجم الذهب .. في هذه المناطق أقام الأسبان طويلا . والطريق مليء بالحنود الحمر . وهي قبائل متوحشة . وقد حنروا الكثيرون . ولكن لابد أن يصل إلى نيويورك ومن ورائه حصانان .. أما قبائل إيمارا — من هذه القبائل جاء رجال ثلاثة وبنوا السفينة رع الثانية في ميناء صافي إيمراكش .

وفي الليل طارده رجل مخمور . ولا يعرف ماذا يريد . واختبأ منه في أحد الأقران الخامدة . وأمضى الليل كله عاجزا عن أن يفتح له ويسل .. أما الحصانان فقد أخفاهما في الحقول المجاورة . ولما طلع النهار وجد الرجل المخمور نائما بالقرب من الحصانين وقد ربطتهما في وسطه . وعندنا اقرب

« ايحي » من الحصانين ووجاه الرجل انزعيج . ولكن الرجل المغمور قال له :
لنما أردت أن أحرسك .. فالتاس هنا قد اتفقوا فيما بينهم على ألا يتعرضوا
لرجل مغمور معه سلاح .

ثم كشف عن صدره فوجد على صدر المغمور عشرات من الخناجر
ولم يفهم ايحي ما يقوله هذا الرجل .. وحاد المغمور يقول له : إني معجب
بهذا النوع من الحيول ولم أرها منذ عشرين عاما .. وفردت أن أهجر عروسي
هذه الليلة وأخونها مع أجمل مخلوقات الله !

وكانت هذه هي النكته الوحيدة التي أسعدت « ايحي » وجعلته يزداد
تعلقا بحصانيه ..

وكان عليه أن يدخل مدينة لا باز .. وفي هذه المدينة المتعددة الألوان ،
التقدم والبلديد ، اتجه إلى سفارة الأرجنتين وقدموا له طعاما وطنيا اسمه
(البيكانتة) و (السطبطة) .. وهي من لحم الديك الرومي أو الدجاج الذي
غرق في الشعلة .. ولم يكذب يضع قطعة في فمه حتى شعر أنها قطعة من النار !

ومر بمدينة ميواناكا .. ورأى شواطئ بحيرة تينكاكا .. وأمضى ليلة
في الرقص والشرب وهو طبعاً لم يعرف الأهمية التاريخية لهذا المكان .
ولما بعد ذلك بعشرات السنين اكتشف العلماء أن سكان الكواكب الأخرى
قد هبطوا إلى هذه المنطقة وإلى هذه البحيرة بالذات هبطت أول امرأة
من الفضاء الخارجي . ولم يعرف طبعاً أنه في هذه المدينة بوابة توجد
عليها نقوش لسفن فضاء هبطت من السماء من ثلاثين ألف سنة !

ومن جمهورية بوليفيا هذه اتجه إلى جمهورية بيرو . ولم يكن في حاجة
إلى وقت كبير ليعرف أنه يحتاج منطقة من النار . فالعلاقات متوترة بين
كل من بيرو وبوليفيا وشيلي .. وقد نظنوه أول الأمر من شيلي فكادوا
يقتلونه ولكن عندما رأوا الكلمات المطبوعة على مرج الحصان

تركوه في سلام .. فعلى سرج الحصان وجعلوا هذه العبارة : نعيش
الأرجنتين ..

وظلوا إليه أن يبقى معهم هذا العام ! ولما عرفوا هدفه ، التفتوا حوله
وأعطوه طعاما وزجاجات من الشراب . وبعضهم قدم إليه تعويذة تمنع
عنه الحسد وعين السوء وتحميه من المتوحشين في الشمال ..

واستسلم وأكل وشرب ونام واستراح حصاناه ..

وانشقت الأرض ووجد رجلا إنجليزيا من المهتمين بالآثار . ونحس
ليكمل الرحلة معه . ولكن عندما هاجمها الذباب يوما بعد يوم ، قرر
الإنجليزى أن يعود ، فحبه للآثار ليس أقوى من خوفه من الذباب والبموض.

وجاء موسم الأمطار . وكان عليه أن يتسلق الجبال .. فالأمطار أقل .
ولكن حذروه مرة أخرى من القبائل المتوحشة واستعان ببعض المرشدين
لأن المناطق وعرة ومن الممكن أن يقتل فيها أكثر الناس خبرة بالجبال ..
ففيها الكثير جدا من الطرق المتقاطعة ولا يعرف الإنسان أى هذه الطرق
بختار .

ووجد من المناسب أن يخلق لحية وشاربه . وضحك عندما تسأل -
ولكن لماذا ؟ وأجاب : إنما أردت أن أتخفف من هذه الأعباء الثقيلة فأنا
عاجز عن حمل الحصى والحصان عاجز عن حمل شاربي !

وفي هذه المناطق يتعاطى الناس الأفيون يمتنون . ويظل الليل في عيونهم
لا ينامون ولا يسهرون .. ولكنهم مفتوحو العيون ، ولا فرق ان كانوا
قد ناموا ونهضوا من فراشهم ، أو أنهم في طريقهم إلى الفراش !

وأحسن الطرق أمامه هو أن يتجه إلى الساحل قريبا من جمهورية
اكوادور . الطريق رملي صراوى . والأنهار متدفقة سريعة تحفة . وهو

يحمل معه زجاجتين من الكونياك وعصير الليمون . وقد أضاف إلى عصير الليمون بعض الملح .

وقد أضيف إلى الطريق الممل عمل شيء آخر وهو الطعام — كله أرز مسلوق وفول مسلوق وموز مشوي وبيض وقهوة .

وبعد ذلك يجب أن يعبر صحراء اسمها ماناكابلو — ومعناها مقبرة الخيول . الصحراء طولها مائة ميل . واختار أن يعبرها ليلا . أي بدأ رحلته مع الغروب . وفي النهار يجب أن يأوى إلى الأشجار يغطيها بما معه من قماش هو والحصانان في الظل المذهب .

وبعد أن عبر الصحراء وجد طفلا صغيرا ، وسأله الطفل إن كان في استطاعته أن يسافر معه . فوافق واشترى له بغلا صغيرا . ومضى ابني والطفل وحصانان وبغل . قافلة . وعندما بلغوا خط الاستواء قرر أن يحتفل بهذا اليوم السعيد . فقد اتجه إلى النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، واتجه بعد ذلك إلى كولومبيا .. أنها أرض البراكين والزلازل التي تركت آثارها في قشرة الأرض المحترقة المحطمة . الجحور نار . والروائح غريبة وكريهة . وكل شيء قذر . والأكوخ من طين والناس كأنهم طين محروق . والطعام قذر .. وكل شيء بغريه بأن يهرب وهو يريد ذلك ولكنه لا يستطيع بهذه السرعة .

وركب هو والحصانان والطفل والبغل بعض السفن ليعبروا هذه المستنقعات المخيفة . وظلوا كذلك ثلاثة أيام . وعندما رست السفن عند مدينة كولون كان الطفل قد أصابته الملاريا . وتركه وراءه في أحد المستنقعات . واتجه بعد ذلك إلى بناما . وبقي فيها يومين وفي هذه المدينة أصيب أحد الحصانين بحرج في ساقه . فتركه إلى أن يتم شفاؤه على أن ينقل بعد ذلك بحرا إلى كوستاريكا .

أما بقية الرحلة فهي أشق من الأيام الأولى . فكلما تقدم في سيره اصطدم بالحدود والمشاكل الوطنية والمعارك بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأمراض .. ونقل حصانه في سفينة .. ثم عاد والتقى الحصانان . وانجهوا جميعا إلى مدينة نيو مكسيكو .. وكان قد شعر بالخوف لأول مرة .. سمع عن الدماء والخطف والسطو .. وعن رجل مغامر مثله قد ربطوه في حصانه وأطلقوا الكلاب على الحصان .. وبعد مائة متر أطلقوا النار على الحصان .. ولم يكن هناك سبب واضح .. ففي هذه المناطق لا يجد الغريب سببا واضحا لأي شيء .. أنهم لا يدعونه يكمل رحلته .. حتى يكون الحكم قد صدر عليه أو صدر له .. فإذا هو ضيف عليهم ، أو ضيف على الشهداء ..

ونقل حصانيه في القطار ..

وركب هو أحد الزوارق ، ثم التقوا جميعا وعبروا نهر ديو جراند ، بولاية تكساس .. والطرق كلها مرصوفة . والقنادق متوافرة والماء العذب والعشب والطعام والعلاج ..

وكان لابد أن يصل ايمى تشيفلى إلى مدينة نيويورك بحصانيه ..

ودخل إلى نيويورك وانتهت رحلة العشرة آلاف ميل .. وتمدد ايمى تشيفلى في فراشه ونظر إلى السقف وهو يقول : مجنون هذا الرجل ثم أشار بيده إلى صدره وراح يضحك .

ودق الباب . وافتتح . وإذا به يجد طفلا راكبا بغلا . انه نفس الطفل الذى تركه مريضا بالملايا . لقد شفى تماما . والتقى بالطفل رجل من أبناء نيويورك قرر أن يعلم شيئا عن رحلة ايمى تشيفلى فحرف مكانه . وجاء بالطفل والبغل . واحتفلت نيويورك برجل قرر أن من الممكن أن يكون الإنسان قادرا على أن يتخذ قرارا خاصا ويتخذ وحده .. وأثبتت

هذه الرحلة أن الأطفال الذين لا يعرفون الحوادث المثيرة في حياتهم هم أشد
الأطفال ميلا إلى الأطفال المثيرة . . وأن الخيول أكثر احتمالا من الإنسان
وأن نجاح حصانين يؤدي إلى ارتفاع سعر الخيول . . لذلك استحق (ابجي)
عشرة دولارات عن كل كيلو متر قطعها إلى نيويورك . . أما هذه
الدولارات فقد جاءته من صاحب أكبر حظيرة للخيول في الأرجنتين . .
مكافأة على شجاعة الجميع !

لا تفتحى قلبك
أيتها الشقراء ..
لأننى سأعظمه !

الناس يفضلون الاكتفوية العملية على الحقيقة المكتوبة .. يستريحون إلى النكتة أكثر من معادتهم يجنول الضرب .. مثلاً هو أول من وصل إلى قمة جبل « مون بلان » بسويسرا .. التاريخ الطريف يقول : انه رجل اسمه بالما . وكان ذلك يوم ٨ أغسطس سنة ١٧٨٦ . فهذا الرجل بالما . ابن نكتة . وقادر على أن يروي الحكاية الواحدة عشرين مرة بأشكال مختلفة . ويجب على الناس أن يستمعوا إليه . ولما سئل عن سر هذه الندرة العجيبة . قال : السبب بسيط .. فأنا أرويها لنفسى أربعين مرة قبل ذلك ! .

أما كيف نلتق بالما هذا ، جبال الألب ليصل إلى قمة « مون بلان » ، فيرجع ذلك إلى أنه عرف طبيياً اسمه الدكتور باككار ، وقد اختاره الدكتور باككار مساعداً له .. أو بمباراة أدق « شبالا » لأمتعته وهو في طريقه الصعب إلى جبال الألب .. لأول مرة في التاريخ ..

وكان يقول هذا المشروع أستاذ جامعي من الأغنياء ومن الضروري أن نعرف اسم الأستاذ الجامعي أنه : هوارمي دوسوسير ، وهو من علماء الجغرافيا ومن أشد الناس اهتماماً بالجبال والصخور وتاريخها ، وهو نفسه قد حاول تسلق جبال الألب تسع مرات ، وفي جميع المرات يعود معه عينات من الصخور ، وقد وعد هذا الأستاذ الجامعي بجائزة مالية لمن يصعد جبال الألب .

وكان القى بالما - ٢٥ سنة في ذلك الوقت - يعرف أن هناك جائزة مالية .

وفي إحدى الليالي كان بالما يتام في فراشه ، وفي الليل صرخ صرخة
أزعجت زوجته فصاحت تقول له : كدت تقطع أذني !

وجلس في فراشه ليقول لها أنه كان يحلم بأنه اقرب من قمة جبال الألب
وعندما أمسك بإحدى الصخور هوت إلى إحدى الثلاث الشاسعة .
ولكن زوجته لم تسترح إلى هذا العذر الضعيف . وإنما قالت له : اعرف
أنك كذاب .. وأنها محاولة من رجل غمور ليقضي على زوجته عضوا
عضوا ! ..

ونفض بالما من فراشه : وجمع ملابسه وأخرج عصاه من تحت السرير
ثم ملأ جيوبه بالحطب وحمل معه زجاجة من البراندي . ووقف على عتبة
الغرفة وقال لزوجته : إذا لم أعد غدا أو بعد غدا فانا هناك في قمة جبال
الألب !

وأقبل الباب : وقامت الزوجة .. وقد اعتاد بالما على مضربة الناس منه ..
فكانوا إذا قابلوه في الطريق راحوا يرمونه بما في أيديهم ، وكان يقول بصوت
مرتفع : تشجع يا ولد : اعقل يا ولد . كن رزينا أيها الولد !
وعندما سأله الناس : ومن هو الولد ؟ ..

يجيب بسرعة : لا تتخذوا في مظهري .. ففي داخلي ولد .. طفل ..
لو تركته على راحته لاختفى على الأرض وقيل أقدامكم جميعا ! ..

ولابد أن هذا الشاب المضحك المسلي الغريب الأطوار قد لفت عين
الدكتور باكار ، ومن أجل ذلك اختاره رفيقا للطريق ، وأي طريق ! ..

وكان على الدكتور باكار أن يختار بالمضبط الطريق الذي سوف يسلكه
إلى قمة مون بلان ، أما الطريق فقد درسه سنوات طويلة .. وقام بعدة محاولات
تجريبية ورسم كل الصخور البارزة ، وحدد أماكن الأشجار ، والمنحدرات

والثلاجات والأشجار الجليدية ، ان منظر الجبل لا يغيب عن عينيه قليلا ونهارا :
وقد حسب كل شيء بدقة شديدة : ولم يبق أمامه إلا أن يصعد وأن يستعين
بأحد ووجد هذا البهلوان بالما مساعدا له .

وعندما بلغ بالما السبعين من عمره روى قصة صعوده جبال الألب للأديب
الكبير الكسندر ديماس ، ورواها ديماس بعبارته الجميلة للعالم ، وكان ديماس
هو السبب الحقيقي في انتشار هذه النجسة وفي دخول بالما التاريخ راکبا قلما
جميلا رشيقا : وما قال بالما للأديب ديماس أنه بلغ قمة مون بلان عندما
كان في الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يشأ أن يذكر أن زميله في الرحلة
هو الطبيب باكار الذي كان في الثلاثين : ووصف نفسه لديماس فقال :
كانت حيويتي خارقة وشجاعتي نادرة .. واحتمالي للجوع مضرب الأمثال
لقد أمضيت أياما كاملة أنتفس فقط . فإذا أحسست بالعطش الشديد مددت
يدي إلى الجليد أكله .. أي ارتوى به وأنفذى عليه .

وقال له : وعندما صعدت وصعدت .. ونظرت إلى قمة مون بلان ..
صرخت بأعلى صوفي .. أيتها الشفراء إنني فداؤك .. شهيدك .. أيتها الشفراء
لا تبعدي عني .. ومهما ابتعدت فأنا وراءك مهما طال الزمن .. لا تفنحي
قلبك .. أرجوك .. دعيني أحطمه .. أنا رجلك الأول وعاشقك الآخر ! ..

هكذا جاء على قلم الكسندر ديماس ثم أنه عرض الأمر على الطبيب
باكار وتردد بأكثر أول الأمر ولكنه هو وحده الذي شجعه .. وقال له
لا تخف .. وقال باكار : وكيف أخاف وأنت معي ، إن انسانا يمشي إلى
جوارك لا يقع ، انه يمشي إلى جوار جبل .. وان بدا تعتمد على كتفك .
لبد تعتمد على أكبر أشجار الصنوبر .. أنا معك حتى الموت .. ولن نموت
إلا عند القمة ! ..

وقال باكار أيضا : معك يتحول الجليد إلى ماء ، والماء إلى بخار :
والبخار إلى سحاب .. وأنت قبر التسور نظير معا إلى القمة ! .

وهنا قال بالما : إذن .. لقد حانت لحظة المجد لنا ! ..

وفي الساعة الثانية من مساء يوم ٧ أغسطس اتجه الاثنان إلى الجبل ،
الطريق معروف في أوله ولكنه مجهول بعد ذلك : الخريطة أمامهما ، والمشجاعة
سلاحهما ، وفي اليوم الأول تاما في ساعة مبكرة في حصن أحدي الصخور ..
وفي ساعة مبكرة من الصباح عادا إلى التسلق من جديد .. ولا شيء جديدا
قد رأياه في ذلك اليوم .. فالواديان مدروسة .. والمتحدرات مرسومة ..
والغابات معروفة ولكن الطرق ملتوية حادة إلى القمة ، ما تزال مخفية ،
وكان على بالما أن يلتفت إلى باكار كلما تناف ، وأن يعطيه نصيبه من
البراندي ومن الطعام ومن النصائح ومن التكتيك ، وفي إحدى المرات كان
يسقط باكار من الضحك .. فأدركه بالما بعبارة مؤلمة أوقفت باكار على قدمين
من الندم ! ..

وكلما ارتفع الاثنان أحسا بضيق في التنفس .. فالهواء خفيف ، والبرد
لا يمكن أن يوصف يمكن أن يقال أنه يقرص .. أو يلدغ .. أو ينهش ..
انه ملايين الأبر في كل خلايا الجسم .. وقال للأديب الكسندر ديماس :
انه خطر له أن ينظر إلى الوداء .. ليرى أين هو من الودادى .. وكاد لشدة
ارتفاعه أن يسقط ، ولكنه عاد وجمع قواه واتجه إلى الأمام فما تزال الحبيبية
الشفراء بعيدة عن يديه .. انها تملأ عينيه ولكن ما أبعد المسافة بين يديه
وعينيه ..

وجاء الليل وتعب الدكتور باكار .. وسقط إلى جوار إحدى الصخور ،
وراح زميله البهلوان بذلك يديه .. ورجليه : وإن كان هو أيضا يشعر بأن
يديه قد انقطع صلتها به .. واضطر إلى ترك زميله الطيب بعض الوقت
ومضى يسعى إلى القمة .. ثم عاد ونام إلى جواره حتى الصباح .. وفي شعاعات
الفجر ، ترك صديقه المرهق المكدود .. ومضى إلى حبيته الشفراء .. ولم
تطاوله أن يقترب من القمة وحده .. فعاد إلى زميله الطيب ودفعه بقوة ،

وسحبها إلى المشوفة الشفراء .. ووقف الاثنان أمام قبة مون بلان التي تبعد مسافة ٣٨ كيلو مترا مربعا وعلى ارتفاع ١٥,٧٧١ قدما ، هذه إذن هي قبة أوروبا .. ووقف الاثنان ساعة .. ثم ساعة ، وقررا العودة بسرعة . فلم يبق أمامهما سوى ساعتين وبعدهما تغيب الشمس وبدأ القبر الأبيض الجليد الذي هو كفن لكل حياة إنسانية وغير إنسانية ..

ولكن شيئا واحدا أفرغ الإثنين ، لقد أصيب الدكتور باكارد بما يشبه العمى : فقد قال لزميله : غريب إننى أسمع زقزقة العصافير ولكن لا أرى النهار ١ ..

ووقف بالما .. وزال ذرات الجليد من فوق جفن الطيب وراح بذلك عينيه حتى تمكن من الرؤية .. ثم سحب إلى السطح .. إلى بطن الوادى .. وذهب كل منهما إلى بيته دون أن يصافح أحدهما الآخر ، واكتفيا بهذه المرحلة الصاعدة المسببة الآلية .. بعد أن شهدا جبال الألب على هذه الشجاعة النادرة ، أما بالما فقدق الباب .. وفتحت الزوجة ، وانجه إلى المرأة .. وجد العينين حمراوين والوجه أسود ، والشفتين زرقاوين ، وعندما حاول أن يصحك على نفسه تمزقت الشفتان الجامدتان ونزف منهما الدم ، ولما التفت إلى زوجته وجدها قد عادت إلى الفراش .. ولما أطلال النظر إليها وجدها قد غطت أذنيها ووجهها كاملا فعرف أنها تخشى أن يتمدد إلى جوارها وأن يعاود الإمساك بأذنيها أو أنفها ولم تعرف ما الذى فعله الزوج عندما غاب عنها ليلة .. كل ما تعرفه دون أن تنظر إلى وجهه انه كان مخمورا طول الليل .. ولابد أنه سقط فى الطريق وظل نائما حتى الصباح وغطاه الجليد ولم يتقدم أحد عقوبة له وانتقاما لزوجته ! ..

وأطلق على نفسه ملك الجبل ، وبطل القصة الشفراء ، وفاز بالجائزة ، وبعث إليه ملك جزيرة سردينيا بجائزة أخرى ، وأعطاه أحد النبلاء الألمان معاشا سنويا ! ..

انتهت قصة هذا الشاب بالما والتي رواها في أجمل وأرق عبارة أديب
فرنسا الكسندر دumas . . .

ولكن صحيفة لوزان ، السويسرية أعادت نشر القصة الحقيقية ،
وقالت أن هذا الرجل بالما عندما روى قصته هذه كان في السبعين من
عمره أى بعد حنوطها بنفس وأربعين سنة . . . ولا بد أنه أضاف من عنده
الكثير ، ولا بد أن الأديب قد صاغ كل هذه التفاصيل في صورة روائية
جميلة ، والأديب هو المشوول وحده عن بقاء هذه القصة السلبية المؤثرة . .

ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد عثرت « صحيفة لوزان » على وثيقة
تركها الدكتور باكار وعليها امضاء بالما هذا يعترف فيها بالما بأن الدكتور كان
مساعد له . . . وأن الدكتور باكار هو الذى رسم الخرائط ، وأنه هو الذى
عابله عندما سقط جثة هامدة قبل قفة مون بلان ، وأن الدكتور باكار
وجد أنه ليس من الشهامة ولا من الرجولة أن يصل إلى قفة مون بلان
وحده . . . وتبدأ هذه الوثيقة بعبارة تقول : اقر أنا « بالما » واعترف
بمنتهى الأمانة والصدق وبكامل قواى العقلية أن . . . الخ . . .

أما تاريخ هذه الوثيقة فيرجع إلى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٧٨٧ أى بعد
صعود الجبل ثمانية وعشرين يوما ، ولسبب غير معروف ، نواري الدكتور
باكار . . . ربما كان مريضا ، ربما ذهب لزيارة بعض أقاربه في ألمانيا . .
ولكنه وعد بأن يؤلف كتابا عن هذه المقامرة وقال بعض أصدقائه أنه
قرأ لهم صفحات من هذا الكتاب الذى عنوانه « التفاصيل الكاملة لتساق
أعلى جبال أوروبا » ، ولكن أحدا لا يعرف أين هذا الكتاب ، وقد أعلنت
للصحيفة السويسرية عن جائزة مالية لمن يعثر عليه . . .

ومات باكار هذا قبل أن ينشر الكسندر دumas قصته عن قفة مون بلان
والتفت الناس إلى اللوحة الفنية التى رسمها الأديب الفرنسى — وهذا طبعى —
ولم يلتفتوا إلى هذه الوثيقة القانونية الجافة . . .

ولكن من المؤكد أن الاثنين قد صعدا الجبل . وبلغا قمة مون بلان ،
وانهما صيفا عصرهما بسبعين عاما ، وبعد ذلك أصبح تعلق الجبال رياضة
ممتعة ، وأصبح الناس يعدون لها جميع وسائل الأمن والعلاج والطعام
والشراب والملاهي .

أما الرجل نفسه دوسمير الذي رصد لما الجائزة فقد نزل جبال الألب
وبلغ قمة مون بلان في نفس السنة . .

والذين يزورون الآن مدينة شامونيكس يجدون تماثيل لرجلين هما
بالما وهذا الرجل دوسمير . .

أما الطبيب باكار فقد توارى عن الأضواء ، واختار أن يكون هو الشاهد
الوحيد على صعوده جبال الألب ، وأن يكتب برأيه النفسية ، فقد بلغ
القمة وهو على يقين من ذلك . . ولا يهم إذا كان العالم لا يصدق ، أو إذا
صدق ولم يتم له تماثلا . . فهو عندما بلغ قمة الجبل ، وقف جامدا ساعتين
بلا حركة . . كأنه أراد أن يعمل من نفسه تماثلا في أعلى مكان ، لأن أحدا
لم يفعل له ذلك عندما بهبط إلى السفح . وقد صدقت هذه النبوءة وظلمه
الأدب ، وانصفه التاريخ وانكرته حجارة التماثيل ! . .

ظهوره

إلى حائط الصدين

يتفلسف

أما الذي أسند ظهره فهو أديب إيطالي كبير البرنو مورافيا . وحافظ الصين ليس سورا من الحجارة القديمة . ولكنه حالة عقلية قديمة . فهو شعور بالعزلة أو بضرورتها . هذا الشعور نجبر على مدى العصور ولكن الصين استطاعت أن تحبس نفسها وأنفاسها وراء هذا السور لتكون ماردا مخيفا لكل من حولها ، عددها هائل ٨٠٠ مليون نسمة . وأسلوبها في الحياة والفكر مثنى . والكل يلتزمون به ويعرضون عليه . وهي « الإضافة » المؤكدة لكل ما طرأ على الفكر الأستراتيجي في الخمسين عاما الماضية .

والبرنو مورافيا قد زار الصين مرتين في ثلاثين عاما . وآخر رحلاته كانت سنة ١٩٦٧ . وقد سجل رحلته في كتاب له عنوان « الثورة الثقافية في الصين » . والكتاب رحلة عقلية ونفسية وأدبية وفلسفية . والكتاب منعة مؤكدة . وكثيرا ما أقلب في الكتاب لإعادة قراءة صفحاته وكثيرا ما تمحيت أن أقفل الكتاب ولا أعيد قراءة صفحاته فقد جاء الظلم في عبارة فنية جميلة . . ولكنه على كل حال ظلم لأكبر تجربة عرفها التاريخ . .

والفصل الأول من الكتاب على شكل حوار . . بين مورافيا وأديب آخر صيني . . أو بينه وبين نفسه . . وهو يحاول أن يفهم وأن يوضح نفسه للقارئ . . مستخدما مشروط الطبيب أو سكين القرصان . . ولكنه في جميع الأحوال فنان مجتهد . .

سؤال : كنت في الصين ؟

جواب : نعم .

سؤال : بما الذى أثر فيك أكثر من أى شئ آخر ؟

جواب : الفقر !

سؤال : تقول الفقر . . فقط الفقر ؟ !

جواب : نعم . الفقر .

سؤال : وهل فى الصين فقراء ؟

جواب : بمقاييسنا فى الغرب . . نعم كل أهلها من الفقراء .

سؤال : وما أثر هذا الفقر فيك ؟

جواب : شعرت بالارتياح !

سؤال : غريب أن تشعر بالارتياح إذا رأيت هذا العدد الهائل من

الفقراء . فالفقر محتاه الحوان والتمسك . . ومع ذلك تقول أنك شعرت

بالارتياح ؟

جواب : هذا ما أحسنت به . وأنا على يقين مما أقول . والإنسان لا يمكن

أن يحظى فى مشاعره . وهذا بالضبط ما أحسنت به طول الوقت فى الصين .

وتسألنى كيف أحسنت بذلك فأقول لك لا أعرف . ولكن سأحاول أن

أجيب على هذا السؤال .

سؤال : فى الغرب لا يمكن أن يكون فقط الفقر يوحى بالارتياح . .

أنه يوحى بالفقر وإرادة الفرد . أنظر إلى الزوج فى أمريكا مثلاً ، أنهم

يشعلون النار فى الأزقة التى يعيشون فيها .

جواب : فى أمريكا هناك فقراء وهناك أغنياء . والفقراء فقراء ،

لأن هناك أغنياء . والأغنياء لأن هناك فقراء . ولكن فى الصين لا يوجد

الا فقراء فقط . هل فهمت ؟

سؤال : فهمت ، وكان من الواجب أن أدرك ذلك . . ولكن الانوجد
لم في الصين صفات أخرى ؟

جواب : فعلا وصفهم بالفقر هذا وصف غير دقيق .

سؤال : بماذا تصفهم إذن ؟

جواب : لا توجد عندي الآن كلمة مناسبة . . فليس من السهل أن
أصف الفقر وحده دون أن أصف الغنى . . أو دون أن أقارن بين الاثنين معا . .

سؤال : ولكن أريد أن أعرف منك حقيقة ما هي هذه الصفحات التي
ينفرد بها الفقر الصيني دون بقية القراء في العالم ؟

جواب : يمكن أن تصفهم بأنهم فقراء بلا ثراء . أي أن الفقر هو الحالة
العادية للإنسان .

سؤال : ليس هذا المعنى واضحاً لأنني أرى فيه شيئاً من التجني . .
فأرجو أن توضح لي أكثر ؟

جواب : أن المسألة سهلة جداً . كل إنسان يولد فقيراً معتمداً من كل شيء .
أو بعبارة أخرى : أن الإنسان عندما يولد فإنه لا يختلف كثيراً عن الحيوان .
لأن الإنسان غالباً يشبه كل الحيوانات الأخرى . . وكثيراً ما أندهش الإنسان
عندما ينظر إلى حياته فيقول : هل هذه الحياة تساوي كل هذا العناء والعذاب
هل تساوي هذا الجهد الهائل الذي تبذله ؟ ولكني يكون الإنسان انساناً
فهو فقير . فالإنسان فقير . لا أكثر ولا أقل . ومن ذلك لا يوجد إلا الثراء .
فالفقر هو الحالة العادية لأي إنسان . أما الثراء فهو الترف . . فهو كل شيء
« زيادة عن المطلوب » . . « زيادة عن الضروري » !

سؤال : هل أفهم من ذلك أن الثراء يجعل من الإنسان كائنات غير عادي . .
إنساناً غير طبيعي ؟

جواب : غير عادى أن يكون الإنسان غنيا .

سؤال : ما الذى تقصده بقولك : غير عادى ؟ أو بعبارة أخرى متى يذهب الإنسان إلى ما هو غير عادى . . متى يتجاوز الإنسان ما هو ضرورى وما هو لازم . . أى كيف ينتقل الإنسان إلى ما ليس إنسانيا ؟

جواب : نعود مرة أخرى إلى الصين فالرجل الصينى كما نراه فى الشوارع يملك كل ما ليس ضروريا . على الأقل الآن . أنهم فقراء . كما قلت لا أحد يشك فى أن إنسانيتهم كاملة . ولكن هذه الإنسانية ينقصها شئ ينجي عن طريق الثراء . أى أن هذه الإنسانية فى حاجة إلى ما ليست فى حاجة إليه . . أى من الضرورى لها أن يضاف إليها شئ غير ضرورى . . غير لازم . غير حيوى . فهم فقراء يعيشون على ضرورات الحياة . وقد زرت الصين منذ ثلاثين عاما . كان فيها فقراء يعيشون على الكفاف أو لا يكادون وكان فيها أغنياء . وكان الفقراء فى هوان . وكان الأغنياء بلا إنسانية ! وعندما اختفى الأغنياء ، أحسن الفقراء بأنهم بشر . ذهب الأغنياء ، فعدت كرامة الفقراء . . اختفى الناس غير الطيبين ، وبقي الطيبون .

سؤال : هل أفهم من كلامك أن الرخاء أو الوفرة هى مصدر السعادة فى هذه الدنيا . . هذا إذا كنت قد فهمت تماما كلامك ؟

جواب : لا توجد وفرة فى هذا العالم يوجد إنتاج فقط . والإنتاج لا يوصف بأنه يبعث على المرح أو على السعادة . ولا يوصف حتى بأنه جيوى .

سؤال : هل أعرف منك ما هو الفرق بين الوفرة وبين الإنتاج ؟

جواب : الوفرة صفة من صفات الطبيعة والوفرة لا تكلف الإنسان عملا أو مالا أو وقتا . وليس المقصود منها هو الاستهلاك . وإنما الحياة فقط . أما الإنتاج فيحتاج إلى عقل ووقت ومال ولذلك فلا يمكن أن يكون الإنتاج

واغرا أو وفيرا . فالإنتاج متكرر . لأنه إنتاج شيء واحد للملايين المستهلكين ؟

سؤال : إذن أنت ترى أن إنتاج ما لا يحتاجه الإنسان هو شيء غير أساسي . ولكن من القدي يقرر ذلك . . من الذي يقرر ما يحتاجه الإنسان وما لا يحتاجه ؟

جواب : الإنسان نفسه أو غطة الإنسان !

سؤال : لقد كانت في التاريخ فترات طويلة اضطرب فيها الإنسان ، لكي يؤكد إنسانيته أن يملك وأن يعمل ما ليس ضروريا ، ما رأيك في عصر النهضة في أوروبا ؟

جواب : هذه الفترات من التاريخ لا تنهي . لا تنهي مطلقا . وإنما يهمني العصر الحاضر .

سؤال : إذن لتتكلم عن العصر الحاضر . . من الذي يقرر ما هو ضروري للإنسان ، وما هو إنساني ، وما هو عادي طبيعي ، وما ليس عاديا ولا طبيعيا وابن يبدأ وابن ينهي ؟

جواب : قلت لك انه الإنسان وحده القدي يقرر ذلك . يحسن إدراكه الأمور .

سؤال : ألا ترى أن إيمانك بحسن الإدراك فيه اسراف . . أو ألا ترى أن إيمانك بحسن إدراك الإنسان للأمور فيه حسن ظن هائل بالإنسان نفسه ؟

جواب : نعم . أنني أؤمن بحسن ادراك الناس العاديين لكل ما هو عادي إنهم ليسوا في حاجة إلى ذكاء بخارفي لكي يناقش الإنسان مسائل الجوع أو الشبع أو الضياع لنفسه أو المرح أو الملل . . الخ . . وسوف يحني يوم يشعر فيه الإنسان العادي بالملل من أنه ليس إنسانا . وسوف يحني وقت يشعر فيه الإنسان الغني بأن ثروته هذه قد جعلته مجردا من الإنسانية . . وسوف

ينخلص الأغنياء من ثرواتهم . حتى لو كان هناك فلاسفة وحكماء يؤكدون لهم أنهم على خطأ .

سؤال : ولكن قل لي ما الذي يفعله حسن الإدراك في مواجهة الثراء ؟

جواب : في مواجهة الثراء سوف يتصرف العقل لا اراديا . فإذا وصل الإنسان إلى قمة الثراء أصبح لا إنسانيا ، بل أنه يحتاج بل ويريد أن يكون فقيرا — أن قمة الثراء مثل قاع الفقر !

سؤال : نقول أن الغنى سوف يتصرف من تلقاء نفسه ؟ ألا ترى أن هذا أمر صعب ؟ وأنه إذا حدث فسوف يستغرق وقتا طويلا مضنيا ؟

جواب : نعم . لأن الإنسان بطيء بطبيعته .

سؤال : وما الذي يفعله الإنسان الغنى لكي يكون إنسانا فقيرا ؟

جواب : لا يفعل أي شيء !

سؤال : كيف ؟

جواب : لن يستهلك وعلى ذلك قلن ينتج ما هو زائد عن حاجته !

سؤال : ولكن الإنسان يجب أن ينتج وأن يستهلك ما أنتجه ! ألا ترى ذلك ؟

جواب : أي إنسان هذا الذي نتحدث عنه ؟

سؤال : أي إنسان . . ألا ترى أن الإنسان عموما لا يفعل أكثر من ذلك ؟

جواب : أنا لا أعرف شيئا عن الإنسان عموما . ولكن الإنسان اليوم

. نعم اليوم — هو الذي يجب أن ينتج ويجب أن يستهلك . ولكن الإنسان غدا — نعم غدا — ربما كان مختلفا تماما عن إنسان اليوم وإنسان الأمس .

سؤال : لكن واقعين . لننتحدث عن الثراء الحقيقي وعن الفقر .

هل في استطاعتك أن تدلني بوضوح أين يوجد الفقر في هذه الدنيا ؟

جواب : في الصين . ولكن لا يوجد أي شيء يدل على أن الصين
— جنة الفقراء — سوف تبقى على ما هي عليه إلى الأبد . لابد أن تتغير .
لأن يكون القدر كاليوم . ولكن جنة الفقراء هذه لكي تظل كما هي : يجب
أن يكون لها وجود مستمر . . وجود لا يتغير . .

سؤال : وأين يوجد هذا الثراء اللا إنساني ؟

جواب : في الغرب طبعاً .

سؤال : إذن نتحدث عن الصين . لنفرض أن هذه اللجنة أصبحت دائمة .
أي تحولت إلى حقيقة مستمرة . كيف يحقق أهل الصين هذه النتيجة . .
أي هذا الاستمرار ؟

جواب : بأن يفعلوا بالضغط ما يفعلونه الآن .

سؤال : ولكنك تعرف جيداً أن الصين تريد أن تتحول من دولة
زراعية إلى دولة صناعية ومعنى ذلك أن فقرهم ليس إلا نتيجة لاستغلال
رأس المال من أجل تحقيق الثورة الصناعية .

جواب : أعرف ذلك . وأعرف أنهم يفعلون الآن ما فعله الروس من
أربعين سنة ، وما فعله الغرب من مائة سنة .

سؤال : ولنفرض أن الثورة الصناعية تحققت وتراكمت الأرباح
وأصبحت حاجتهم إلى الاستثمار أقل مما الذي تفعله الصين برأس المال
الذي سوف يتركهم باستمرار ؟ يجب أن يرفعوا الأجور : وأد ينشئوا
صناعات خفيفة : لكي تنوع هذه الأجزاء — وعلى ذلك سوف تصبح
الصين دولة كأي دولة أخرى . دولة غنية . ألا ترى ذلك ؟

جواب : هذا صحيح ولكنك نسيت أننا نتحدث عن اللجنة . ففي الصين
جنة . . دولة مثالية . . أنهم يحاولون أن يجعلوا من اللجنة تاريخاً . . والدولة
المثالية تؤدي إلى حلول مثالية . .

سؤال : هل تدلني على هذه الحلول المثالية . ما هي هذه الحلول المثالية ، لكي أظل فقيرا ، حتى لو كنت غنيا ؟

جواب : الجنة أو الدولة المثالية يجب أن تكون في ضمير كل إنسان . أو يجب أن تكون ضميره . فإذا وجد هذا الضمير ، فإن الحل سوف يكون معناه : إذا أصبح الإنسان غنيا فهذه خطيئة . وجريمة . وسوف يشعر بأنه مخطئ إذا أصبح غنيا .

سؤال : أعرف أن الديانة المسيحية قد فعلت ذلك في العالم ، دون أن تصل إلى نتائج مشجعة ! فما رأيك ؟

جواب : على الرغم من أن المسيحية لبضعة قرون ، حاولت نشر الفقر على أنه حالة مثالية للإنسان . ولكن لو حدث ذلك لكان معجزة . ولكن المهم هو أن تصور الفقر على أنه الحالة الوحيدة للإنسان .

سؤال : لا أفهم بالضبط ما تقول ؟

جواب : في هذا العصر شعوب غنية جدا : وسوف تشعر بالملل من هذا الثراء وتتمنى أن تكون فقيرة لأنها تعبت من الثراء .

سؤال : أن ثلثي العالم لا يجدون الكفاف ! فماذا يحدث لو كره الأغنياء فلوسهم وتمنوا لو أصبحوا فقراء ؟

جواب : فكرت في ذلك . هل سمعت عن الفراعنة .

سؤال : وما دخل الفراعنة في هذا كله ؟

جواب : ألم تسأل نفسك لماذا أقاموا هذه الأهرامات الهائلة وإلى كلفهم الكثير من العمل والمساك .

سؤال : لا أعرف . قل لي أنت ؟

جواب : لأنه ، في رأيي ، من الضروري أن يكون لدى الإنسان ما هو ضروري . وما زاد عن ذلك يجب أن يحطمه . فالأهرامات في زمن السلم مثل الجيوش في زمن الحرب . . أنه شيء يفعله الإنسان لكي يقضي على الثراء ويجعل الإنسان فقيراً .

سؤال : ولكن أين هي أهرامات العصر الحديث ؟

جواب : أنها تلك المشاريع العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر . . أنها كل الرحلات الفضائية . فهذه المشروعات العالمية . تسهل الكثير من المال والرجال والتعب . أنها بالضبط أهرامات القراعنة . ثم أن الأهرامات لم تكن نزوة من نزوات الملوك الآلهة ، أمها رمز الحضارة الفرعونية . وكذلك الرحلات بين الكواكب ليست نزوة أنها من أهم معالم الحضارة وجوهر التنافس بين الدول العنية الكبيرة .

سؤال : معنى ذلك أن الولايات المتحدة بنى أهرامات كثيرة . . فهي تشن الحروب وتطلق سفن الفضاء وما تزال غنية ؟

جواب : أمريكا غنية مؤقتاً . كما أن الصين فقيرة مؤقتاً . ان الصين الآن جنة الفقراء ، وهذا غير طبيعي وغير إنساني .

سؤال : تقصد أمريكا أو الغرب كله ؟

جواب : أمريكا كنموذج للغرب كله !

سؤال : ألا ترى أن الغرب سوف يكون غنيا دائماً ؟

جواب : لا أرى ذلك طبعاً . أن الغرب يتحل بالضبط ما سوف يجعله فقيراً . لكن دعنا من المستقبل ولننظر إلى الحاضر . ولننساءل لماذا الثراء لا إنساني وغير طبيعي .

سؤال : صحيح لمساذا ؟

جواب : لننظر إلى أى إنسان يريد أن يكون غنيا . أنه عادة يشترى شيئا جديدا لا ضرورة له . ولكن هذا الشيء حذاء موسيقيا . أى تصدر عنه موسيقى عند كل خطوة . فما الذى يفعله هذا المخترع لكي يجعل إنتاجه شعبيا ويبيعه للناس ؟

سؤال : لا أعرف . . ولكن لا بد من الدعاية له ! أليس كذلك ؟

جواب : لا بد من الدعاية . أى أنه سوف يخلق رغبة عند الناس لشراء أحذية موسيقية . رغبات وطلبات لا وجود لها . ولا يمكن أن يقول صانع الحذاء للزبون : أنتى أبيعك شيئا لا تحتاج إليه . وإنما سيقول له دائما : اتنا نبيع لك شيئا ضروريا . وذلك عن تحويل ما ليس ضروريا إلى شيء ضرورى . هذه الدعاية هي التى تخلق الزبون الذى يستهلك . . أو الزبون المستهلك . . أو جمهور المستهلكين !

سؤال : ولكن ألا ترى أنه يوجد مستهلكون في كل مكان ؟ حتى في الصين فالذى يشتري الحذاء هو مستهلك .

جواب : هو مستهلك . ولكنه ليس زبونا . وإنما هو إنسان يشتري ما هو ضرورى . ملابس يغطي بها وحذاء يضعه في قدميه . . ولكن المستهلك حيوان . .

سؤال : ما الذى تفصده عندما تصف المستهلك بأنه حيوان . .

جواب : المستهلك هو مجرد احشاء . . مجرد بطن . . مجرد معدة . . ومصارين . . أنه مثل أى كائن له فتحات للضم والضم والإفراز بعد ذلك . هذه الكائنات لا تفعل أكثر من أن تدخل طعاما من الفم وتخرجه . وفي المعدة تهضمه ، وبعد ذلك تخلص منه ! . .

سؤال : ولكن ما الفرق بين الصينى وغيره من الناس ؟

جواب : عدة فروق . . فالرجل الأمريكى أو الغربى هو مجرد بطن . .
لا هو أديب ولا هو فنان ولا فلاح ولا عامل . وإنما هو متع ومستهلك .

سؤال : ولكن الإنتاج والاستهلاك يغنيان كل النشاط الإنسانى .

جواب : وهذا ما يفكر فيه الرجل الغربى .

سؤال : فقط ؟

جواب : فقط .

سؤال : ولا يفكر فى نفسه ؟

جواب : هذه النفس التى يتحدث عنها الرجل الغربى لا وجود لها .
فالاستهلاك هو الذى يحدد المستهلك ولا يوجد متع لا يستهلك . والامات
جوعا ولكن يوجد مستهلكون لا ينتجون فى كل بلاد العالم . ويمكن أن
يقال أن غابة الحضارة الإنسانية هى الاستهلاك - أى الإفراز !

سؤال : ما هذه الكلمة ؟

جواب : معناها إخراج ما لا نحتاج إليه فى جسمك . فالإنسان يستهلك
ما يريد وبكميات كبيرة . فمثل الأعلى للمستهلك هو الاستهلاك . ولكن
النهاية : فى الزبالة !

سؤال : أظنك ترى معنى أن هذه كلمات غير دقيقة وغير موفقة . .
لأنه يوجد فى الدنيا أشياء كثيرة غير الطعام .

جواب : هذا التعبير الذى لم يعجبك يصلح لكل ما يستهلكه الإنسان .
فى الصناعة مثلا ؟

سؤال : كيف ؟

جواب : فى المدن الكبرى يوجد الاستهلاك والإنتاج معا ، تماما كما

ينجاور المطبخ ودورة المياه في أي بيت أذهب إلى خارج أي مدينة سوف تجد المصانع . . سوف تجد الأفران الضخمة التي تنتج السلع وقريبا منها سوف تجد الأرض التي يلقون فيها مخلفات المصانع والزباله والخردة . لقد استهلكت المدينة ما انتجته وهضمته . . وتبذت الذي هضمته !

سؤال : صورة قائمة . . ولكن ما الحل ؟

جواب : الحل هو العفة ! الفقر والعفة . . لا أولاد . . لا جماهير . . لا احتياج إلى شيء الرجل وزوجته ماذا يصنعان ؟ انهما في حالة نصف وعي بنجيان طفلا . . وكذلك المصانع في شبه ظلام تنتج . . والآلات تنتج فائض الإنتاج لتقلل إنتاج الإنسان . . لا حل إذن غير العفة والفقر . .

سؤال : كأنه لا يوجد حب ؟

جواب : ولماذا الحب ؟ أنه عمل ميكانيكى . . أن الحب لا يؤدي إلى الجنس . . أن الحب يؤدي إلى العفة .

سؤال : لا أفهم . . لقد دوخنى !

جواب : الحب والجنس غريزان في هذا العالم . . انهما مختلفان . . الجنس . . إنتاج . . والحب : عفة . . والفقر هو الحالة الطبيعية للإنسان . . ولذلك فالصين هي المجتمع الطبيعي الوحيد في هذا العالم . .

• • •

أرجو أن تقرأ هذه السطور السابقة من جديد - ليست هذه رغبتى ، ولكنها رغبة الكاتب الإيطالى الكبير البرتومورا فيا . أما أنا فقد فعلت ذلك عدة مرات !

ولم تجد أحدا
يصفو لها
في الزاوية!

عندما ولدت هذه الفتاة ونظرت إليها أمها قالت :

ياسائر . . الخالق الناقص عنها . . أعوذ بالله ١ . . .

مثل هذه العبارة قالتها أيضا أم الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل . .
ولابد أن أم سقراط قالت عبارة شبيهة بذلك عندما ولدته . . فقد كان
سقراط معها ! . .

ولكن هذه الفتاة لم تكن كذلك فعندما كبرت كان الوجه مثل وجه
شاب . . والرأس صغيرا والشفتان رفيعتين . والأذنان صغيرتين . . ولكنها
أنقذت بعد ذلك وبصيرة صارخة .

هذه الفتاة اسمها إمى جونسون . . وهذا الاسم ليست له دلالة الآن . .
ولكنه في ٥ مايو سنة ١٩٢٠ كان ماثرا للكلام . . وأكثر الكلام سحرية . .
وبعد ذلك تحول الكلام عنها إلى أن ترتفع العيون إلى السماء . . وتشرح
النفوس ويشعر الكثير من الرجال بالحجل . .

هذه الفتاة إمى ولدت سنة ١٩٠٢ وأبوها صاحب زوارق للصيد . .
وهي كبرى اخواتها من البنات . . وكانت تلميذة مجتهدة . . وبرعت في
اللغة الانجليزية . . ولكن براعتها في اللغة الثلاثية كانت حديث المدرسين .
وكل شيء في حياتها قد بدأ في يوم واحد . فقد قررت وهي صغيرة أن تتركب
مع اخاتها ، على سبيل الزهرة ، إحدى الطائرات التي حلقت بهما في سماء
لندن . . في ذلك اليوم قررت أن تكون لها طائرة خاصة . . وأمتعت

عن الطعام لتوفر ثمن هذه الطائرة . . . ومرضت من الجوع . . . ووعدها
أبوها بأن يشتري لها طائرة عندما تكبر . . . ولم يكن جادا . . . ولكن الفتاة
لم تعد تفكر في شراء الطائرة ولا في الطيران واتجهت إلى الدراسة . . . وكانها
ادخرت هذا الوعد ، ووضعت في مكان أمين . . . كأنه كنز لعين . . . وأخفته
عن العيون . . . وانتقلت من المدارس الابتدائية إلى الثانوية وتخرجت في
جامعة شيفيلد . . . وحصلت على ليسانس في الأدب الإنجليزي سنة ١٩٢٢ .

هنا فقط اتجهت أيمي إلى الطيران . . . والكلام عن الطيران . . . ودراسة
تركيب الطائرات . . . وقبلها نادي طيران عضوا . . . ولم تكتف بهذه
العضوية ، قررت أن تدرس هندسة الطيران . . . وكانت أول مهندسة
ميكانيكي طيران في العالم ، ثم طارت حوالي ١٥ ساعة و ٤٥ دقيقة من لندن
إلى المدن المجاورة لقد طارت ولابد أن تنفرغ نهائيا للطيران وتقدم شاب
لحظتها . . . وكرهت أن تراه . . . لأنه ظهر في الوقت الذي قررت فيه أن
نعطي حياتها لشيء آخر لابد أن تطير من لندن إلى أستراليا ؟ وعرضت فكرتها
على كثير من المسؤولين في لندن . . . وكانوا جميعا ينظرون إليها ويعتذرون
عن مساعدتها . . . وقد تعلق العيون من أذنيها . . . أو في أذنيها . . . فقد كان
من عادتها أن تضع اقراطا طويلة تثمل من أذنيها . . . ولكن الذي ينظر إلى
عينها يجد هذا البريق الذي لا يمكن أن يوصف بأنه دليل على الشجاعة
والإصرار والأثوثة . . . ولكن لها نظرات الأنبياء أو الصوفية الذين ينظرون
إلى بعيد . . . ويرون ما لا يراه أحد . . . وعندهم نوع من اليقين الغريب . . .

سألها وزير الطيران : ولكن لماذا فكرت في هذه المغامرة الخطيرة ؟

وكان ردها : ولماذا فكر أي إنسان قبل ذلك في أن يخامر ؟ !

ولم يعجبه هذا الرد . . . وأعتقر عن المساعدة . . .

وسألها رئيس مجلس العموم : ولكن يا أبتني أنت صغيرة ولم تتدرج
بما فيه الكفاية . . .

وكان ردّها : أنا أعرف ذلك ولكننى قررت أن أطيّر يوم ٥ مايو سنة ١٩٣٠ أى بعد ثلاثة شهور بالضبط .

ولم يعجبه هذا الرد واعتذر عن المساعدة رغم أنه ضغط على يدها بحرارة ونمّنى لها التوفيق . . وقالت له : أشكرك على حرارتك التى لا تقيد ! وخرجت . .

واشترت طائرة ماركة « دى هافيلان موت » بمبلغ ٦٠٠ جنيه
والطائرة لها محركان وقد قطع بها صاحبها أكثر من ٣٥ ألف ميل والطائرة طول جناحيها ثلاثون قدما ويمكن طيى الجناحين وبذلك ندخل غرفة عرضها عشرة أقدام . . . وهذه الطائرة سرعتها مائة ميل فى الساعة . . . وطول الطائرة ٢٣ قدما و ١٦ بوصة وأرتفاعها ٧ أقدام و ٩ بوصات . . . ونحمل ٧٩ جالونا من البنزين وتستهلك خمسة جالونات فى الساعة . . . أى أن مداها لا يزيد عن ألف ميل . . .

ولم يفت أيمى أن تمر على شارع الصحافة . . . ولكن أحدا لم يلتفت إلى الفتاة الشجاعة وإنما إلى الفتاة فقط . . ولم تنس عنها الصحف كلمة واحدة . لا يهم . . وكانت تقول لنفسها : سوف تنشر الصحف عندما انجح !

ولكن تقدم لها رجل كبير فى السن وقال لها : اصحى يا آنسة . . أنا مؤمن بأنك سوف تنجحين لقد راقبتك فى الشهور الماضية . . وأنا أؤمن بك . . وسوف أعطيك ٣٠٠ جنيه . . . لأن ما تحتاجين إليه من وقود فى حدود هذا المبلغ . .

ولما سأله : من أنت ؟

أجاب : رجل غنى . . ليس له معنى ويحاول بهذه القلوس أن يدخل التاريخ على طرف جناح طائرته . .

وعادت فسأله : ولكن من أنت ؟

فأجاب : اسمي يا أبتى . . لا يهم من أنا . . ولكن أنت في حاجة إلى مساعدة . . والشعب في حاجة إلى مثل عليا . . والمثل العليا يضربها الشباب ويشكك فيها الشيوخ . . . طيرى . . . طيرى . .

ولما سأله : وكيف عرف أنها سوف تنجح ؟

قال : عندك جنون العباقرة . . ودقة رؤساء العصابات . . وزهد المتصوفين . . واحتقار الرجل . . أى احتقارك لنفس . . وليس عن الصدفة أن يخلق الله « النحل الشغال » بلا جنس . . فلا هو ذكر ولا هو أنثى . . ولذلك أخرج لنا هذا النحل أجمل ما صنع الله . . فأنت جميلة وكان في إمكانك أن تزوجى أى شاب . . وتستقرى في الأرض ومن حولك عدد من الأطفال . . لهذا كله سوف ننجحين . .

وأعطاهما الرجل المبلغ . . ولكنها أصرت أن تعرف من هو قبل أن تمد يدها إليه . . وكان الرجل مدبرا لأحد المصانع ولم يرزق ولدا . . وماتت زوجته وأمد وأخوته . . وبقي هو الشاهد الوحيد على أسرة أكلها البحر والحرائق والمرضى !

وجاء يوم ٤ مايو قبل الموعد الذى حددته بيوم واحد . . وطلت طائرتها باللون الأخضر . . وجعلت تحوذتها حضراء اللون أيضا . . واطلقت على طائرتها اسم « باسون » وهو اسم أجدادها من اللدنيين وقال لها أصدقاؤها أن اللون الأخضر شئوم على كل من يختاره . . ولكنها أصرت على اللون وعلى الطائرة وعلى الرحلة . . فإذا كان الناس لا يأخذون برأيها ، فلماذا تأخذ بأوامرهم !

وقامت برحلة صغيرة في سماء لندن تجرب الطائرة . .

ويوم ٥ مايو ودعت قليلا من الأصدقاء . . ودرجت الطائرة على أرض المطار . . ثم ارتفعت واتجهت إلى أول نقطة في طريقها إلى استراليا . . فبعد

٨٠٠ ميل هبطت في مدينة فيينا . قطعت هذه الرحلة في عشر ساعات .. ثم قطعت المسافة من فيينا إلى القسطنطينية في ١٢ ساعة . وفي هذا المطار أحس الناس بشئ غريب .. ووجدت عددا كبيرا من المستبشرين والمضيفين وتردد أسبعا في كل العواصم وأحست لندن بأنها قد ودعت ابنها بيرود . وشعر الصحفيون بأنهم قد أساءوا التقدير . ولكن لا وقت للندم .

وفي هذا المطار التركي تقدمت فتاة صغيرة بباقة من الورد .. ثم قدمت لها رسالة صغيرة . تلقت ابني الورد والرسالة . وعادت إلى طائرتها وفي طريقها إلى مطار حلب على مدى ٥٥٠ ميلا ، فكرت في أن تفتح الرسالة لتعرف ما فيها .. وعندما فتحت الرسالة وجدت هذه العبارة بالإنجليزية : أرجو أن تلقى بهذه الورقة في البحر .. فإن عندنا اسطورة تقول الذي يلقى ورقة زرقاء في الماء لا يسقط في الماء .. انتهى لك السلامة .

وضحكت ابني ووضعت الرسالة في جيبها ولم تلقها في الماء . فهي لا تؤمن بالأساطير ولا بالخرافات ولا بالحسد .

وفي مطار حلب استقبلها عدد من الناس . الدهول أهم معالمهم . وترودت بالوقوف ثم كان عليها أن تقطع هذا الطريق الشاق بين حلب وبغداد فوق الصحراء العربية . ولأول مرة تشعر بالخوف .. غابحو حار جدا . والأرض صفراء مخيفة .. وبسرعة انقلب لون السماء وهبطت عواصف رملية مفاجئة . ونحمت العاصفة ساعة بعد ساعة .. ثم اضطرت إلى الهبوط . وبسرعة وخفة هبطت من طائرتها ووضعت الحقيبة وراء العجلات حتى لا تطيح بها العواصف . وأخرجت مسدسها من جيبها استعدادا لأي طارئ .. فقد قيل لها أن هذه المناطق يسكنها جماعة من البدو المتوحشين . وهؤلاء البدو يكونون كراهية للأجانب لا حدود لها .. ولو عرفوا أنها امرأة لحطموا طائرتها وأخذوها رهينة أو أي شئ آخر ..

وخلت العاصفة الرهيبية تكس الصحراء وتلقى الرمال على رأس الفتاة

وعلى هذه الجريدة الصغيرة التي جاءت بها من لندن .. ثم هدأت العاصفة .
وعادت ايمى إلى طايرتها وارتفعت في الجو متجه إلى بغداد . وبشيء من
العناد أخرجت الخطاب الذى كان في جيبها وألقت به فوق الصحراء ..

ومن بغداد اتجهت إلى البصرة ، وكان الجو حارا . وكانت المواصف
الرملية تهب من كل الاتجاهات وعليها بعد ذلك أن تطير فوق الخليج العربى .
وقد ملأوا رأسها بالخاوف وقالوا لها أن فوق الخليج جيويا هوائية وهذه
الجيوب إذا سقطت فيها الطائرة لم يعد أحد يرى لها أثرا .. وقالت ايمى
أنها أحست بأنها فى أحد هذه الجيوب .. ولكن الجيب كان صغيرا ولم
تظل مخاوفها .. وكانت الرؤية متعذرة فوق الخليج .. وعليها أن تصل إلى
بندر عباس على مدى ٦٠٠ ميل .. ونظرت تحتها فلم تجد أى مكان للهبوط
فصل على البصر مستنقعات وأوساط . ثم هبطت فى مكان أمين .. وتزودت
باحتياطي الوقود .

ويوم ١٠ مايو كانت فوق كراتشى . وهى بوابة الهند وأصبحت
ايمى جونسون حديث الدنيا كلها ..

ومن كراتشى اتجهت إلى كلكتا عبر الوديان الهندية الشاسعة .
ولكنها دارت فالتجهت إلى مدينة افه آباد . وفوق مدينة الله آباد ، رافقتها
طائرات السلاح الملكى البريطانى ثم نزودت بالوقود . وبعد ٧٠٠ ميل نفذ
منها الوقود . واضطرت إلى الهبوط . وواصلت الطيران إلى مدينة كلكتا .
انها الآن قد قطعت نصف الرحلة إلى الهند دون أية حوادث .

رف مطار كلكتا قابليها أحد السخرة الهنود . وأعطاهها تموينة . وضحك
أكد لها أن الموقف لا يبعث على الضحك . ثم قال : اننى أعلم أن فتاة
نركية قد أعطتك ورقة وانك ألقيت هذه الورقة فوق الصحراء ..

وانزعجت ايمى . وقالت له : كيف عرفت ؟

وكان رده : إن هذه الورقة ما تزال في جيبتك . ومدت يدها إلى جيبتها فوجدت الخطاب وبدخله الورقة الزرقاء ..

واختفى الساحر الهندي ..

وكان لا بد أن تحتفظ بهذه الورقة . ولكن هذه الورقة لم تمنحها الأمان لقد دخل الخوف قلبها . وأحسّت ببقية الرحلة أن قلبها أعلى صوتاً من الطائرة . وأنها ليست هي التي تقود الطائرة وإنما قوة غريبة .. وأن هذه القوة الغريبة قد جردتها من شرف الشعور بالبطولة .. أنها سوف تكون في نهاية هذه الرحلة صورة مضحكة للشجاعة . لأن الشجاع حقيقة شخص آخر .. أو قوة أخرى . وحزنت لوعي وقبل أن تصعد إلى طائرتها ظهر لها الساحر الهندي . وهويقول : اركبي يا ابنتي .. لا تخافي .. أن الورقة لم تعد في جيبتك . أنت سيدة الطائرة الآن !

ومدت يدها إلى جيبتها فلم تجد الورقة . وشعرت بالخوف والفرع . واختفى الساحر الهندي .

أمامها الآن ٦٥٠ ميلاً لكي تصل إلى مطار وانجون عبر جبال عالية خطيرة . وكانت الرؤية فوق الجبال صعبة . وارتفعت إلى ١٣ ألف قدم .. ثم عادت فهبطت إلى ١٥٠ قدماً .. وظلت سبع ساعات تحاول أن تجد لها منفذاً وأخيراً وجدته فوق غابات لا نهاية لها .. ثم عثرت على أشربة السكك الحديدية وطارت فوقها حتى وجدت نفسها فوق وانجون ..

وعندما قررت الهبوط حدث شيء عجيب .. فقد نزلت إلى أرض لاهة أحد ملاعب كرة القدم .. ودرجت الطائرة على أرض الملعب .. ثم دخلت بين خشبات المرمى دون أن يصاب جناحها بشيء .. ثم فطرت من الطائرة ونظرت لهذه الطائرة الصغيرة التي دخلت المرمى بمنتهى الدقة .. وهبطت من عبتها دمعاً وهي تقول : إن هذا المشهد يحتاج إلى تصنيف الملايين . ولو كانت كرة لفعل الناس . ولكنها طائرة قادمة من لندن تقودها فتاة !

وهب هواء خفيف دفع الطائرة إلى الأمام فتدحرجت إلى فجوة في الأرض فانكسر الجناح - ولحسن حظها كانت هناك ورشة قريبة وأصلحت الجناح في يوم ، وازودت بالوقود . وعادت إلى الهواء .. في اتجاه شبه جزيرة الملايو . في طريقها إلى سنغافورة .. وقبل أن تصل إلى سنغافورة صعدت إلى الجو طائرات من سنغافورة للترحيب بها . وهبطت في هدوء .. وكان حماس الناس جارفا ..

والعالم كله يعرف من هي . ومن أبوها . وأما وأسانتها في المدرسة والجامعة وقصص أخرى عن غرامها الأول وعطيبها الأول . وكيف أنها قالت لخطيبها الأول : إن قلبي لا يتسع لإثنين .. إما أنت أو الطيران ..

ونظر الخطيب الأول وإخفى عن العيون - لقد انتحر !

ولما سألوها إن كانت قد حزنّت على عطيبها الأول قالت : من كان قلبها من الحديد لا تحزن على أحد !

وقصص أخرى روتها الصحف أو زورتها الصحف .. وشغلت الناس في كل مكان !

ولكن أصلي ما نشرته انصحف عن هذه الفتاة لم تعبر في حياتها بحر المانش ، ومع ذلك استطاعت أن تعبر المحيط وحدها ودون مساعدة أحد ، بل رغم أن الجميع رفضوا مساعدتها . وأمامها الآن أقصى جانب من الرحلة كلها . لأنها يجب أن تطير فوق مئات الجزر في أندونيسيا وأن تتجه إلى مدينة دارون في اسراليا أي حوالي ٢٥٠٠ ميل . وعليها أن تطير معظم الوقت فوق غابات كثيفة ومستنقعات أو فوق براكين أو ماء المحيط . وفوق جزيرة سومطرة تعفرت الرؤية وحاولت الهبوط . واضطرت إلى أن تزحف فوق حقل من قصب السكر ونفذت عيدان القصب في جناحي الطائرة وبانت فلك الليلة ضيفة على مدير المصنع . وحاول الجميع أن يسدوا الفجوات في

جناحي الطائرة . وترودت بالوقود . وعادت إلى الهواء . وعندما ركبت
الهواء ارتفعت روحها المعنوية .. ثم هبطت بعد ذلك في مدينة سورا بابا ..
ورافقها طائرات البريد الهولندية ..

وتحررت ابني ألا نتوقف عن الطيران مادام الجو لطيفا والسماء صهوا ..
وعند الغروب انطلقت إلى السماء .. ولم يسمع أحد عنها شيئا . ولا رآها .
وحاولت الشركة الهولندية أن تعرف أين هي .. وكلفت سفنها من ناقلات
البترول أن تبحث عنها في البحر .. وناقل البرق أنباءها : أنها اختفت ..
في الليل أو في المحيط ..

ولكن إحدى ناقلات بترول شركة شل رأتها متجهة عند الفجر إلى
ميناء دارون . فأبلغت هذا النبا إلى مركز الشركة . وناقلته الصحف العالمية ..
أن ابني جونسون في الطريق إلى أستراليا .. أنها لم تفرق . وكان ذلك هو
اليوم التاسع عشر منذ غادرت الجزر البريطانية .. لقد وصلت إلى مطار
دارون .. قطعت ١٢ ألف ميل وليس معها جهاز لاسلكي . وكان من الممكن
أن تخطي الطريق . وهذا طيبى . وإنما انطلقت كأنها سهم . أو كأنها نوع
من حمام الزاجل . وقيل أن فصل إلى مطار دارون شمال أستراليا ، استقبلها
الطائرات .. وعلى أرض المطار رأى الناس هذه الفتاة الضئيلة الحجم الرقيقة
الناعمة ولم يتصور أحد أن هذه النعمة فائقة إلى هذه الدرجة . ولا بد أن هذه
الأنوثة العنيدة تعبر ٩٢ ألف ميل وحدها عبر الليالي والمحيطات والغابات
والجبال !

ولما عادت إلى بريطانيا صدر قرار بتعيينها أول طيارة في العالم . منحها
صحيفة « ديل ميل » عشرة آلاف جنيه .. أما أطفال ميلني فقد جمعوا لها
نبرعات اشترى بها كأسا ذهبية . هذه الكأس تمنح الآن كل عام لأكثر
الشيان شجاعة !

وفي سنة ١٩٣٢ تزوجت طيارا ..

ثم ضربت أرقاما قياسية من لندن إلى رأس الرجاء الصالح ذهابا وإيابا
وكسبت أموالا كثيرة . وكان عليها أن تختار بين الطيران وبين الحياة الزوجية .
واختارت البطولة .. أو الطيران .. فليس في الزواج بطولة !

وفي سنة ١٩٤١ عندما كانت تفود إحدى الطائرات الحربية سقطت
في نهر التايمز .. ولم يهتد أحد إلى جنبها .. وظلت وزارة البحرية محتثة عن
إعلان خبر وغائها حتى نجد البعثة . ولم يعثر عليها . وأعلنت نهائيا سنة ١٩٤٥
أنها ماتت .. وإن الفتاة التي عبرت المحيطات غرقت في أحد الأنهار .
ورواد الفضاء الذين داروا حول الأرض ماتوا في حوادث طائرات
وحوادث سيارات .

ويقول أبوها أن الشيء الذي أدهشه بعد وفاة إبنته أنها كانت حريصة
كل الحرص على تلك الورقة الزرقاء .. وأنها كانت تنقلها من فستان إلى
فستان .. ومن حقيبة إلى حقيبة . ولكن عندما راحوا يقلبون في أوراقيها ..
وجدوا هذه الورقة ملقاة على الأرض . وعندما فتحوا الورقة الزرقاء وجدوا
هذه العبارة : كان لابد أن أفارقك فقد حان أجلك ..

لو كانت
في هذا العمر بقية

حادثة معروفة في التاريخ أن الفيلسوف الألماني شو. بنهور أصدر كتابا . وبعد أيام ذهب إلى الناشر يسأل عن الكتاب فوجد الكتاب كما هو لم تنقص منه نسخة واحدة . لم يشتريها أحد . ثم ذهب مرة ثانية وثالثة وعاشرة ، فوجد أن نسخة واحدة قد اختفت . أي أن مشتريا قد ظهر . وراح يبحث عن هذا المشتري الغريب . . وأخيرا وجد . . وكان أستاذا في الجامعة . دق الباب . . ودخل . ونوقح أن يقول الأستاذ كلمة واحدة عندما سأل : ما رأيتك في هذا الكتاب ؟ وكانت أذنا الفيلسوف قد استعدتا تماما لاستقبال هذه الكلمة : رائع !

وبعدها يعود إلى البيت لينام . فقد ظل في أرق كل هذه الأيام الأربعين التي أنتج فيها هذا الكتاب . وبكفيه جدا غارئ واحد يلهمه أو يمدحه . . وبعد ذلك لا يهم أن ينتشر الكتاب .

فالفيلسوف غنى وليس في حاجة إلى فلوس . الكلمة اللطيفة لا يمكن تقديرها بمال . إنه ترك البيت لأن أمه ترفض أن تقول له : صباح الخير . . ردا على صباح الخير التي يقولها هو لأمه . . فهو فيلسوف مثنايم . ولا بد أن تكون أمه أهم عناصر التشاؤم والشوم في حياته . . وقرر فيها بينه وبين نفسه ألا تكون له أم . ففي إحدى الليالي جلس أمام المראה وقال : أيها الرجل أنت نبات الأرض . . أنت نبات برى . . أنت حيوان وحشى . . أنت مثل آدم . . لا أم لك !

ولكن الأستاذ الجامعي لم يقل له : رائع . . وإنما قال له كلمة أخرى

لا يمكن كتابتها بآية لغة . . والكلمة ليست أهانة مباشرة له . . ولكن لأمه
التي جعلت بينها ندوة أدبية ولم نعلم أنها كيف يقول كلاما واضحا !

وعاد الفيلسوف ليقول عن هذا الأستاذ وعن أمه وعن كل أنسان لم
يفهم هذا الكتاب : هل أصبح أنه في كل مرة يفتح أنسان كتابا من كتبى
لم يسمع صوت حمار ينهى ، لماذا يكون هذا النهي صادرا عن المؤلف
دائما ؟ !

أى لماذا لا يكون صادرا عن القارئ ؟ !

ولم بعد الفيلسوف يبحث عن كتابه الذى اختفى من الأمواق في سنوات
ليظهر بعد ذلك مصباحا . باهرا يضيء الطريق إلى اليأس من الحياة ومن القراءة
والكتابة ومن التفكير ومن الإيمان بشئ إلا أن الشر امرأة . وأن الشيطان
امرأة . والحياة والموت بمعنى واحد !

قرأ قصة الفيلسوف الألماني أرتور شو بنهور اثنان من الشبان الإيطاليين
في وقت واحد . مجرد صدقة . وتقابل الاثنان في أحد البارات في مدينة
تورينو بإيطاليا . الاثنان من أبناء الأمراء . . أو الأغنياء . الأول اسمه الفريد
فيرو والثاني أسمه : أنطونيو بالبو . . وهما في الثانية والعشرين من العمر سنة
١٩١١ ، وكلاهما يهتم بالأدب ويحفظ الشعر . ولهما محاولات في الرسم . .
ولذلك لم يكذب يثنى هذان الشبان حتى تصادقا . وحتى انفقا على أعمال أدبية
كبيرة ، لم تدخل القلوس في الحساب . فها قادران على النشر وليس في حاجة
إلى ثمن أى عمل أدبي . . وفي يوم قال أحدهما للآخر : مارأيك ؟ ورد عليه
الآخر : موافق .

قال الأول : إذن تبدأ مع الآن ؟

.. قال الثاني بل من الغد . فأنا في حاجة إلى بعض الوقت لكي أفكر .

قال الأول : ولكنى فكرت . .

قال الثانى : إذن تلتقى هنا بعد أربعين يوما .

قال الأول : موافق !

وافترق الاثنان على أن يكتب كل واحد منها قصة . . وبعد هذه الفترة يجئ الاثنان . ويحلمان ويقرأ كل واحد منها للآخر ما كتب . وبعد ذلك ينشران هذه الصفحات الضمنية في كتابين أو فى كتاب واحد . .

وبعد أربعين يوما جاء نبرو ومعه قصة عنوانها : « لو كانت فى العمر بقية » . . أما قصة باليو فتناولها : « حبيبى ليس لها قلب من حجر » . . أما القصة الأولى فوضوعها أن شابا أحب فتاة . ولكن هذه الفتاة عذوبته . وحاول أن يقنعها بأنه يحبها . ولكنها تظاهرت بالإقتناع . وقد حاول هذا الشاب أن يرضيها بأى شكل . . طلب إليها أن تأمره أن يعمل أى شئ . . أن يخلق شعره . . أن يقطع أصبعه . . أن ينام تحت بابها فى الشتاء . . يغمض عينيه ليلا ونهارا ولا يفتحها إلا على قدميها . . لم تصدق فتاة . وليس عندها سبب معقول لعدم تصديقه . . ولذلك قرر أن يتركها المدينة كلها . . وأن يعيش بعيدا . . وأن يتزوج أول فتاة تصادفه فى الطريق . وصادف فتاة وكانت جميلة جدا . وتقدم لها . وفوجئ بأنها أعنت الفتاة التى أحبها . . وعرف أن هذه الفتاة قد رضيت بالزواج منه حقا على أنها . . وانتحر هذا الشاب . . فلن يتسع وقته بعد ذلك لى يقنع محبوبته بأنها الصادقة هى التى سأقت أنها . . وليس فى عمره بقية لإقناعها . . ولن يكون ولذلك قرر أن يموت !

أما القصة الثانية التى كتبها باليو فوضوعها أن الفتاة التى أحبها مغرورة . هى تحبه ما فى ذلك شك . . ولكنها تريد منه أن يحبها أكثر . وهى تعلم أنه يحبها . ولكنه لا يدرك ما الذى نريده منه . . أنه يقول لها طول الليل

والنهار : أحبك . وأموت فبك . . . وقلبك هو مغبرة لقلبي . . . وحياتك موفى .
وموفى حياة لك . . . ولو طلبت الهواء الذى أنتغسه لسددت أنفى من أجلك . . .
ولكنها لم تصدق ما يقول لها . . . فهو رجل صناعته الكلام . وهو يعنى
مايقول أو لا يعنى ما يقول . . . أما هى فلبست صناعتها الكلام . أن
ما تشعر به نقوله دون أن تهتم كثيرا بشكله أو مضمونه . . . ولكنه يريد أن
يسمعها يقول له : أحبك . . ألف مرة . . فالحب ليس أعمى فقط . . ولكنه أطرش
أيضا . . أو يتظاهر بذلك . . فالحب . . رغم أنه يرى عيوبه — يريد أن
يلمسها أن يتأكد من وجودها . . ولذلك كانت عيناه فى أصابعه . . وفى
شفطيه وفى ذراعيه . . كلة عيون عاجزة عن الرؤية ولذلك . . فهو يريد أن
يرى أوضح وأن يلمس أعمق . . وهو أيضا أطرش . . يريد أن يسمع
حروف الحب والغرام والحبام والعذاب والأرق حرقا حرقا . . ولحرف الواحد
ألف مرة وتعب من إقناعها . . ونعيت فى إقناعه . وقرر الاثنان أن يفترقا . .
وقرر هو أن يترك لها الدنيا لعلها تقتنع بأنه صادق فى حبه . . وأن الحياة
بعدها لا معنى لها . . وأن الطريقة الوحيدة لإقناعها بأنها هى معنى الحياة هو
أن يموت . . وانتحر . . أما هى فقد قررت أن تؤكد له بصورة عملية أنها لم
تكن تريد من وراء الحب شيئا : لا مالا ولا زواجا ، فقد انتحرت أيضا .
ومات الاثنان دون أن يعرف أحدهما أن الآخر قد مات . . دون أن يقتنع
أحدهما بأن الآخر يمبه !

وقرأ الصديقان كل واحد قصته للآخر . .

وجاءت لحظة صمت . . طويلة . . منتهى الحزن . وغاية التشاؤم ولكن
لحظة التفاؤل الوحيدة قد برقت عندما قالوا فى نفس واحد ننشرها فى كتاب
مستقل . . إن هذه المعانى تدور فى رؤوس كثير من الشباب مادامت قد
دارت برؤوسنا . ولنا وحدنا من يعرف قصة الفيلسوف الألماني والتسفة
الواحدة من الكتاب . ١

وبعد ستة شهور كان كل منهما قد طبع كتابه. وقرر الاثنان أن يكونا بعيدين في أقصى الشمال الإيطالي عندما يصدر الكتابان . . وأن يظلا بعيدين عن عبور القراء وعن أديبهم وأرجلهم عاما كاملا حتى لا يمر بنفس المحنة التي مر بها الفيلسوف الألماني . .

قال أحدهما للآخر . أن الفيلسوف الألماني هو الخمار لأن أحدا لم يفهم الكتاب فاعيب فيه !

وقال الثاني : بل القارئ هو الخمار لأنه لم يفهم كلام الرجل . . ولم ينس الاثنان أن يدخلوا في مناقشة قديمة موضوعها : من هو الغلطان الكاتب أو القارئ .

ومن المؤكد أن اختفاهما دليل على أن الاثنين يخشيان أن يصفهما أحد بالعمومي . . أو بأن كلا منهما حيوان لا يحسن التعبير .

وبعد عام عادا إلى مدينة تورينو . .

وكانت المفاجأة . لقد أحتقن الكتابان تماما . وقال الناشر إنه اختفاء غريب . . عجيب . . فقد جاء رجل واشترى جميع نسخ الكتابين . . وقرر أن يوزع أحدهما في جنوب إيطاليا . . وأن يوزع الآخر في شمال إيطاليا . . أن يفصل بين الكتابين والمؤلفين . . ولكن من هو هذا الرجل ! لا أحد يعرف . ولكن لماذا ؟ لأحد يعرف وكيف عرف موعد صدور الكتابين ؟ لأحد يعرف ! وأحس الاثنان أن هذه عملية خطف . . وأن كلا منهما مثل أم أنجب طفلا وعندما استدارت لتنام إمتدت يد أخرى إلى الطفل وأحتقن الطفل .

وفي لحظة واحدة قرر الاثنان أن يمشيا وراء الكتاب إلى الشمال والجنوب وأن يعرف الاثنان من هو هذا الرجل الغامض . . فأوصافه لا تحمل له أية مزايا خاصة . . فهو متوسط القامة — ملايين متوسطو القامة . . وهو كبير الرأس أصلع . . وله كرش . . وأبيض اللون . . أزرق العينين . . صوته

غلبظ - إنها صفات تنطبق على نصف الشعب الإيطالي من أيام يوليوس قيصر . . إذن اختفى الرجل ومعه الكتاب . . ولكن لماذا ؟ هل هو عقريرت ربما كان ذلك . .

اتجه واحد منهما إلى الجنوب . . سافر إلى نابلي . . ومن نابلي إلى أقصى الجنوب عند تاراتو . . ثم إلى صقلية . . ولكنه لم يجد أثرًا للكتاب . . لا أحد يسمع بالكتاب ولا بالمؤلف . . ذهب إلى كل مكتبة يسأل . . بل إنه كان يلتقي بالناس في الطريق . . يقف عند أبواب المدارس . . عند مدارس البنات . . وعينه لا تفارق أيديهن . . وكان يذهب إلى القسيس في الكنيسة يسأله النصيحة . . وبموضوعه إن كانت واحدة قد قرأت مثل هذا الكتاب ، إن كانت واحدة قد انتحرت بسبب هذه القصة ولكن القساوسة يضحكون ويطلبون إليه أن يصبر على بلواه . .

أما رحلة الجنوب فهي من نصيب الشاب نيرو . . وتعب من هذه الرحلة . . وقرر وهو في طريقه إلى جزيرة صقلية أن يرمى نفسه في البحر ولكنه يريد أن يعرف ما الذي فعله بالبو في الشمال . . إنه يريد أن يعرف من هذا الكائن العجيب الذي قرر أن يمزق الصديقين . . وأن يقتلهما في وقت واحد . . ولكن ماذا ؟

وعاد نيرو أكثر حزنا . . وطال انتظاره لصديقه ولكن الصديق لم يعد وازداد قلقه عليه . . ثم علم بعد شهرين أن صديقه بابلو قد انتحر . مات . ولم يصدق نيرو ما سمعه . وراح يبحث عن صديقه قيل له أنه انتحر في مدينة ميلانو . وقبل أنه استأجر غرفة وأفل على نفسه الباب ومات . واشترط على صاحبة البيت ألا تفتح غرفته قبل شهرين . وقيل أنه تعاطى كمية كبيرة من السم بعد أن اختفى في إحدى المقابر في مدينة جنوة .

الوف المقابر . . وقبل أنه كان حريصا على أن يسد باب المقبرة وراءه قبل أن يتعاطى السم ولكن لماذا ؟

وذهب نيرو إلى كل هذه المدن . . وهام على وجهه في المقابر . . وطال شعر لحيته . . وتمزقت ملابسه . . وأحس أنه بطل في قصة المؤلف مجنون . . وأن هذا المؤلف يمشي على الورق يريد أن يصل إلى نهاية الكتاب . . يأبى شكل . . وأن الهدف ليس واضحا تماما . . وأنه لا يعرف كيف يضع النقطة الأخيرة في القصة . .

وذهب نيرو إلى أحد قاوسة مدينة تورينو وقال له : صديق مات . . وقبله ماتت قصته وقصتي . . لم يعد للحياة معنى . . سوف أموت بيدي . . وسوف أختار مقبرة من مقابر أسرتي . .

ولم يستطع القس أن يمنعه . . وانتحر ومات . . وفي ٢١ مايو سنة ١٩٣٦ أعلن أحد أديرة مدينة تورينو أنه بعد وفاة هذا القسيس عثروا تحت سريره على حقيبة من الجلد مقلدة ومعه خطاب يقول : آسف لما حدث . ولكنني أقسمت على كتمان هذا السر . إنها غلطة والله قادر على أن يسامحني . فليسامحني الله !

أما هذه الغلطة فهي أنه أقسم للشاب بالبو أن يحفظ لنفسه واحدة من قصته . . ونسخة واحدة من قصة نيرو . . ولكن أحدا لم يفهم معنى هذا الخطاب .

وبعد وفاة قسيس آخر في نفس الدير أصبحت القصة معروفة تماما . .

قالتاب بالبو هو الذي أوصى أحد أقاربه فاشترى كل نسخ كتاب نيرو . وأحرقها . ولكنه في آخر لحظة نفيه ضميره . فاحتفظ بنسخة واحدة . ثم أحرق كل نسخ قصته هو أيضا . واحتفظ بنسخة واحدة فقد أحس أن قصة نيرو أجمل وأروع . . فهو لا يطيق أن يراها . . وأن يقرأها الناس وأن

يتحدثوا عنه . . وأن تلتف حوله الفتيات . . وأن يكون مشهورا غنيا . .
ولذلك قرر أن يموت الكاتبان والمؤلفان في وقت واحد .

وفي ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٣ أعلن قسيس ثالث في نفس الدير أنه يستطيع
أن يضيف شيئا إلى مأساة هذين الشابين الصديقين الأدبيين . . لقد قرر بالبو
أن يدفن نفسه في إحدى مقابر أسرة نيرو . . وأنه من العجيب حقا ، أن
يختار نيرو نفس القبر . . فبات الاثنان في مقبرة واحدة . . ولكن لماذا كل
هنا ؟

إنه الحقد حتى الموت . . مع أن القصتين على درجه واحدة من الابداع
الفنى . . وأن كل واحدة منهما فاجدة على أن تمتد في عمر صاحبها مئات
السنين !